رجاء عليش



26.2.2016

لا تولد قبيحاً

بيومي

الوطن العربي

لا تولد قبيحًا

المؤلف

رجاء عليش

مكتبة مدبولي القاهرة

لا تولد قبيحاً

الإهداء

الى الشمس التي غابت فأظلم العـالم وتساقط الجليد فغطى الأرض ودفن نباتات المستقبل الصغيرة الخضراء .. الى الصدر الحنون الذي أرحت فوقـه رأسي المتعبة المثقلة بأحزان حيـاتي وعشرات الأحلام والأفكار الكبيرة .. الى القلب الذي أحبني عندما كرهني العالم.. قدرني عندما احتقرني العالم .. الى أصابع اليد الممدودة بلا ملل وفي عطاء غير محدود والتي تشبثت بها طول حياتي فمنعتني من الغرق في المستنقع الكبير من حولي .. الى العينين الحنونتين العاقلتين اللتين لم ترياني كأضحوكة كبيرة بل كإنسان له قلب وعقل .. قطعة من الشمس تحجبها السحابات الكثيفة لكنها ستكتمل في المستقبل .. عبقري يتخلق وسط تيارات عنيفة من الغبـاء واللامبالاة .. الى الدفىء الوحيد في حياتي .. الى الابتسامة الوحيدة الحنون في حياتي .. الى ثورة العقل الوحيدة في عـالم مجنون مخيف .. الى الذكرى الخضراء الطيبة التي لن تموت أبداً في حياتي .. الى أمي أهدي هذه الصفحات .

رجاء عليش

قـــال :

أصف لـكم نفسي :

أنا رجل بلا امرأة .. بلا حقل للقمح ... بلا زجاجـة نبيذ .. بلا كره للعب ... بلا ذكريات مضيئة .. بلا طريق المستقبل .

على قبري ستكتب العبارة الآتية :

هنا يعيش إنسان مات أثناء حياته .

أنا رجل تتبعه الضحكات والكلاب .. ضحكات الناس ودعوات الكلاب.

أنا رجل تلعنه المرأة في الشارع وتحبه في السرير .

أنا ملك يرتدي ثياب صعلوك .. مفكر يلعب بدمية طفل صغـــير .. مهرج يحاول أن يخلع قناع الضحك من فوق وجهه دون جدوى فالطبيعة قد وضعته هناك وألصقته جيداً ليبقى الى الأبد .

أنا أفكر كأنني أحلم وأحلم كأنني أفكر .

أنت لطيف ككرسي حمام .. ظريف كسيجارة بعد الغذاء .. لذيـــذ ككوز ذره مشوي .. مسلى كببغاء أربيـه في المنزل ويقول لي نكات لطيفة طول الوقت ... طيب كقط حنون يتمسح في ساقي ويقفز فوق حجري ... أنت مثل أخي تماماً ... هذا ما تقوله لي النساء دائماً .

أنا وفي .. طيب .. شجاع .. ككلب ذكي كحمار .

إلهي لقد أرسلتني الى عالم أشعر فيه بخجل شديد من نفسي كلما أبصرتها فوق عيون الآخرين.. أو فوق مئات السطوح اللامعة التي ملأت بها عالمك .. ربما عن عمد .. لتذلني أكثر .. لتشعرني أكثر بالهوان .. إلهي .. لن أسألك عن السبب .. فلا ريب أنك تملك سبباً وجيهاً لذلك .. لكنني سأسألك .. هل حقاً قصدت ذلك ؟.. هل حقاً قصدته ؟

الشمس ... عشت في الظلام كل سنوات عمري .. أرجو أن تشرقي فجأة في حياتي لتبددي الظلام من حولي.. لتبعثي الدفء في أوراقي الجافة الميتة .. موعدنا .. الأفق .. أي مكان وزمان تختارينه .

(رسالة لم أرسلها بعد لحبيبتي)

أبي .. بنوتي لك تمنعني من كراهيتك .. لا أعتقـــد أنني حقيقة أكرهك .. لكني لا أستطيع أن أغتفر لك أنك أحضرتني الى عالم يناصبني العداء الشديد حتى نخاع عظامه .. خلقتني غريباً يا أبي أبحث عن الإنسجام في عالم مليء بالفوضى .. أتعذب .. أتعذب وحدي دائمـاً على إيقاع ضحكات الآخرين وسخرياتهم .. ربما لذلك يا أبي لم أكرر المأساة مع أبناء من صلبي .. من صلبنا معاً .. تكفي مأساة واحدة يا أبي أليس كذلك ؟

بُنيّ ... انني لم أخلقك .. هل تفهم .. إنني لا أملك مصنعاً لإنتاج الأطفال في داخلي أو في أي مكان آخر خـــارج ذاتي ... أنظر إنني حتى لا أستطيع أن أخلق إصبعاً صغيراً .. بنيّ .. هـل فهمت الآن ؟.. إنني فقط نقلتك من مكان الى آخر .. من عالم المجهول الى عالم المحسوس .. ربمـا كانت هذه خطيئتي الكبرى في رأيك لكني لم أخلقك .. هـل تفهمني .. لم أخلقك .. انني مجرد ساعي بريد حمل رسالة مجهولة من مكان الى آخر .. وهو ليس مسؤولاً في حـــالة ما اذا كانت الرسالة حزينة أو دامية .. هل فهمتني الآن يا بني ؟.

(حوار لم يدُر بيني وبين أبي)

المؤلف

المقدمـة

هذه صفحات عن أغرب مشكلة في حياتي .. مشكلة القبح .. يمكنك ان تتخيل أغرب رجل في العالم .. أقبح وجه يمكنك أن تصادفه في أي مكان على الأرض لتتأكد أنك تراني أمامك .. الأضحوكة الدائمة الغرابة الدائمة .. أنا دائماً الأغرب .. الأفظع .. الأقبح .

القبح هو الفكرة المسيطرة تماماً على حياتي ومشاعري أبدأ منه وأنتهي اليه فهو محطة البدء والوصول بالنسبة لي .. القبح هو ذلك الرمـــاد الأسود المتراكم فوق كل ذرات وجماليات ومتع حياتي يصبغها بلونه القاتم الرمادي.. انه الضوء الأسود الذي يشع في كل اتجاهات حياتي فيمنع عني الرؤية الشفافة الواضحة للأشياء والناس .

في هذه الصفحات سأحاول أن أحلل ظـــاهرة القبح كما عشتها بنفسي فلا أحد في هذا العـالم عاش القبح كما عشته .. أحس بفظاعاته ودمويته كما أحسست بها .

إن القبح في رأيي يشبه منشوراً من زجاج شفـاف له عديد من السطوح والزوايا وأنا ساحاول أن اقدم بانوراما شامله من كل سطح وزاوية في هذا المنشور العجيب الذي يبعث بالضوء الأسود في كل اتجاهات حياتي فيسممهـا تماماً ويدمر جمالياتها .

لقد اقتربت من القبح كما لم يقترب انسان في هذا العالم .. اقتربت منه إلى درجة الملامسة والاحساس بالأنفاس الساخنة فالقبح هو صديقي اللدود الذي عشت معه .. في داخلي أو في داخله كل سنوات حياتي .. أصبحت نزواته لا تخيفني .. أنواع الحرمان والعذاب والغرابة التي يبتليني بها في كل لحظـــة من حياتي لا تهزمني .. تمدني بطاقة صراع هائلة .. القبح هو عيناي اللتان كفتا عن الأبصار .. هو أعصابي المشدودة التي تيبست .. هو خلاياي التي شاخت قبل الأوان .. جلدي الذي تغضن وتهدل .

أحسست بفظاعة الاكتشاف منذ لحظات الادراك الاولى لحياتي .. وضعت اناملي الرقيقـــة فوق جلد حيوان خرافي رهيب بعث الرعب إلى قلبي منذ اللحظة الاولى .

عشت القبح لحظـات مليئة بالألم والعذاب النفسي الرهيب .. صداقـات محطمة .. آمال منهارة .. هروب دائم وفظيع من وجـــه قوى شيطانية رهيبة تطاردني .

كرهت القبح كما لم يكرهه انسان في العالم لأني عرفتـه كما لم يعرفه انسان في العالم .. لأن القبح لم يفعل بإنسان مثل ما فعله بي .. كمية الحطام والتعاسة واللاانسانية .. إبحث عن كل مشاكلي تجد أن القبح يختفي وراءهـا .. تلك الأصابع الشريرة التي تحرك خيوط حياتي .

أحياناً أتخيل القبح سلسلة من الانفجارات المتوالية في حياتي لكن الغريب أنني لم أتحطم حتى الآن أو أتناثر على الأرض فأنا مخلوق من مادة قابلة للالتحام السريع .. مصممة ضد أقصى أنواع الصدمات والانفجارات .

ما رأيته .. ما عشته بعيد تماماً عن التصديق .. ولو أن انسانـــاً ملك القدرة على استلهام المستقبل قال لي في بداية حياتي أن الناس سيصلون إلى هذه الدرجة من الغباء والأنانيـة والتوحش لقلت أنه يريد أن يخيفني لكنني عشت المأساة بنفسي وصدقت كل شيء .

لقد انتهيت بعد تجربتي الطويلة في الحياة إلى أن القبح ليس مجرد ظاهرة غريبة تثير ضحك الناس وازدرائهم فحسب بل هو أقرب ما يكون الى عاهه حقيقية يبتلي بها الشخص القبيح فتحدث في حياته ما تحدثه العاهات في حياة أصحابها من تدمير وتشويه بل اصبحت أومن ان القبح ربما كان أفظع العاهات واكثرها ايلاماً وتدميراً للنفس الانسانية على الاطلاق فالانسان القبيح لا يثير اشفاق أحد من الناس أو احساسه بالعطف عليه أو الرثاء له .. القبح يستفز مشاعر الآخرين العنيفة .. كل حاستهم النقدية الساخرة فيوجهونها بضراوة عنيفة ناحية الانسان القبيح قاصدين اهانته وتدمير معنوياته .

انهم يقفون مدهوشين امام ظاهرة غريبة لا يفهمونها .. ظاهرة تستفز كل مشاعر الكراهية في داخلهم كل الثار المرة المأساوية التي يصبح القبيح ضحية لها في نهاية الأمر .

لكن إذا قلنا ان القبح هو احدى العاهات التي تدمر حياة الانسان القبيح فالغريب ان الانسان القبيح لا يحس بأي عجز جسماني يمنعه من الأستمتاع الكامل بالحياة كالآخرين .. انه فقط يحس بحاجز شفاف وغير مرئي يحول بينه وبين الاندماج في الحياة .. حاجز من صنع الآخرين الذين يضمرون له الكراهية والشر لمجرد انه انسان مختلف قبيح .

الناس بغبائهم المعهود هم الذين يصنعون من ظاهرة هي على أسوأ الفروض مخجلة مأساة عميقه.. نوعاً فظيعاً من العاهات التي تدخل في التصنيف التقليدي للعاهات وان كان يترتب عليها نفس النتائج المأساوية الدامية .

إذ رغم ان تدمير معنويات إنسان وسلبه آدميته هو أخطر كثيراً من سلبه حاسة من حواسه وأبعد أثراً في تدمير حياته وتشويهها إلا أن الناس بغبائهم التقليدي لا يدخلون القبح برغم كل المأساة الدامية التي تترتب على وجوده ضمن التصنيف التقليدي للعاهات .

لقد اصبحت اومن الآن ان القبح هو لعنة ابدية يصاب بها الانسان القبيح وتظل معه إلى نهاية حياته .. احتمال بطيء مذهل لكل تعاساتها وسيئاتها .. لا مهرب منها ولا نجاة . باستيـــل انساني غريب يعيش فيه الانسان حتى نهاية حياته .

لا أحد في هذا العالم يحب الانسان القبيح .. لا أحد يشفق عليه أو يثق فيه . انه المرفوض الأول .. المكروه الأول .. المعذب الأول .. انـه ضمن وخارج اطار الحياة المألوفة يعيش وحيداً ويتعذب وحيداً ويموت وحيداً .

مشكلة الانسان القبيـــح في رأيي ليست هي احساسه بالاختلاف عن الآخرين لكن في ذلك التربص القائم به من جانب هؤلاء الآخرين .. تضخم المشكلة امامـه بصورة تدعو إلى اليأس المطلـق والقاء السلاح .. تدعو إلى كراهية الناس واعتبارهم مصدر تعاسته الحقيقية .

المشكلة هي الاذلال الدائم له .. تذكيره دائماً بناحية قصوره الخاصة .. النظر اليه باستغراب شديد إذا ما حاول ان يمارس الحيـــاة كشخص عادي متمالك لحواسه الخمسة وهنا يقع الناس في أغرب تناقض متصور.. انهم يعتبرونه القبيـــح انساناً عادياً تمامـاً لكنهم في نفس الوقت يستنكرون منه بشدة ان يمارس حياة الانسان العادي .

الناس هم منطلق المشكلة تبدأ منهم وتنتهي اليهم ولو ان الناس كانوا اناساً حقيقيين ممتلئين بالدفء الانساني والحنان كما ينبغي ان يكون الناس لتقلصت مشكلة القبيح إلى الصفر .. لو تصورنا مثلاً عالماً من العميان أو تصورنا القبيح يعيش وحيداً في مكان ليس به بشر لمـا كانت هناك مشكلة على الاطلاق .. المشكلة أن هناك عيوناً آدمية مليئة بقسوة مروعة توجه أشعتهـا الدائمة الى الانسان القبيح فتحرقه .. تثير فيه كل عوامل الاحساس بالنقص والغرابة .. بأنه منبوذ من العالم الذي يعيش فيه وأن من الخـــير له أن يغرب عن وجهه لكن الانسان القبيح من حقه أن يعيش في هذا العـالم لأنه يملك كل مقومات

الحياة والوجود بداخله لكن الناس لا يسمحون له بذلـك .. الطبيعة تسمح لكن الناس لا يسمحون .

الغريب أن الناس يعاقبون الانسان القبيح على جريمـة لم يرتكبها هو بل ارتكبت في حقه من جانب قوى مجهولة شيطـانية كان يمكن أن تنكل بهم مثله لكنهم أفلتوا بمعجزة بمجرد صدفة حسنة في حياتهم.. يعاقبونه جميعاً.. يعاقبونه طول الوقت .. يعاقبونه حتى نهاية حياته .

الشيء الأفظع من ذلك هو حيثيات ذلك الحكم البالغ القسوة .. اتخـاذ مقاييس بالغة الضحالة لقياس الجمال الذي هو أساس هذه الجريمة المضحكة .. الجمـال في نظر هؤلاء القضاة الحمقى هو التناسق الخارجي لشكل الانسان بصرف النظر عن إحساسه الحقيقي ومشاعره الداخلية التي قـد تكون بالغة الضحالة .. ونحن إذا طبقنا هـذا المقياس الضحل لقياس الجمـال على عظماء الرجال في العالم لكان رجل مثل بيتهوفن أو تولوز لوتريك قبيحاً !

القبح في رأيي مشكلة لا حل لها إلا في إعادة خلق الحياة من جديد بلا أخطاء أو تفرقة أو على الأقل بزرع الحنان والحب في قلوب الناس وتعويدهم على النظر بموضوعية وحنان الى الانسان القبيـح والاعتراف له بحق الحيـاة والمشاركة مع الاخرين .

أنا أعي تماماً كيف حرمني القبح من الحب والعمل والحرية .. كانت عيون الآخرين تلمع من حولي دائماً بسخرية شديدة .. تذكرني دائمـاً بأن أعود الى حجمي الحقيقي كما يرسمه الناس وليس كما هو في الحقيقة.. كنت دائماً أصطدم بذلك الحاجز الشفاف وغير المرئي الذي يحول بيني وبين الاندماج الكامل في الحياة .. كانوا يشعرونني دائماً بأنني انسان غـير عادي .. منبوذ ومكروه من الآخرين .

العيون تتفرس فيّ بطريقة تجعلني أحس بمنتهى الارتباك أمامهـا .. بعد

كل هذه السنين الطويلة التي عشتهـا وسط هذه العيون اللامعة الحقودة فانني لم أعرف بعد بالذي تريده مني .. الشيء المؤكد أنها تكرهني .. انها تنظر إليّ باستغراب شديد مستهجن .. تستهدف إيذاء آدميتي .. العيون ألغـام تحذرني من مجرد الاقتراب منها أو ملامستها .. أشبه زنجيـاً يعيش وسط ملايين العيون البيضاء التي تشيع الارتباك والكراهية والعار في حيـاته .. العيون التي تمضغه وتبصقـه على الأرض في صورة اجترار مستمر .. الزنجي يرتقي بكفاحه حتى يصل الى قمة المجتمع.. رجل وقور في الستين من العمر.. يركب سيارة فارهـة .. يستوقفه صبي أبيض في الطريق ويقول له .. يا ولد .

لقد اتفق الناس على أن يحققوا نتيجة مروعة في حياتي .. أن يجمدوني في مكاني .. فأنا واقف لا أتحرك خطوة واحدة الى الأمام .. لم أحب أو أعمل أو أتزوج أو أنجب أطفالاً .. أشبه صخرة في محيط من الأمواج الصاخبة .

الآن أشعر أنني وصلت الى الحضيض فالأمر تجـاوز مجرد الاندهاش في العيون الى الوقاحة المتعمدة من جانب الآخرين.. الشتائم وصيحات الاستنكار وصفير السخرية كلها تتابعني في كل مكان أحل به .. إنهم يبصقون على الأرض بشدة عندما اقترب منهم وقد امتلأت وجوههم بأقصى درجات الكراهية .. انني في نظرهم متهم بكل التهم القبيحة فأنا مجنون شاذ غريب غبي قبيح وهذا يدفعني للتساؤل عن معنى العدالة عن معنى الانسانية .

أتصور لو أنني رأيت الإله في لحظات الحزن الفظيعة في حياتي لما ترددت في إطلاق الرصاص عليه ، فما صنعه هذا الإله بي يعتبر جريمـة لا يمكن اغتفارها.. لو أن الغزاة قدموا الى مدينتي الميتة القلب لفتحت لهم الأبواب.. لما رفعت سلاحاً ضدهم لا لشيء إلا لأنهم يحملون الإذلال والعار للناس الذين أكرههم من أعماقي .

كيف أدافع عن مدينة تكرهني .. تريد لي العـــار الدائم .. مدينة لا أملك دائرة حنان واحدة فيهـا قطعة صغيرة من الشمس التي تشرق على ناسها .. الشمس التي لا تصل أبداً الى غرفتي .. لا يطل قمرها على حقلي .. يقطف الأطفال الصغار الأشقياء زهوري ويطئونها بالأقدام .. مدينة ليس لي فيها امرأة واحدة تحبني .. إنسان واحد أنتمي اليه أو ينتمي إلي .. طفل واحد يحمل اسمي من بعدي .. كيف أدافع عن مدينة أخاف الى درجـــة تجمد الدم في عروقي وأنـا أمارس أشيائي البسيطة في شوارعهـا التي تعمل أقصى درجات الكراهية والجنون .. الكراهية التي تنطلق من جهاتها الأصلية وتكاد تقتلعني من جذوري .. الكراهية هي غذائي اليومي .

مأساتي الحقيقية هي في التناقض الصارخ بـين شكلي وحقيقتي ولو أنهم وزعوا الجمال ليتلاءم مـع إحساس الانسان الداخلي لكنت أستحق شكلاً أفضل بالتأكيد لكن المأساة حدثت الى درجة أنني أتمنى أحياناً لو لم يكن هـذا التناقض موجوداً حتى لو كان ذلك على حساب إحساسي الداخلي حتى لو كنت مجنوناً أو معتوهاً أو غبياً .

ومـا زلت أذكر ذلك الانسان الغريب الذي كان يسكن بيتاً مجاوراً لنا .. كان أهله من ذوي اليسار وكان هو الأخ الكبير لإخوته الذين وصلوا الى مراكز مرموقة في المجتمع بينما تخلف هو لسبب غريب هو أنه كان قبيحاً ومعتوهاً في نفس الوقت .

كان يرتدي جلباباً نظيفاً وفوقه جاكته يخرج بهما الى الشارع يتريض قليلاً قبل أن يعود الى البيت ، كان مسالماً طيباً وديعـاً .. لكنهم وأنا أعني كل الناس خصوصاً أطفال الحي الصغار كانوا يصنعون من رحـلة التريض اليومي هذه رحلة الى الجحيم .. كانوا دائماً يصرون علىتذكيره بغرابته .. لا يتركونه وشأنه بل يصرون على مشاكسته والضحك عليه .

كانت رأسه ضخمة وعيناه جاحظتين الى الأمام وكتفه مقوسة ممتلئة ..

كان يعيش في عالم من الصمت والظلام وفي اللحظة التي كان يطل فيها برأسه من المنزل كان يقابل بصيحات الاستهجان وصفير السخرية من جانب أطفال الحي أما الكبار فكانوا يكتفون بالابتسام .. في كل مرة كانوا يبتسمون حتى لو رأوه مائة مرة في اليوم الواحد .

الأطفال يصرخون في ظهره .. برق .. برق .. ويتوقف برق المسكين ويلتفت الى الوراء ليرى من يناديه لكن الأطفال الأشقياء يسارعون بالاختفاء داخل شقوق عميقة في الأرض كأنهم مجموعة من الصراصير ويهم برق بالسير من جديد ويقطع بضع خطوات قليلة ولكن النداء الشيطاني الغريب يأتي كسكين قاطعة فيخترق ظهره .. برق .. برق.. يا ابن الكلب .. يا خول.. ويتوقف برق المسكين ويلتفت باحثاً بعينيه الجاحظتين الملوثتين بالدموع والدهشة عن الأطفال الذين يسارعون بالاختباء في الأرض كالصراصير .

وهكذا تبدأ وتنتهي رحلة التريض اليومي بالنسبة الى برق المسكين .. المتعة الوحيدة في حياته.. الخروج الوحيد من الحبس الانفرادي الذي فرضته عليه الطبيعة المجنونة والناس .

لم أكن في سن تسمح لي بالتحليل العقلاني لهذه الظاهرة المخيفة لكن مشاعري تستنكرها طول الوقت .. تستنكر اللاإنسانية والفظاعة والجهل فيها .

كنت أتعذب من أجل برق المسكين الرجل الذي يحظى من هم في سنه من الرجال باحترام الأطفال وخوفهم وكنت أعتقد أنه امتهان فظيع للرجولة والانسانية ليس فقط رجولة برق وإنسانيته بل رجولة كل الناس وإنسانيتهم عندما يمتهن طفل صغير آدمية إنسان أكبر منه ويهين رجولته لا لشيء إلا لأن الطبيعة خلقت هذا الانسان مختلفاً عن الآخرين .

ولم أجد في نفسي الرغبة يوماً ما أن أشارك الصراصير الصغيرة ضحكهم

على برق المسكين بـل على العكس كان يراودني إحساس عميق بأنني سألاقي مصير برق ذات يوم سأخرج الى الشارع لأتريض فيحولون رحلتي اليومية الى رحـلة الى الجحيم وقد صدق إحساسي فأنا الآن برق المسكين بصورة مختلفة بعض الشيء فالأطفال يصيحون ورائي والكبار يبتسمون والكل يشارك في السخرية وإطلاق الشتائم وامتهان الكرامة فأنا أبو رأسين وشبتا والغوريللا والغبي والمجنون والشاذ والكلب وابن دين الكلب وكل عائلة الكلاب مجتمعة. وأنا لا أدري كيف يمكن أن أكون كل هؤلاء في وقت واحد .. انني فقط متأكد من شيء واحد هو أنني إنسان ابتلي بكارثة القبح وأنني أعيش وسط مجموعة من الأغبياء سليطي اللسان الذين لا يرحمون أحداً على الاطلاق .

لكن القبح ليس فقط هو الكارثة الوحيدة في حياتي فهناك المرض المزمن الذي عاش معي طول حيـــاتي .. فجأة أشعر كأن دبوساً شكني في عيني وأحس في تلك اللحظة أن رحلة اخرى من العذاب على وشك أن تبدأ ليس رحـلة في شوارع مدينتي الميتة القلب ووسط المجانين من أبنـاء وطني لكن رحلة في داخلي .. رحلة في داخل شرايين دمائي وأعصـابي .. فجأة تنقبض الشرايين التي توصــل الدماء إلى عينيّ فأحس بزعلة فظيمـة فيهما وأرى كل شيء من خلال ضباب كثيف لمدة لا تقل عن الساعة أصل فيها بأنني افضـل أن أموت ثم تنتهي مرحلة التقلص الفظيعة بمرحـــلة إنفراج زائد عن الحد فالشرايين اللعينة عندما تنفرج لا تعود إلى حجمهـا الطبيعي بل تنفرج أكثر ضاغطة على كل الأعصاب الحساسة المجاورة لها مسببـة لي أفظع وألعن صداع مزمن يمكن أن يحس به انسان على ظهر الأرض . صداع لا تفلح في زحزحته عن رأسي كل أدوية العالم بل علي احتماله حتى نهايته .

الصداع الآن يحتل رأسي كلها .. الشرايين منفرجة على آخرها .. تضغط على كل الأعصاب المحيطة بها .. جنازير دبابات تسير فوق لحمي الحي .. معاول تضرب بشدة قاع جمجمتي وعظامها الرقيقة .. ألم هائـــل أحس به .. عليّ

احتماله حتى النهاية .. ليست نهاية الثماني ساعات التي يستمرها عادة لكن نهاية حياتي فهذا مرض لا شفاء منه .. صنابير مياه مفتوحة على آخرهـــا .. في داخلي غثيان يملؤني .. أتوجه إلى أقرب حض للغسيل لافرغ كل ما في معدتي .. ليس مرة واحدة ولكن مرات عديدة لا تنتهي على مدى نوبة الصداع الطويلة انتهى الصـــداع بعد الثماني ساعات اللعينــة أو العشرة أو الاثنى عشرة التي استغرقها .. عادت شرايين رأسي إلى معدلها الطبيعي تصب كميـــة الدماء المعقولة في عيني لكني ما زلت أحس انني شريان كبير في حالة اتساع غير عادي وسأظـل كذلك لبضعة الأيام القادمــة .. أحس انني ملاكم خرج من معركة جعلت كل ما فيه محطم مرهق بحاجـة إلى أسابيع طويلة كي يعود إلى حالته الطبيعية .. أشعر انني مهدود الحيـل .. جائع لكني ما زلت أشعر بالرغبـة في القيء رغم انه لا يوجد شيء على الاطلاق داخـل معدتي لكني اضطر لتناول الطعام حتى أستعيد قوتي الضائعة استعداداً لنوبـــة الصداع القادمة .. دائماً أنا اعيش في انتظار هذه النوبة . كما اعيش في انتظار الصفير القادم .

بعد بضعة أيام ابدأ لأعود إلى حالتي الطبيعية من جديد وحالتي الطبيعية اصطلاح نسبي فهو لا يعني البتة انني اصبحت انساناً عادياً يمكنني ان اصنع ما اريد أو اتناول ما اشاء من انواع الطعام فأنا ما زلت وسأظل مريضاً حتى نهاية حياتي .. اصطلاح حالتي الطبيعية إذن يعني انني لست في حالة نوبـة حادة لكني في فترة نقاهة منها انتظاراً لنوبة جدية .. ففي الصبـاح اشعر بغثيان خفيف ورغبة في القيء .. لا استطيع ان انظر إلى الضوء أو الألوان المخططة الصارخة .. لا استطيع ان اتناول اغلب انواع الطعام التي يتناولها الناس العاديون فأنا محروم دائم منها .

مرضي هو نوع فظيع من الحساسية لا شفاء منه سوى الموت .. انه لعنة أبدية على ان احملها مع قبحي حتى البقية الباقية من حياتي .

هذه هي الحياة التي اعيشها مليئة بالخوف والمرض والقبح والاحساس الدائم بالمهانة .. حياة بلا حب بلا امل في المستقبل .. بلا امـل في الانتماء لأحد .. دين او وطن او حب فلا غرابة إذن ان يكون القبـــح هو محور تفكيري ومناط هذه الصفحات .

وقد يتصور البعض انني مع كل الفظاعات الدائمة التي عشتها واعيشها في حياتي انسان اقرب ما اكون إلى الانهيـار لكن هذا ابعد ما يكون عن الحقيقة فكما قلت من قبل انا انسان مصنوع من مادة سريعـــة الالتحام .. مصممة ضد اخطر وافظع انواع الانفجـارات فإذا ارادوا ان يحملوني فعليهم ان يجمعوا كل اصابع الديناميت من عيونهم ويفجروها في داخلي ورغم ذلك لن يدمروني أبداً . فأنا ما زلت املك املاً في المستقبـــل .. ليس في الناس الذين اعيش بينهم الآن فهؤلاء قد فقدت الرجـاء فيهم تماماً لكن املاً في علم آخر .. ناس خارج الحدود .. اكثر انسانية وعدالة وفهمـاً .. سأخرج وراء الأسوار وساحاول معالجة شكلي القبيـــح وصحتي المعتلة فأنا انسان قوي الاحتمال لا يعرف المستحيل في حياته حينئذ سأنطلق بكل ما املك من قوة العوضاً كل سنوات العمر التي ضاعت مني إذا لم استطع ان افعـل ذلك فلن اشعر بأسف شديد إذا ما وضعت حداً لحيـاتي بل بمنتهى الفخر والاحساس بالكرامة فلم اعش مستكيناً كالآخرين بل مقاتـــلاً من طراز نادر عظيم .. سأموت بعد ان اكون قد حققت شجـاعتي واحترامي لنفسي وهو اقصى ما اريده من الحياة .

رجاء عليش

١ القبيح والناس

طوال فترة وقوفه في الشارع المظلم ظل بصره مشدوداً إلى النافذة المضيئة في المبنى الكبير الذي يقف امامه.. النافذة المغلقة لا يزال ينبعث منها صوت آلة البيانو في خفوت شديد .. كان هذا يعني ان فتاته لا تزال بتلك الحجرة المضيئة لم تفرغ بعد من درس البيانو وان عليه ان ينتظرها بضع دقائق اخرى قبل ان تنزل لمقابلته .

كان يخشى اللحظة التي تقبل عليه فيها وتسير إلى جواره في الشارع طالبة منه ان يعاملها كما يعامل أي رجل في العالم اية امرأة في حين انه ليس اي رجل آخر في العالم .. انه انسان مختلف غريب يتوقع ان يعامله الآخرون معاملة خاصة جداً .

كان يفش العيون التي تمر به .. العيون التي تتوقف عنده ثم تأخذ في التفرس فيه بوقاحة بالغة .. العيون بالونات ضخمة من الضحك تنفجر أمام وجهه .. تمزق لحمه الحي .. تعليقات ونكات وشتائم تطن من حوله طول الوقت .. نوع غريب من ذباب لحوح يلتصق بجسمه المغطى بطبقة لزجة من الشحم فيسبب له ازعاجاً بالغاً .. يصيبه بتوتر في أعصابه يدفع بتقطيبة حادة دائمة إلى ملامح وجهه القبيحة وغير القابلة للابتسام يدفع داخل صدفته

الصغيرة محاولاً الاحتماء بها من الأخطار المخيفة التي تتربص له في الخـارج .. يعود فيكرر الخطأ الذي يرتكبه دائماً .. يخرج بعيداً عن صدفتـه الصغيرة لملاقاة الوحوش الأقوى منه في الخارج .. الوحوش تسارع بالتهامه على الفور توقف صوت البيانو فجأة .. تنبهت أعصابه المشدودة الخائفة .. انطفأ النور في الحجرة البعيدة .. الخطر يقترب منه بسرعة .. سرعـان ما سيجد فتاته الجميلة واقفة إلى جواره في الشارع طالبة منه ان يسير إلى جوارهـا ويعاملها كما يعامل أي رجل في العالم أية امرأة .. انه يعتبر ان هذه مهمه مستحيـلة تماماً بالنسبة له فهو يجد صعوبة بالغة في أن يسير بمفرده في الشارع فما باله إذا سارت هذه الفتاة الجميـلة إلى جواره لكنه لن يستطيـع الهروب الآن ولا بد من قبول المخاطرة .. ذلك بالطبـع لم يمنعه من الاحساس الشديد بالراحة لانتهاء لحظات الانتظار الطويلة المملة .. لحظات الحصار المضروب من حوله من عيون تبادله العداء الشديد .

ابتسم عندما تخيل فتاته الجميلة واقفة أمام باب شقة استاذ البيانو في انتظار قدوم المصعد .. تحتضن حقيبة كتبها بحنان وحب .. سحابة تجهم سرعان ما خيمت على وجهه كأنه استكثر على نفسه الاحساس بشعور رجـل عادي في لحظة حب .. يعلم انهم لن يسمحوا له بالاستمتاع بهذه اللحظة الفريدة من الحنان كان رجل آخر في العالم.. احساسه بالغرابة يتأكد تماماً في تلك اللحظة المثلة بالحزن كما تأكد في لحظات كثيرة سابقة .

قلبه يدق بعنف شديد وهو يلمح فتاته خارجة من باب المصعد الكائن في نهاية الدهليز الطويل المؤدي إلى باب العمارة .

رأته واقفاً رغم الظلام المخيم على الشارع .. ابتسمت له في طيبة وحب.. اغتصب ابتسامة باهتة وضعها فوق شفتيه بصعوبة بالغة رغم انه احس أيضاً بلهفة شديدة للقائها .

عبر الشارع بتثاقل شديد واحساس بالهم .. تقابلا في بؤرة الضوء الموجودة

امام باب العمارة .. احس انه اصبح عارياً فجأة امام كل العيون التي تمر به..
احس انهم جميعاً كفوا عن عمــــل أي شيء آخر سوى مجرد التفرس فيه ..
مدت له يدها في حب حقيقي ولهفة للقاءه .. عيناها تلمعان بدفء غريب على
عينيه .. يحيي الآمال الميتة في قلبه .. يحاول باستماتة بالغة أن يبقى الابتسامة
الشاحبة فوق شفتيه لأطول وقت ممكن .. بحذر راح يختبر مدى الصدق في
عينيها .. للمرة المليون لا يستطيع أن يصدق أن فتاة جميلة يمكن أن تحبه
هو في الوقت الذي يحس فيه أنه مكروه من كل الناس .. المخـــاوف تتكاثر
كجراثيم سريعة الانتشار في داخله وهو يتبين أن عليه أن يبدأ الآن المهمة
العسيرة .. أن يسير مع الفتاة الأثيرة إلى قلبه خلال صفين من عيون رهيبة
تبادله عداء عميقاً .

عينا الفتاة تشجعانه على قبول التحدي الذي ينتظره .. عيناها مليئتـان
بدفء حقيقي نادر لم يجده في عين آدمية من قبل .. تمدانه بطاقـــة صراع
هائلة .. من أجلها مستعد لأن يحارب العـالم بأسره .. يتشبث بحياة يكرها
حتى أطراف أصابعه .. حاول باستماتة بالغـة أن يخفي كمية الحزن والمخاوف
العميقة عن عيني الفتاة المتطلعتين اليه .. لم يستطع أن يوجه اليه بصره .. دائماً
كان يتجه به إلى بعيد .

ابتعدا عن طوفان الضوء المتدفق من باب العمارة .. ابتلعهما الظـلام المخيم
على الشارع الطويل .. المخاوف لا تزال تتكاثر في داخله وأصابع الفتاة تحاول
أن تعثر على أصابعه .. تتشبث بها بعد أن عثرت عليهـــا . عرق بارد غزير
يتصبب بسرعة فوق وجهه القبيح الذي يكتسي بمسحة أسى بالغة .

في داخله تمنى الانتماء لعالم الفتاة الجميلة التي تحاول باخلاص أن تقترب منه
لكنه كان متأكداً أن الأوغاد لن يسمحوا له بذلك .. الأوغاد الذين يملكون
العالم والذين يحركون تعاسته بخيوط يمسكونها بين أيديهم .. تمنى الانتماء لعالم
بلا خوف وبلا مهانة .. بلا ركلات أقدام في مؤخرته أو صفعات على وجهه..

لكنه كان يعلم أن هذا العالم لن يوجد أبداً في حياته .

طول الوقت كان يحاول أن يمثل دوراً مقززاً بالنسبة له لأنه دور مزيف وغير حقيقي .. كان يحاول أن يمثل دور انسان سعيد واثق من نفسه يسير في الشارع إلى جوار فتاة جميلة تلتصق بجسمه وتتشبث بأصابعه .. أحس أنه سيتقيا لو استمر في تمثيل هذا الدور المقزز أكثر من ذلك.. أراد أن يصارحها بالحقيقة المخجلة أنه كائن مذعور خائف .. انه فار صغير يعيش في جحر تحت الأرض وأن دبة قدم واحدة إلى جواره من واحد من الناس الذين يعيشون فوق الأرض كافية لكي يسارع بالاختباء في جحره البعيد تحت الأرض ولا يخرج أبداً .

لكن عليه أن يستمر في تمثيل دور الرجل الواثق من نفسه لأنها تتوقع منه أن يكون رجلاً وهو بكل امكانياته كممثل سيحاول الاستمرار في تمثيل هذا الدور .

لكن الخوف لا يريد أن يفارقه .. الخوف والاحساس بالتوتر والمهانة ومنتهى العذاب.. كان يحاول الاقتراب من الفتاة ليلتقي معها في مكان يتوسط المسافة بينهما .. يحس أن هناك حاجزاً شفافاً وغير مرئي أشبه بغشاء البكارة يفصل بينهما .. حاجزاً لن يفض أبداً . لكنه يحس أن الفتاة مصرة على اختراق الحاجز غير المرئي بينهما .. لا تنقصها الارادة أو الشجاعة لذلك يخامره احساس بأنها تدرك مأساته الحقيقية لكنها لا تجد الكلمات المناسبة للتعبير عنها .. كلاهما يخجل من مفاتحة الأخر بهذه المشكلة المشينة .. مشكلة انسان قبيح يعامله العالم بعداء شديد لمجرد انه مختلف عن الآخرين .

الفتاة تبدو غريبة عن هؤلاء الآخرين الذين ينظرون اليه باندهاش شديد أو يتظاهرون بذلك حتى لو كانوا يرونه للمرة المائة أو الألف .. اختلافها يشعره بالحيرة والتوتر .. بأنه يقف أمام ظاهرة غريبة يدفعه للتساؤل عن السبب الذي يجعل هذه الفتاة مختلفة عن الناس الذين عرفهم في حياته ..

الخوف ما يزال يتكاثر في قلبه وهو يسير إلى نهاية محتومة.. يعلم انه سيصطدم بحائط متفجرات في مكان ما من هذا الطريق وسيتحول إلى اشلاء وستتبعثر كل الأحلام التي اختزنها في قلبه .

يبدأ يختلس نظرات حذره متوجسة إلى وجوه القادمين نحوه .. يلمح فيها تغييراً مفاجئاً بمجرد أن تقع عيونها عليه .. تغييراً يحولها إلى وجوه بهلوانات مضحكة .. العيون تلتهمه بضراوة قطـــة متوحشة تلتهم فأراً صغيراً لذيذ الطعم .. العيون تبصقه من جديـد على الأرض في قرف شديد تبصق وجوده نفسه .. انسانيته .. يكره هذه الوجوه الغريبة من أعماقه .. يرى انه ينبغي جمعها واحراقها في مكان بعيد وتخليص العالم من شرورها .

يتظاهر أمام العيون القادمة نحوه بأنه رجل وليس فأراً .. ان له مخالب وقادر على الصراع وانزال الدم .. ورغم تفكيره المضنى في المشكلة لم يستطع أن يدرك الحكمة في أن بعض الناس يولدون فئراناً والباقون قططاً .. بعضهم دجاجاً والآخرون ذئاباً .

المؤكد أنه سينتقم لكل لحظات البؤس والهوان في حياته..لكل اللحظات التي اضطروه فيها للتخفي في زي الفأر اللعين .

لم يشعر برغبة في تبادل حوار مع الفتاة السائرة إلى جواره .. كان كلاهما مختنقاً بالصمت .. ألعن وأفظع أنواع الصمت .. كان لا يزال يفكر كيف يمكن لفتاة جميلة ان تحبه هو .. كيف لا ترى جلد الفأر اللعين تحت ملابسه.. ذيله الطويل الذي يخفيه ببراعة مذهلة داخل سرواله .. وبدا يتذكر أشياء يمكن ان تساعده على حل اللغز .

كان قد انتهى من عزف احدى سوناتات بيتهوفن الصعبة ببراعة بالغة في نفس الحجرة التي كانت مضاءة منذ لحظات قليلة.. أحس بشعور عميق بالسعادة ويد الاستاذ الايطالي الذي يدرس له البيانو تربت كتفه في رقة بالغة كتعبير عن امتنانه لاجادته العزف .. قام من فوق مقعد البيانو الصغير وجمع نوتات

البيانو ووضعها داخل حقيبته الصغيرة واستعد للانصراف هو واستاذه الايطالي يقطعان الخطوات القليلة في طريقهما إلى باب الحجرة الزجاجي الذي يفصلها عن الصالة الصغيرة .. يتكلمان في موضوع يحلو لهما دائماً الكلام فيه .. الموسيقى ونصائح الاستاذ الخاصة بالعزف .. يفتحان باب الحجرة الزجاجي .. يتوقفان عن الكلام والضحك عندما يريا الفتاة الجميلة جالسة فوق أحد مقاعد الصالة الوثيرة تتصفح احدى مجلات الاستاذ الايطالية المصورة .

المصباح الكبير الذي تجلس تحته الفتاة يجعل كل شيء فيها يتوهج بشدة .. بشرتها السمراء الصافية التي تشبه النبيذ .. شعرها الأسود الناعم المتهدل في عذوبة شديدة فوق كتفيها المستديرين .. عيناها الواسعتان العسليتان .. رفعت الفتاة بصرها في اضطراب واضح عن المجلة التي تمسكها في يدها .. وضعت المجلة فوق مجموعة المجلات الاخرى الموضوعة على المنضدة الموجودة أمامها .. اختلست نظرة سريعة خائفة إلى وجهي الرجلين الذين تفرسا فيها بدهشة ممزوجة بإعجاب شديد .. قامت وتناولت حقيبة كتبها الصغيرة استعداداً للدخول إلى حجرة الدرس .. مرتبكة .. خجلى بعض الشيء .

قال لها الاستاذ الايطالي بلهجته المرحة الخالية من التكلف وبلكنته الأجنبية الواضحة ليخفف من اضطرابها مما جعلها تبتسم في خفوت :

هالو يا آنسة .. لم أعلم انك هنا منذ وقت طويل .. تفضلي بالدخول إلى حجرة الدرس ريثما أعود بعد قليل .

قبل ان تدخل الفتاة إلى الحجرة توقفت قليلاً .. التفتت وراءها بحركة حاولت ألا تبدو متعمدة .. هو وحده أحس انها تعمدت الالتفات ناحيته .. عيناها تتألقان بدفء انساني غريب لا يذكر انه رآه في عين آدمية من قبل .. التقى بصراهما في لحظة خاطفة هزت مشاعره .. الدفء المنبعث من عينيها الحنونتين يتدفق في جنون مدهش داخل وجدانه .. يهزه من الأعماق .. يثيره إلى أقصى حد ممكن .. نما في داخله للمرة الاولى في حياته احساس قوي

بالأمل .. بأنه ليس ميئوساً منه تماماً وان عليه ان ينتظر بعض الوقت .. هذه النظرة ربما كانت خادعة تماماً .. ربما كانت مجرد فضول أو اندهاش عادي من النوع الذي يصادفه كثيراً في حياته وهو يحملها أكثر مما تحتمل لكن احساساً داخلياً يقول له بأن هذه النظرة مختلفة عن كل النظرات التي صادفها في حياته وان عليه أن يتوقع من ورائها الكثير .. ببساطة لا يمكنه أن يتغاضى عن هذه النظرة مهما كانت احتمالات الخداع فيها بل ينبغي أن يتشبث بها إلى النهاية .. هذه النظرة التي لو وجهت إلى واحد من الرجال القطط الذين يملئون العالم من حوله لما أحدثت به كل هذا الاضطراب .

واقف مع استاذه الايطالي في انتظار قدوم المصعد .. سأله بلباقة شديدة عن الفتاة التي رآها الآن .. حصل منه على كل المعلومات التي تهمه .. الفتاة طالبة مثله عند استاذ البيانو لكنها جديدة لم يرها من قبل .. موعد درسها يأتي بعد انتهاء درسه مباشرة .. هذه أتت مبكرة عن موعد الدرس .. ترى لماذا .. أخذ يسأل نفسه عن معنى النظرة التي وجهتها الفتاة اليه .. هذه النظرة تحمل اعجاباً صريحاً لا شك فيه .. ربما اعجبت بعزفه .. هذا هو التفسير الوحيد المقنع .. ان فتاة مثلها لا يمكن أن تعجب بإنسان مثله .. قد تعجب بعزفه .. بتفكيره لكنها لا يمكن أن تعجب بشخصه .

وبدا الأمل يتصاعد في داخله ويقوى فيه منطق الانتصار .. إنه يسمع عن فتيات جميلات يصادقن رجالاً موهوبين محرومين تماماً من نعمة الوسامة فلماذا لا يحدث معه نفس الشيء .. الذي يستطيع أن يخمنه أن هذه الفتاة كونت فكرة حقيقية عن شخصيته قبل أن تراه عندما سمعت عزفه .. لم يصدمها شكله القبيح عندما رأته بعد ذلك .. العكس تماماً يحدث مع الناس الذين يرونه أولاً ثم يكونون فكرة خاطئة عن شخصيته الحقيقية بعد ذلك .. مشكلة لا حل لها سوى أن يتغير هو أو يتغير الناس .

الخوف يتزايد في داخله وهو يتقدم في الشارع الطويل المظلم متوقعاً

الاصطدام بحائط المتفجرات بين لحظة واخرى .. الخوف ثمرة عطنة يكاد يشمها مع الهواء الداخل إلى أنفه .. الظلام يطمس معالم الوجوه التي تمر به.. لا يلمح فيها شيئاً سوى ابتسامات التحدي التي يقابلونه بها .. حتى الفتاة السائرة إلى جواره ذابت هي الاخرى في الظلام .. ذاب وجودها الحي الانساني نفسه .. أحس بأنه وحيد خائف يتوقع الخطر كما كان دائماً في حياته.

فجأة تنبهت كل حواسه .. أبصر أفراد الشلة واقفين تحت عامود النور البعيد كما توقع أن يجدهم .. ارتفعت ضربات قلبه إلى الذروة في الوقت الذي سكن فيه كل شيء من حوله وفي داخله .. يشبه كبسولة فضاء تندفع بسرعة إلى الأرض ومظلتها الواقية لا تريد أن تنفتح .. سيصطدم بحائط المتفجرات الذي ينتظره هناك حيث يقف أفراد الشلة .. سيتبعثر ومعه كل الأحلام الجديدة التي تملأ قلبه .

بدا يرسل بصره البعيد ليحوم حول وجوه الأوغاد الواقفين هناك ليعرف على وجه الدقة اللحظة التي سيبصرونه فيها .. يتوقع أن يتنبهوا لوجوده حتى قبل أن يبصروه قادماً نحوهم .. رائحة فرائه الغريبة العطنة ستنبههم اليه في نفس اللحظة التي سيدخل فيها مجال أنوفهم الحادة الشم .. سيبدأون منذ تلك اللحظة هجومهم الضاري عليه طرأت في ذهنه فكرة العبور إلى الرصيف الآخر كما تعود أن يفعل في المرات السابقة .

أصر على أن يظل سائراً على نفس الطوار متحملاً كافة النتائج المترتبة على شجاعته الغريبة المفاجئة . هذه الشلة من الأوغاد ليست غريبة عليه .. سبق ان رآهم من قبل وخاض معهم تجارب مريرة .. ذات يوم كان متوجهاً لأخذ درس البيانو كالعادة .. أبصر أفراد الشلة واقفين في نفس المكان الذي يقفون فيه الآن .. ناصية العالم .. كانوا يتمايلون ويتضاحكون بشدة ومجون .. أصواتهم المدوية تشبه فرقعة قنابل رهيبة تبعث بالفزع إلى قلبه .. أدرك بالغريزة ومن وحي تجارب سابقة مع غيرها من الشلل أنهم لن يدعوه يمر بسلام

من أمامهم سيصطادونه من ذيله ويقذفونه في الهواء بعد أن يلهوا به قليلا .. مهما حاول أن يخفي ذيله الطويل داخل سرواله فانهم سيكتشفون أنه فأر وليس رجلا كما يحاول أن يبدو أمامهم .

راودته فكرة العبور إلى الرصيف الآخر تجنباً لمشاكل ليس على استعداد لمجابهتها في تلك اللحظة .. في اللحظة الأخيرة أصر على أن يظل سائراً على نفس الطوار .. كان العبور إلى الرصيف الآخر في حد ذاته مهانة لا يمكنه قبولها .. كان خائفاً لكن كان يتظاهر بالصلابة .. كان يخفي فرائه اللعين خلف ملابسه المصنوعة من الورق المقوى والمشبوكة بدبابيس رفيعة تمنعها من السقوط على الأرض.. عيونهم التي تتفرس فيه وقد امتلأت بالضحك والاندهاش الشديد من منظره الغريب نزعت الدبابيس من ملابسه التي سقطت على الأرض وتركته عارياً تماماً أمامهم .

اكتشفوا أنه فأر وليس رجلا كما حاول أن يتظاهر أمامهم .. عذبوه .. امتهنوا آدميته .. وضعوا الدبابيس الرفيعة التي نزعوها من ملابسه في الجزء الحساس الفاضل من رجولته .. أطلقوا بالونات الضحك الهائلة من عيونهم وافواههم لتنطلق نحو وجهه وتنفجر فيه .. تمزق تماماً .. خسر المعركة من بدايتها أمام الأوغاد المسلحين بأسلحة لا قبل له بمقاومتها .. تجاوزهم بعض الشيء .. تصور أنهم سيتركونه وشأنه .. كان لا يزال سائراً في المدى المؤثر لنيرانهم البعيدة .. طلقة مدفع انفجرت إلى جواره.. ملأته بعشرات الشظايا الصغيرة المخصبة بالدم ورماد الاطلاق.. بحق الشيطان لماذا يخرج هذا الانسان القبيح من منزله .. لو أنني في مكانه لما غادرت البيت على الاطلاق .. طلقة اخرى من طلقات المدفعية البعيدة المدي انفجرت في داخله هذه المرة .. دمرته تماماً .. لم أر أقبح منه في حياتي .. اعوذ بالله أنه غوريللا.. غوريللا بكل تأكيد .

لم يتوقف عن السير ولم يلتفت وراءه ليرد على الأوغاد الذين أهانوه اهانة

فوق احتمال البشر .. كل ما كان يهمه في تلك اللحظة أن يهرب بسرعة من أمامهم .. صعد إلى بيت مدرس البيانو .. انهـار فوق مقعد البيانو الصغير كأنه شيء وضع فوقه .. أحس أن عقله متوقف عن العمل ومشاعره مجمده.. واكتشف فجأة أن ذاكرته لا تعي شيئاً من دروس البيانو التي بذل جهداً شديداً في سبيل حفظها .. استأذن من الاستاذ في الإنصراف على أن يعود في موعد آخر بعد أن تهدأ مشاعره .

نزل من جديد إلى الشارع .. القى نظرة بعيدة إلى حيث يقف أفراد الشلة الأوغاد.. كانوا لا يزالون يتمايلون من الضحك.. لا شك أنهم يضحكون عليه.. تقمصته رغبة عارمة في ان يعبر الشارع اليهم ويشتبك معهم في معركة ضارية حتى لو خسر فيها حياته .. فكر في أن يعود اليهم بطريقة مختلفة تماماً ليكسبهم إلى صفه .. ليعقد معهم سلاماً رومانياً غريباً يصبح بعده تحت حمايتهم.. كل ما يريده منهم ان يدعوه وشأنه عندما يرونه ماراً من أمامهم.. أن ذلك بالتأكيد يتطلب منه ان يتنازل عن قدر كبير من كبريائه وكرامته لكنه على استعداد لدفع الثمن طالما انه سيحصل على السلام الذي يطلبه .

لكن هـل يمكن ان يتفهموا دوافعه الحقيقية .. اللغة التي يتكلم بها .. كيف يمكنه أن يدخـل إلى رؤوسهم الغبية الشريرة ان واجب الآخـاء والانسانية يتطلب منهم أن يرحموه.. ان يساعدوه على تحمل مأساته الفظيعة.. كيف يقول لهم انه ليس مسئولاً عن غرابته بقدر ما هو ضحية لها .. لو انه عاد اليهم وقال لهم هذا الكلام لما منحهم فرصة أفضل للسخرية منه وامتهان كرامته .

وجهه أصبـح مألوفاً لهم بعد فترة من الوقت .. لم يعـد يفجر بالونات الضحك الهائلة من أفواههم كلما رأوه ماراً من أمامهم .. لم يعقد معهم السلام الروماني الذي كان يأمـل فيه ولم تستمر المعركة محتدمـة بينه وبينهم فقط أصبحت بينه وبينهم علاقة من نوع غريب جداً .. تشبه علاقة بين قط وفار

بينهم لوح من الزجاج الشفاف .

الخوف يتزايد في قلبه وهو يسترجع هـذه الذكريات الأليمة مـع أفراد الشلة الواقفين هناك تحت عـامود النور البعيد يتمايلون من الضحك ويصنعون حولهم فرقعات أشبه بالقنابل .. يقترب بسرعة من حـائط المتفجرات الذي تصنعه هذه الشلة من الأوغاد .. ليس في نيته أن يتراجع الآن .

دخل دائرة أبصارهم الحادة البعيدة المدى .. العرق يتصبب بغزارة فوق جسمه الذي يشعر بمنتهى الإنهـاك والتوتر .. عيونهم ترسل أشعة مخدرة تصيب جهازه العصبي الإرادي بالشلل .. تعطل أجهزة الرادار والإطلاق في داخله.. دخل دائرة مدفعيتهم البعيدة المدى.. طلقة انفجرت في داخله.. مزقته الى أشلاء صغيرة مخضبة بالدم .. انظروا من القادم هناك .. إنه شيتا أليس كذلـك .. لكن من تلك التي تسير الى جواره .. انني لا أكاد أصدق عيني" .. طلقة أخرى تنفجر في داصله .. كان يسير الى جوارهم تماماً في تلك اللحظة .. صرخوا في وجـه الفتاة بصوت مرتفع مليء بالضحك حتى يؤذوه أكثر .. حتى يمتهنوا كرامته أكثر .. ألا تخشين منه يا آنسة .. انـه يمكن أن يعضك .. انه غوريللا .. غوريللا بالتأكيد .. فجأة انطلقوا جميعـاً يضحكون وهم يقلدون أصوات القرود وحركاتها الغريبة المضحكة.. أصابعهم التي تشير اليه تضعه داخل قفص من حديد لا يمكن الخروج منه .. تمالك أعصابه للنهاية من أجل الفتاة الجميلة التي تتشبث بأصابعه .. من أجل الأحلام الجميلة الدافئة التي تملأ قلبه.. الشجاعة ليست في أن يعود اليهم الآن ليتشاجر معهم بل في أن يتحمل ما لا يقوى الانسان العادي على تحمله .

تجاوز أفراد الشلة ببضعة أمتار .. تصور أنه خرج من حقل الألغام التي نصبوه له لكنه كان مخطئـاً في تصوره .. كان لا يزال سائراً داخل حقل الألغام طالما كان في إمكان عيونهم اللامعة من الضحك أن تبصره .

داس بقدمه أحد هذه الألغـام التي أطارت نصفه الأسفل .. حولته الى

نصف رجل .. انظروا اليه أنه يمضي كأنه لم يسمع شيء .. الجبان .. شيتا.. من الآن فصاعداً يحسن أن نسميه الآنسة شيتا .. يضحكون من جديد بأعلى صوتهم .. يقلدون أصوات القرود وحركاتها الغريبة المضحكة وهم يشيرون ناحيته واضعينه من جديد داخل قفص الحديد الذي لا يمكنه الخروج منه .. يتلذذون بتعذيبه وامتهان آدميته .

يتطلع إلى أفراد الشلة بذهول غريب تائس .. باستعطاف محزن .. رغبة عارمة في الانتقام منهم تغلي في داخله .. هذه أفظع الاهانات للتي تلقاها في حياته .. لقد حدثت أمام الفتاة التي يحبها .

وجد أنه من المستحيل عليه أن يخطو خطوة واحدة إلى الأمام .. لا بد أن يعود لشتبك مع الأوغاد الملاعين في معركة ضارية متحملاً كافـــة النتائج المترتبة على ذلك حتى لو فقد حياته نفسها .. اختفت من عينية نظرة التوسل المهينة .. حلت محلها الرغبة العارمة في الانتقام .. للمرة الاولى في حياتــه سينتقل من الدفاع إلى الهجوم .. الفتاة أحست بالخطر المحدق بهما .. حاولت أن تجره معها إلى الأمام لكنه أبى ذلك وعندما وجد منها اصراره على جره معها صرخ في وجهها تأمرها بالانصراف بعيداً لكنها ظلت واقفة في مكانها تنظر بيأس اليه وبغيظ شديد إلى أفراد الشلة المخنوقين بالضحك المستمتعين إلى أقصى حد بالمشهد الفكاهي النادر الذي يحدث أمامهم .

صرخت في وجوهم قائلة .. لماذا تفعلون بنا ذلك أيها الملاعين الأوغاد.. ما الذي فعلناه لكم حتى تعذبوننا على هذا النحو ثم انفجرت بالبكاء .. صرخ في وجهها بغضب شديد يأمرها بالصمت والانصراف عن المكان .. أنني لا اريدك هنا هل تفهمين .. لا احبك .. لا احبك .. لكنهـــا لم تتحرك من مكانها .. ما زالت تلح عليه في أن يمضي معها إلى الأمام .. انفجر الشبان في ضحك مجنون صاخب وهم يستمتعون بما يحدث أمامهم.. قطعوا الخيط الوحيد الذي لا يزال يشده إلى العقل .. صمم على قتالهم.. استدار ناحيتهم .. تحولوا

أمامه إلى كتلة واحدة هلامية تستفز مشاعره .. لم يكن يهمه من يضرب أولاً فهو مصمم على ضربهم جميعاً .. اختلطت تماماً ملامح الوجوه في تلك الكتلة اللحمية الواقفة أمامه .. ابتسامة خبيثة ترتسم على فك واحد منهم تحمل منتهى الازدراء والكراهية له .. أبصر نفسه صغيراً جداً فوق مقلتي ذلك الوجه الوقح الذي ينظر اليه بتحد صارخ .. تجمعت كل قوى الغضب في قبضة يده التي اندفعت بكل قوتها إلى الفك الوقح لتجعلـــه يرتج بشدة .. تتابعت الضربات لتدمي ذلك الوجه وتجعـله يسقط على الأرض وسط ذهول باقي أفراد الشلة الذين لم يتوقعوا هـذا الهجوم المباغت من الفأر الذي تعودوا امتهانه طويلاً دون أن يجرؤ على الرد .

بدوا عـاجزين للوهلة الاولى عن توجيه ضربة مضـادة لغريمهم ثم بدأوا يفيقون .. وانهالت قبضـات أيديهم على الوجه الواقف أمامهم لتدميه تماماً ولتجعله يتراجع بسرعة إلى الوراء وهو يكاد يسقط على الأرض .. تذكر انه يحمل نصلاً في جيبه احتفظ به دائماً ليدافع به عن نفسه ضد الأخطار المحتملة .. ها هو واحد من هـذه الأخطار المحتملة قد أصبـح حقيقة واقعة .. أخرج النصل الحاد بسرعة من جيبه في الوقت الذي كان يتراجع فيه إلى الوراء لتفادي مزيد من الضربات .

الشبان فوجئوا بوجود النصل في يده .. توقفوا عن التقدم ناحيته .. باغتهم بهجوم سريـع قبل أن يفيقوا من ذهولهم ويبدأوا هجومـاً جديداً عليه .. النصل في يده مغطى بالدم .. يتراجع مذهولاً إلى الوراء .. يحس بخوف عميق يجمد مشاعره .. أخيراً وقعت الكارثة التي كان يتوقعهـا دائماً في حياته أن يقتل انساناً آخر من الذين استفزوه بشدة وامتهنوا آدميته .

انتهزوا فرصة الذهول الذي إستولى عليه وباغتوه بهجوم جديد مفاجىء .. أطبقوا عليه بحركة كماشة مفاجئة لم تدع له فرصة للهرب .. بدأ يتراجع بسرعة إلى الوراء وهم يتعقبونه باصرار شديد .. النصل المشرع في يده المغطى بالدم

يخيفهم منه .. ظل يتراجع بظهره حتى وصل حائط أحد المبـاني .. استولى عليه خوف شديد .. اللحظة القادمة ربما حملت معها نهاية العالم .. عالمه هو .

فجأة وجد نفسه محاطـاً بعشرات الوجوه راحت تتفرس فيه باستغراب شديد .. كان من الواضح أنهم يتسلون بمرآه المضحك وحـالة الخوف العميقة المستولية عليه .. ناس لا يدري من أين أتوا .. عيونهم تلمع بكراهية عميقة .. الاتهام مؤكد في تلك العيون الغريبـة المتوحشة . كانت تكفي نظرة واحدة إلى شكله الغريب المضحك وإلى النصل الحاد المغطى بالدم في يده وإلى الفق الساقط على الأرض يتلوى من الألم داخل بركة من الدماء .. كانت تكفي هذه النظرة لتؤكد الاتهام في عيونهم غير أنهم لم يكتفوا بمجرد الاتهام .. حكموا عليه بالادانة .. ذلك الجمع من الذئاب الجائعة حكم عليه بالادانة ولن تكفية كل مرافعات العالم لينجوا من عقابهم .

الحلقة الغريبة من الغوغاء المتعطشين للدم تزداد أحكاماً من حوله مع مضي الوقت .. عدد العيون التي تتسلى بازدرائه والضحك عليه يزداد باستمرار . يخشى أن يبادروا بهجوم مضاد عليه لا يفلح النصـل الحاد في وقفة .. شيء واحد فقط يمكن أن ينقذه من مصيره المحتوم على أيدي الرعاع المحيطين به هو قدوم رجال البوليس بسرعة وحمله بعيداً عن هذا المكان .

تنبهت حواسه بشدة للصوت الذي ظل ينتظره بلهفة شديدة .. صوت سيارة البوليس الذي يعوي بوقعها المرتفع على البعد .. هذا الصوت يبعث في نفسه راحة شديدة .. لم يكن يحب هذا الصوت من قبل .. كان دائمـاً يثير انقباضه وفزعه .. إحساسه بالصوت يختلف تمامـاً هذه المرة .. هذا الصوت سينقذه من براثن الرعاع المحيطين به .

سيحمله الى حيث يشعر بالأمان .. أحس بابتهاج عميق لأنه سيخيب أمل هذه المجموعة من المتشردين الأوغاد الذين يناصبون العداء بلا سبب مفهوم .

سيارة الشرطة تخترق الحزام البشري المحيط به .. بوقهـا يدوي بشدة

ليفسح لها الناس الطريق .. يبعث في نفسه راحة مؤكدة .. إحساساً بقرب الخلاص .. وضعوه داخل سيارة الشرطة .. السيارة تشق طريقها من جديد في اتجـاه معاكس مخترقة نفس الحزام البشري مرة أخرى . وجهه يطل في راحـة وفزع من وراء زجاج السيارة المغلق على الناس المحيطين به .. الناس ينظرون اليه بعيون مليئـة بالكراهية والدهشة وتمني الشر لرجل غريب لم يروه من قبل .. عيونهم تحرقـه كأنه مصنوع من القش .. أصداء خافتة من شتائمهم البذيئة تصل اليه حيث يقبع خلف زجاج السيارة المغلق .

السيارة تفلح أخيراً في اختراق الحزام البشري المحيط بهـــا .. تبتعد بسرعة .. بدأ يتنبه للخطر المحدق به .. للحقيقة المخيفة التي تقول له أن هذه السيارة ليست انقاذاً له بقدر ما هي وسيلة لوضعه داخل قفص أكبر.. قفص لن يفلت منه على الاطلاق. وبدأ يستعرض شريط اللحظات التي مرت به منذ أن قابل صديقته حتى الآن وأحس أن ظلماً فادحاً قد وقع عليه منذ اللحظة الاولى لميلاده لأنه ولد مختلفاً عن الآخرين .. ولد قبيحاً .. أحس أن القبح عاهة فظيعة شوهت حياته تماماً .. حرمته من كل المتع التي يعيشهـــا الانسان العادي .. كان يمكن أن يكون الآن في طريقه إلى محطة المترو وهو يسير متأبطاً ذراع حبيبته في نشوة بالغة .. لا يشعر بالخوف من الناس الذين يبادلونه الاحترام والحب .. يبني آمالاً لا تنتهي للمستقبل .

الألم يعتصر قلبه .. لم يكن يحب أن ينتهي إلى هذه النهاية المفجعة .. لقد دفعوه إلى ارتكاب جريمة قتـــل .. الشيء الذي يدهش له هو كيف أنه لم يرتكب تلك الجريمة منذ زمن بعيد جداً .. كيف تأجلت إلى هذه اللحظـة المتأخرة جداً من حياته .

راح يتطلع من وراء زجاج السيارة في ذهول كآخر عمـل يقوم به قبل أن يغيب تماماً عن الأنظار .. بعض العيون التي تلاحظه ما تزال تتفرس فيه بشدة .. ترتسم ابتسامات ساخرة شريرة على شفاههم .. يسمع بعض اصداء

الشتائم المخجلة التي يوجهونها له .. يشتمهم في سره بأفظع مما يشتمونه به .. يحرك شفتيه ليؤكد لهم ذلك .. يقوم بحركات استفزازية مضحكة بيديه وتعبيرات وجهه ليغيظهم .. أنهم يكرهونه من أعماقهم وهو يبادلهم نفس مشاعر الكراهية . يتمنى لهم كل الشر الذي في العالم .. أحس الآن أكثر من أي وقت مضى أنه لم ينتمي اليهم قط .. وامتلأ فجأة بكراهية شديدة مصحوبة باحساس عظيم بالقهر .. وقابلته نظرة التحدي الواضحة في وجهه ونظرات عينيه اللتين امتلئتا بدموع صامتة لم تسقط أبداً .. ودوى بوق السيارة الغريب للمرة الأخيرة وأفاق من خواطره .. الصوت على خلاف المرة السابقة لم يبعث في نفسه أي احساس بالأمان أو الطأنينة على العكس من ذلك وضعه تماماً أمام مخاوفه العميقة القديمة .. ومضت السيارة تشق طريقها إلى المجهول في حياته .

٢ الأشياء الصغيرة

الشقة الصغيرة المكونة من غرفة واحدة تطل على منور العمارة الكبيرة التي أسكنها لها قدرة الثلاجة على الاحتفاظ بدرجة الصفر في داخلها معظم الوقت .. الشمس لا تدخلها إلا لحظات قليلة في الأصيل عندما يعتلي قرصها المتوهج سطح العمارة الكبيرة ثم يبدأ يطل من أعلى فتحة المنور على الأدوار السفلية حيث أعيش بالطابق الثاني من العمارة .

لكن ما ان تبدأ أشعة الشمس الدافئة تدخل إلى الشقة الصغيرة رافعة بصورة تدريجية من درجة الحرارة المحبوسة بداخلها حتى أحس بسعادة منقطعة النظير .. سعادة الأنهار عندما يذوب من فوقها السطح المتجمد .. الأرانب البرية وهي تنفض عن نفسها قطرات المطر المنهمرة فوقها .. الزهرات الصغيرة وهي تستقبل أول خيط من خيوط الشمس في الصباح المبكر .

تقبل الشمس في مواعيد منتظمة تماماً .. تملأ أعلى فتحة المنور كطاقة من من اللهب والنور .. انظر بتدله شديد إلى معبودتي الجميلة الحمراء الشعر الواقفة في الشرفة الصغيرة .. استعذب نفاذ أشعتها الدافئة إلى قلبي .. إلى داخل نخاع عظامي المتجمدة من البرد .. الثلج يذوب بصورة رائعة من فوق جسدي الشديد البرودة .. خلاياي تعود إلى الحياة والدفء من جديد .. صدري

يمتلىء بأنفاس الشمس الساخنـة العطرة .. أعيش لبضعة اللحظـات القادمة والشقة ما تزال تختزن دفىء الشمس في داخلهـا وحتى يختفي قرص الشمس تماماً وراء فتحة المنور فأعود للتجمد من جديد .. أتحول بسرعـة إلى جثة موضوعة داخل ثلاجة مشرحة .

كل أصيل تتكرر نفس القصة من جديد .. الثلج يذوب بصورة رائعة من فوق جسدي المتجمد من البرد .. أشعر بشيء من الانتعاش والدفىء.. الشمس تسحب خصلاتها الطويـلة الحمراء من فوق الفراش الدافىء ومن فوق بلاط الغرفة الصغيرة .. الثلج يعود من جديد فيتساقط داخل الغرفة التي تتحول بسرعة إلى اللون الأسود الداكن الذي يوحي بمنتهى الانقباض والتعاسة .

كأحد أشباح موتى فرانكشتين اختار أقرب تابوت إلى جواري وادخل فيه .. أظل فيه حتى صباح اليوم التالي.. مجرد جثة شمعية شاحبة على شفتيها ابتسامة توحي بالموت والانقباض الشديد .. نوع غريب من الذهول .. اليأس من الاستيقاظ من جديد ثم تأتي الشمس في موعدها في الأصيل ويذوب الثلج من فوق جثتي المتجمدة من البرد وأشعر بشيء من الانتعاش والدفىء ثم تعود الشمس فتسحب خصلاتها الحمراء من الشقـة الصغيرة وأشعر كأنني أتجمد من جديد وأسرع إلى أقرب تابوت إلى جواري وادخل فيه وتتكرر القصة يوماً بعد يوم .

امارس احساساً هائلاً بالسأم والضياع داخل الشقة الصغيرة فأنا لا أصنع الأحداث أو أعيشها انها فقط تعبر فوقي كما تعبر الرياح فوق سطح من الرمال الراكدة فتخلف فوقها بعض الآثار ثم تأتي رياح جديدة فتطمس معالم الرياح القديمة .

أشعر كأنني لا أنتمي للعالم الذي أعيش فيه .. للناس الذين يتحركون من حولي باحساس عامر بالحياة .. أشعر بأنني معلق في دائرة خـارج حدود

الزمن والمألوف .. دائماً يصاحبني ذلك الاحساس بأنني جثة متجمدة من البرد وأنا أعيش داخل جدران مبطنة بالصفيح وفي درجة حرارة الصفر الفظيعة .

آلهتي المفضلة الجالسة على حافة سور المبنى الضخم في أعلى فتحة المنور.. تتيه بجمال اخاذ يأسرني .. يحرك كل مشاعري .. خصلات شعرهـا الطويلة الحمراء ترقد إلى جواري على الفراش في عذوبة شديدة .. تملأ قلبي بدفء مثير يدغدغ حواسي .. تطلق طيوراً مغردة في داخلي .. حنين عميق يدفعني إلى الهروب لملاقاتها في الشارع .. ليس فقط لمداعبة خصلاتهـا الطويلة الحمراء كما أفعل وأنا داخل الشقة بل لأحتويها كلها بين ذراعي .. لأذوب فيها تماماً .. اريد أن أقف تحت خصلاتها الطويلة الحمراء وأخذ حمّاماً دافئـاً يذيب كل حبات البرد المتجمدة في دمي .

الذكريات تتراكم فوق قلبي كندف من الجليد الهش تتساقط من السماء .. ادفن تماماً تحت طبقات الثلج الكثيفة من فوقي .. أحس أنني ثعبـان يقضي شتاءاً طويلاً في جحره البعيد عن سطح الأرض في حالة سكون غريبة حتى يحتفظ بأكبر قدر من الدفء في داخله وسط ركام البرودة المحيطة به .. انه لا يأكل .. لا يتحرك .. لا يعمل .. لا يتشاجر .. لا يتكلم .. فقط يتنفس ببطء شديد ليظل على قيد الحيـاة ثم يأتي صيف جديد .. يأتي دائماً في الأصيل فيخرج الثعبان المتجمد الكسول من تحت الثلج لملاقاة الحياة والدفء من جديد .

ارتديت ملابسي بسرعـة للخروج من المنزل .. فتحت دولاب الملابس وأخذت بضع ورقات من النقد لمواجهة الطوارىء وأنا سائر في الشارع .. أنا دائماً أفعل ذلك لأنني أعيش وحيداً في هذا العالم ونقودي هي صديقي الوحيد الذي أثق فيه .

حبيبتي الدافئة تستلقي على ظهرها في سماء شديدة الصفـاء والزرقة .. شديدة العذوبة .. خصلات شعرهـا الطويلة الحمراء تداعب وجهي برقـة

متوحشة .. كرات البرة المتجمدة في دمي تسيح من جديد .. موجات الدم المتجددة الخلايا المشبعة برائحة ودفىء الشمس الساخنة تتحرك إلى أطرافي البعيدة حاملة لها حيوية الدفىء المثيرة .

ساقاي يدب فيهما نشاط مفاجىء غريب وهما تمتصان بشراهة زائدة كمية الأشعة الدافئة الساقطة فوقهما .. شوارع الضاحية الجميلة التي أتجول فيهـــا لتضييع الوقت تبدو هادئة فسيحة في ذلك الوقت من النهار .. على جانبيها أشجار ضخمة شديدة الخضرة .. الأسفلت يبدو شديد اللمعان كأنه مغسول لتوه .. الهواء منعش بصورة مذهلـــة رقيق مشبع بدفىء الشمس وعطر الزهور .. يداعب وجهي برقة بالغة .. يتلاعب بفروع الأشجار الضخمة والأوراق الخضراء اليانعة .

أحس أنني في أقصى درجات التحرر بالنسبة لامكانياتي النفسية المحدودة مشحون بطاقة دفىء أخشى أن تنضب مني بسرعة فأعود لأتجمد من جديد.

هناك لحظات قليلة تجعل عالمي مبهجاً يتوهج للحظة خاطفة ثم ينطفىء بسرعة كشهاب سقط في البحر.. العالم ليس دائماً للناس الذين يعيشون بداخله أنه أحياناً الشمس الدافئة المثيرة التي تلمع فوق سطح البحر الأزرق الممتد في استرخاء حالم حتى مرمى البصر .. المراكب الصغيرة ذات الأشرعة البيضاء الناصعة التي تصعد وتهبط مع الأمواج .. الهواء البارد النظيف القادم من قمم الجبال العالية والذي يمر في طريقه الطويل عبر مياه المحيطات الزرقاء الصافية وحقول القمح والزهور البرية .. سيقان النسوة الجميـــلة الناعمة .. حمامات السباحة الفاخرة .. ملاعب الجولف الخضراء المنبسطة .. وجبات الطعام الشهية .. حمامات البخار التركية القديمة .. أغلفة الكتب الجميـلة الملونة .. اسطوانات الموسيقى الحالمة .. كل لحظات التوهج والاستمتاع الحقيقي في عالمنا المخنوق بتعاسة مدمرة .

الثلج يتساقط بسرعة في داخـــلي .. أحس أن يداً شريرة قد أعادتني

بسرعة إلى داخل الشقة البـاردة رغم أنني ما زلت أسير في الشارع وتحت أشعة الشمس الدافئة .. حبات البرد تعود لتتجمع كبلورات الملح الصافيـة داخـل خلايا جسمي الذي يصل إلى درجـة التجمد فجأة .. نوع مروع من الصدمة يشل حواسي .. احاول أن أتراجع إلى الوراء هربـاً من الذكريات المخيفة التي تهاجمني كمجموعة من الذئاب الجائعة لكن شيئاً عميقـاً يشدني إلى البقاء في مكاني .

أحد الشوارع الرئيسية في الضاحية الجميـلة التي أسكن بها .. صفوف لا نهاية لها من السيارات والمشاة تملأ الشارع الفسيح .. السيارات تطلق دفعات من أبواقها المجنونة وهي تحاول أن تشق طريقها بصعوبة بالغـة وسط زحام المشاة المحيطين بها والذين يتدافعون بسرعة وهرولة في اتجاه الناحية الاخرى من الشارع حيث تربض بوابة السبـاق الضخمة في مهابة بالغة .. مترو يصفر في الوسط .. يتوقف في احدى المحطات أمام بوابة السباق الكبيرة .. امعاؤه تتدلى من رصيف المحطة .. يعاود السير من جديد بعد أن يسحب امعاؤه المتدلية .. يطلق صفاراته المدوية محاولاً شق طريقه بصعوبة بالغـــة وسط زحام المشاة المحيطين به .

أتطلع ببصري إلى الناحية الاخرى من الشارع .. الذهول ما يزال مستولياً على مشاعري .. خلية نحل كبيرة متجمعة أمام بوابة السباق الكبيرة .. نحل بشري غريب مقلوب على ظهره .. يطن طول الوقت .. لا يصنع عسلاً .. النحل يدور حول نفسي في تعاسة واضحـة .. في ارتباك حقيقي .. يبدون سعداء ومتوتري الأعصاب في نفس الوقت.. الوجوه تبدوا كوجوه حشرات مرهقة مكشرة عن أنيابها .. صراصير جائعة تبحث عن فرصة ما .

من خلال فتحة صغيرة من البوابة الضخمة يتدافعون إلى الداخل .. شيء في الداخل يجذبهم اليه.. لا يملكون التراجع إلى الوراء أو مقاومة قوة الجذب

الكبيرة التي تشدهم إلى الداخل .. يلوحون بأيديهم في عصبية .. يصرخون بشدة .. يبدون منهكي الأعصاب لكن سعداء مرحين .

حنين عميق يشدني إلى هذه الجماعة الغريبة من البشر .. هذه الخلية من النحل المقلوب على ظهره والذي يطن بلا فائدة .. جناحاي الصغيران يرتجفان بنشوة عارمة .. أطير لأحط فوقهم.. أجنحة عشرات النحل المتوتر الأعصاب المنهوك القوى تضرب وجهي بشدة .. تنفخ في أسلاكي الرفيعة التي بدأت تسخن وتحمر .. بمر وقت قصير أحس في نهايته بالاندماج في الوسط المحيط بي .

يداي تتشبثان بقضبان البوابة الضخمة كأنني أخشى لو أفلتها أن أندفع مع التيار المتدفق إلى الداخل .. أتطلع بحنين شديد إلى ساحة السباق الخضراء الفسيحة التي تظهر من بين قضبان البوابة مستلقية هناك في عذوبة رائعة .. في استرخاء حالم مثير يحطم أعصابي .. تشبه انثى تتجرد من ثيابها أمامي .. الحقيقة تتحول إلى حلم .. إلى دخان يطير مع الهواء .. النحل يختفي داخل شقوق عميقة في الأرض .. الطنين يصل إلي كاصداء خافتة صادرة من باطن الأرض .. الذكريات نحل يلدغني بقسوة في عقلي .. في ذلك الجزء الواعي الحساس الباقي من عقلي .

المكان الذي يثير كل هذه الأحلام والمخاوف في قلبي لم يتغير على الاطلاق منذ آخر مرة رأيته فيها .. ساحة السباق الخضراء الفسيحة كما هي .. المنصة الضخمة ممتلئة كالعادة بزحام كبير من البشر متوتروا الأعصاب .. كثيروا الصياح .. غاضبون تسيطر عليهم خيبة الأمل المعتادة وهم يمسكون باعداد مجلة الرياضة في أيديهم ويلوحون بها في الهواء في عصبية واضحة .. إلى اليمين توجد نوافذ محطة القطار الصغيرة ذات القضبان النحاسية اللامعة وأمامها تلك الطوابير التي لا تنتهي من طلاب المراهنة .. في الناحية اليسرى حيث توجد ساحة السباق الصغيرة تدور الخيل المزهوة بجمالها وقوتها الواضحة أمام

المتراهنين وقد أمسكتها أيدي السياس وذلك قبل أن تندفع تلك الخيول إلى ساحة السبق الكبيرة وحتى يتسنى للمراهنين أن يختاروا الجياد التي سيلعبون عليها .

الذكريات تشبه الدخان الذي يتجمع بسرعة وغزارة في داخلي .. يكاد يخنقني .

في ذلك اليوم لم أكن في حاجة إلى أن أضع يدي فوق جرس الباب وأنتظر كأي زائر غريب .. كنت أملك مفتاحاً خاصاً للشقة .. وضعت المفتاح في القفل وأدرته كالعادة لكن باب الشقة لم يفتح .. سيطر على شعور مفاجيء أن شيئاً لا بد قد حدث .. تحركت كل المخاوف الصغيرة في قلبي لتشكل احساساً هائلاً بالخطر .. تلك المخاوف التي بدأت تثور في قلبي في الأيام الأخيرة والتي كنت أتغابى عامداً عن دلالتها الخطيرة.. تأكد احساسي بحقيقة تلك المخاوف الصغيرة ووجه الخادم العابس يطل من شراعة الباب الصغيرة في تساؤل غريب وقح جعلني أتوجس شراً .

لم يفتر الوجه القبيح هذه المرة عن الابتسامة التقليدية اعتادت أن تضيئه كلما نفحتها بالنقود بسخاء كبير في كل مرة كنت آتي فيها لزيارة سيدتها .. سألتها عنها .. أنكرت وجودها بالبيت .. أصوات صادرة من داخل الشقة أقنعتني أن الخادم تكذب وأن المرأة بالداخل وانها هي التي أمرت الخادم بإنكار وجودها بالبيت .. سألت الخادم عن معنى تغيير قفل الباب بآخر جديد دون أن يخبرني أحد بذلك فلم أحصل على اجابة شافية .. كل ما قالته الخادم أن سيدتها أمرتها بذلك وانها لا تعرف السبب .

أصبح كل شيء واضحاً بصورة تدعو للشك .. المرأة تريد ابعادي عن طريقها وهذه هي وسيلتها الرخيصة لذلك .

أحسست امتهاناً شديداً لكرامتي .. بغضب يدمر مراكز العقل في داخلي .. دفعت الخادم في صدرها بقوة عندما حاولت أن تحول بيني وبين

اقتحام الشقة .. وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام المرأة التي راحت تحدجني بطريقة صارمة مخيفة وهي تسألني عمن سمح لي بدخول الشقة .. كانت تتكلم ببرود أذهلني.. في الضوء الخافت المنبعث من لمبات صغيرة في الصالة وبالصورة التي بدت عليها في تلك اللحظة إذ يبدو أنها قامت لتوها من النوم خيل إلي أنني أنظر إلى امرأة غريبة تماماً .. التجاعيد تملأ وجهها الشاحب الخالي من المساحيق .. وجهها العجوز المتغضن الذي يشبه وجه مشعوذة عريقة.. عيناها تحيط بها هالات سوداء عميقة تؤكد الذبول الذي بدأ يزحف بسرعة إلى وجهها .. شفاتاها خاليتان من الطلاء المثير الذي اعتدت أن أراه فوقها طول الوقت .. يعطيها جاذبية مروعة .. شعرها المشفف المتهدل في اهمال فوق رقبتها المعروقة يوحي أنها نامت به شهراً بأكمله ثم قامت دون أن تمشطه .. أصابعها الطويلة التي تعلوها تجاعيد رفيعة مغطاة بطبقة صفراء سميكة من نيكوتين السيجارة التي تمسكها بين أصابعها استطال رمادها حتى أوشك أن يسقط على الأرض .. تنظر إلي نظرات طويلة بلهاء لا تدل على شيء .

رحت أتفرس فيها مذهولاً وأنا لا أكاد اصدق الصورة التي أراها أمامي.. لست أتصور كيف خدعت بهذه الصورة المزيفة طول الوقت .. كيف اشتريت التراب بالثمن الباهظ الذي دفعته فيه .. اعزي نفسي قائلاً أن كل النساء يبدون دميات في الصباح عندما يقمن من النوم وأن بامكان هذه المرأة أن تعود جميلة في أي وقت تريد ذلك .

المشكلة ليست فقط أن المرأة دميمة وأنني اكتشفت حقيقتها الآن .. المشكلة الحقيقية أنني أحس بعمق أنني فقدتها إلى الأبد .

سألتها بهدوء يشوبه احتقار شديد وأنا احاول جاهداً أن أضغط على أعصابي .. هل يمكنك أن تفسري لي معنى هذه المعاملة المزرية .. ولماذا لم يخبرني أحد بتغيير قفل الباب ثم لماذا منعتني الخادم من الدخول عندما أردت ذلك .

مرت لحظة صمت قاتلة استجمعت المرأة خلالها كل قوى التحدي في داخلها.. وضعتها على شفتيها في صورة ابتسامة ساخرة .. ازدراء واضح يطــــل من عينيها .. أشارت إلى مقعد صغير قائلة اجلس هنا ودعنــا نتحدث في هدوء حتى لا نثير مشاجرة .. لحظة صمت اخرى تحفزت فيها لمواجهة الخطر الذي بدأ ينبعث مع كلمات المرأة .. علاقتنــا الحميمة تتفسخ الآن بصورة مروعة كأنها خيوط عنكبوت تتمزق .. بيت عتيق يتهــدم .. فكرت في الأمر وجدت أن من صالحنا نحن الاثنين أن ننفصل في هدوء .

صرخت في وجهها قائلاً وأنا لا أكاد اصدق ما اسمعه.. ننفصل في هدوء.. لا ريب أنك مجنونة.. قولي أنك لا تقصدين هذا الكلام.. تكلمي أرجوكي.. قالت بصلافة وحدة .. بل أعنيه .. نظراتها مخيفة مروعة .. مخارج الفاظها صارمة حادة .. ظلال سوداء تتحرك فوق عينيها وبشرتها السمراء الشاحبة لا تدع مجالاً للشك في صدقها .

قالت بعد فترة صمت مرت كدهر .. ألا تعتقد أن علاقتنا طالت اكثر مما ينبغي .. ألم تشعر بالملل .. قلت بغضب شديد وأنا أصرخ في وجههــا .. ألا يمكنك أن تدعى لي مسألة الملــل هذه .. أنا الذي اقرر متى أشعر بالملل لا أنت .

صرخت قائلة ولماذا لا أشعر أنا بالملل الست مخلوقة مثلك .. أف أنك لا تريد أن تفهم شيئاً على الاطلاق .

باستنكار شديد .. بملامح غباء مزيف وضعته فوق وجهي بذكاء شديد.. أفهم ماذا .. أرجوكي تكلمي .

نظرت إلي بتفرس شديد كأنها تختبر مدى الصدق في كلامي .. ببرود لم يخل من رنة سخرية وقحة .. أحقيقة أنت لا تفهم شيئاً .. إذن اسمح لي أن احيي ذكائك العظيم ..

أحسست بيأس قاتل من محاولة اعادة العلاقات القديمة إلى طبيعتهــا من

جديد مع المرأة الواقفة أمامي كتمثال من البرودة الشديدة .. الحقيقة تتوهج أمام عيني كشمس توشك أن تحرقها .. بعد أن انفقت آخر قرش أملكه على المرأة اللعينة لم تعد تريدني وتطلب مني الآن ببساطة شديدة أن أبتعد عن طريقها لكنها لن تحصل أبداً على ما تريد .

قلت لها بغضب شديد جعلني أرتجف بشدة .. لقد انفقت عليك ثروة طائلة وأنك لمخطئـــة تماماً إذا ظننت أنني سأسمح لك بأن تتركيني بهذه البساطة .. هزت كتفيها ساخرة وهي تقول في ازدراء واضح..لن يمكنك أن تفعل شيئاً .

الواقع المفاجىء الذي يشبه الصدمـــة يصيبني بدوار شديد .. بمنتهى الاحتقار لنفسي.. ماذا لو حدثت الآن معجزة تمسح كل مخاوفي وتعيد الطمأنينة إلى قلبي.. ماذا لو طوقت المرأة عنقي بذراعيها كما تعودت أن تفعل في اللحظات التي تريد أن تكسب فيهـا حبي أو أن أغفر لها خطأ ارتكبته في حقي .. تقبلني في شفقي قبلة طويلة محمومة معتذرة بأن كل ما قالته لي غير صحيح .. تضحك بدلال مثير وهي تقول : هل صدقت كل ما قلته لك الآن أيها الأبله الحبيب .. أنني فقط أردت أن اغيظك وأختبر مدى حبـك لي .. تضمنى طويلاً إلى صدرها بحيث أنسى في دفئهـا كل مخاوفي وأوهامي .. لن أتردد لحظة واحدة لو أنها فعلت ذلك في ان أغفر لها كل ما صنعته بي الآن وستعود العلاقة بيننا أقوى مما كانت عليه من قبل .

لكنني موقن أن المرأة عنت كل حرف قالته لي وان القطيعـــة بيننا أصبحت نهائية لكنني تمنيت رغم ذلك أن تفعل .. تمنيت فقط دون أن آمل أن تفعل ذلك حقيقة .

وصلنا إلى نقطة يتحتم على كل واحد منا أن يدير ظهره للآخر ويمضي في طريق مختلف .

المرأة واقفة أمامي كتمثال من الثلج الصلب الذي لا تفلح كل شموس العالم

في اذابته .. عيناها جافتان غائرتان داخل تجويفهما العميق لا يظهر فيهما أي أثر للحنان أو التعاطف أو الفهم .. ما تزال تنومني بتلك النظرة الطويلة المنبعثة من عينيها الزجاجيتين كعيني قطة جائعة .

استسلمت للأمر الواقع .. لم احاول أن افلسف الحقيقة المخيفة التي تطل على من وجه عبدته يوماً ما والذي أسفر الآن عن حقيقته المروعة لكنني أحسست في لحظة ما برغبة عارمة في أن احطم تمثال البرودة الواقف أمامي.. أن احيله إلى آلاف القطع الصغيرة المبعثرة على الأرض.. هدوء غريب يشملني فجأة.. افكر بمنطق الصفر البارد الذي يحول العواطف الساخنة إلى تجريدات عقلية باردة تخضع لقياس المنطق والتفكير الهادىء.. أنني أحمق بالتأكيد لو تصورت أن علاقتي بالمرأة كان يمكن أن تستمر إلى الأبد .. أنها مصممة كي تنتهي بأسرع ما يمكن وعلى نفس الصورة التي حدثت تماماً .. انها علاقة مصلحية بحتة ليس فيها أدنى أثر للحنان الذي تصورته ولا يمكن أن يكون فيها .. في لحظة ما كان ينبغي أن أتوقع أن تتحول المرأة إلى قنبلة نذالة مخيفة تنفجر في وجهي .. تحول لحمي الطيب إلى شظايا مخضبة بالدم.. متناثرة تحت قدمي .. أنني بالنسبة لتلك المرأة لست أكثر من رجل لم يعد في مقدوره أن يدفع الثمن .. لا يهم بالطبع أن هذا الرجل قد أنفق عليها كل أمواله من قبل .

لم أعد أكره المرأة أو أزدريها .. لم أعد أحبها أو التمس لها الأعذار .. المرأة لم يعد لها وجود بالنسبة لي .. خرجت من المنزل وأنا أحس بنوع غريب من الذهول .

خلية النحل انتقلت إلى داخل رأسي .. النحل الجائع الشرير يلدغني بقسوة في المناطق العارية الحساسة من عقلي .. يسبب لي احساساً هائلاً بالألم والمهانة .. الذكريات تطفوا فوق بحيرتي الراكدة كقطع من الفلين .. جثث حيوانات نافقة يمكن أن أنتشلها من الماء وأتعذب بها .

قابلت المرأة صدفة في مكان لم تطؤه قدماي من قبل .. يخيل إلي عندما افكر بعمق في هذا الموضوع أن قوة خفيـة مشاكسة دفعت بي عن عمد إلى هذا المكان لمقابلة تلك المرأة .. حقيقة لست مقتنعاً بهذا المنطق لكنني أحب أن أتصوره كحقيقة واقعة تخفف عن نفسي احساسها الثقيل بوطأة الذنب .. بأنني المخطىء أولاً وأخيراً في حق نفسي .

على أي الأحوال لست نادماً على علاقتي بالمرأة فقد استمتعت بكل دقيقة قضيتها معها حتى لو كنت قد دفعت ثمناً باهظاً لكل دقيقة من هذه الدقائق.. يخيل إلى أن القوة الخفية التي رتبت حياتي في هذا العالم وصنعت لي السم في قالب من السكر وتركتني أتحلبه على مهل وأموت في نفسي الوقت .

المرأة شهية ناعمة أشبه بتمثال من الرخام الدافىء الناصع البياض .. حية بكل ما تعنيه كلمة حية من معنى تشبع في داخلي احساسات المراهق القديمة التي لم تمت بعد .

زوجتي طيبة رقيقة .. اختارتها لي والدتي بنفسها على الطريقة القديمة .. مناسبة لي من وجوه كثيرة .. شيء واحد يعيبها في رأيي .. البرودة الشديدة التي تلوح بها أمامي وهي تتحرك داخل البيت معظم الوقت تقضيه في تصريف الامور المنزلية الرتيبة المثيرة للقرف.. اعداد وجبات الطعام الشهية التي تتفنن في صنعها .. وزنها يزيد باستمرار .. حركتها تقل .. رشاقتها تضيع .. بعد فترة كفت عن أن تضع فوق وجهها أية مساحيق إذ ما الذي يدعوهـــا إلى ذلك.. لقد اصطادت زوجاً .. تدريجياً وبغباء مثير بدأت تفقد السبب الوحيد الذي جعلني أرضى بها زوجة لي . جسمها الجميل الرشيق الذي يشبه قالباً من الزبد الحي .. بدأت تفكر في انجاب الأطفال .. أكبر عدد من الأطفال حتى تمنعني من الفرار والتطلع إلى امرأة غيرها .. رزقنا بابننا الأول ثم الثاني ثم الثالث وما تزال تفكر في انجاب فريق من الأطفال .. لا تحب مغـادرة البيت إلا لزيارة والدتها بالطبع.. معظم وقتها داخل البيت تقضيه في استرخاء

حالم فوق حشية من القطن كأنهـا قطة كسولة تستدفيء بأشعة الشمس .. لا تفعل شيئاً سوى أن تلحس جسمها بلسانها وتتثائب في كسل .

ابتسامة بلهاء طيبة ترتسم بصفة دائمة على شفتيها.. لا تغضب.. لا تثور.. لا تحاسب .. لا تغير .. لا تصنع قنابل زمنية تحت قدمي وتفجرها كما تفعل باقي الزوجات في العالم .. نركب أنا وهي فوق عقرب ساعـة بطيء يتحرك إلى الخلف .

كل يوم يزداد اقتناعي بأنني اخترت المرأة الخطأ .. تنتابني رغبـة عارمة في التمرد على روتين حياتي الصارم والفرار من المنزل دون أمل في الرجوع .. أحس أنني منبوذ داخـل البيت كأنني أحد فقراء الهنود .. لا مكان لي مع امرأة تمنح كل اهتمامها لبيتها ولأطفالها الصغار وطعامها وامها .

العمل مع والدي في المحـــل الكبير الذي يملكه بوسط البلد يشبه رحى ضخمة تدور فوق أعصابي المنهكة وتسحقها تماماً .. العمل يستمر من الصباح حتى المساء مع فترة راحة بعد الظهر كنا نقضيها عادة في المحل تجنباً المشوار الطويل إلى المنزل ثم العودة إلى المحل من جديد .

في يوم الراحة الاسبوعية كنا نبتاع بضائع جديدة للمحـــل أو نراجع الحسابات القديـمة أو نقوم بجرد البضائع الموجودة بالمخزن .. العمل وحش يفترس حيويتي وشبابي .. وقتي الذي ينبغي أن أقضيه في المتعة واللهو كأي شاب آخر .

صممت على إيجاد وسيلة ما لكسر روتين حياتي الصارم .. إلى جوارنـا توجد قهوة يؤمها عدد كبير من الشباب في مثـل سني .. اتجهت اليها بكل الحرمان الموجود في قلبي .. أثارني العالم الغريب الذي اقتحمته بعنف وشوق منذ اليوم الأول .. الأصحاب الذين عرفتهم في المقهى نسخ بالكربون مني .. يحسون بنفس الملل الذي أحسه في حياتي الزوجية .. مشاكل الأطفـــال والزوجـات وروتين الحيـاة الرتيب يقلص فكرة الجنس في نظرهم إلى شيء

يبلمونه بصعوبة بالغة .. السم مغلف بطبقـة رقيقة من الحلوى .. قرص إلى قرصين مرة في الاسبوع وأحياناً في الشهر .. كنا نتحدث بشوق غريب عن نوع معين من النساء يملـك علينا مشاعرنا .. ليس النساء من طراز زوجاتنـا لكن من ذلك النوع النادر الذي يوجد فقط فوق أغلفة المجلات الملونة أو في الشوارع أو في بيوت الآخرين .

كنا نمسك كرة مشتعلة من القش بين أيدينا نتبادل قذفهـا فيما بيننا .. تمنحنا الاحساس الواحد بالمشاركة في الخطر .. كان لدى كل واحد منا دائمـاً قصة يحكيها للآخرين عندمـا يجتمع بهم في المساء .. كان هذا يمنحنا احساساً بتجرد حياتنا الرتيبة المملة .. بأننا أفراد جماعة غريبة تعيش داخـل عالم واحد مشترك .

في يوم من أيام الصيف الحارة أحسست رغبة عارمة في ممارسة الحب مع زوجتي.. كانت مستلقية فوق الفراش ترتدي قميصاً شفافاً يجعلها شبه عارية.. لونها بلون الثلج الصافي الذي يشع بالدفىء والضوء من داخله .. فوق بشرتها الناصعة نقاط خفيفة من العرق أشبه بالبلور .. اقتربت منها في جوع واضح.. ضممتها إلى صدري .. زامت كأنها قطة لا تريد لأحد أن يقترب منهـا .. تصنعت النوم وأخفت رأسها تحت المخدة لتجبرني على التراجع .. أزحت المخدة بعنف .. قبلتها في شعرها بجنون وحنان .. مضيت أتحسس جسدها في لهفة .. أعادت المخدة فوق رأسها من جديد .. أزاحت صدري بيدهـا .. تحولت إلى تمثال من الثلج والبرودة المروعة .. انتابني يأس حقيقي من إيقاظ الأشياء النائمة في داخلها .. دفعتها بغضب في ظهرها وأسرعت بارتداء ملابسي ومغادرة المنزل .

قادتني خطواتي بحكم العادة إلى المقهى .. جلست إلى طـاولة صغيرة فوق الطوار .. طلبت سائلاً مرطباً .. رحت أرتشف من السائل البارد باحساس غامر بالتعاسة .. فكرت أن أعود إلى البيت لأضرب زوجتي علقة ساخنة..

ان اطلقها .. أن أفعل شيئاً يثير غضبها .. يحطمها كما حطمت حياتي .

جاء واحد من أفراد الشلة .. أهلاً .. ماذا تفعـل هنا في هذا الوقت من النهار .. انهـــا ليست عادتك .. دعني اخمن .. لقد تشاجرت مع زوجتك أليس كذلك ؟ نعم .. اللعينة .. حسن قم بنا إذن لنغادر هذا المكان .. سأجعلك تنسى كل شيء .

– لكن أين ستأخذني ؟

– لا تسأل قم معي فقط .

ومضيت معه وأنا أحلم بمغامرة مثيرة أتوق لها من أعماقي .

وجدت نفسي أخيراً في حلبة السباق بمصر الجديدة .. مكان غريب أطأه بقدمي لأول مرة في حيــاتي .. أحســست أنني على أعقاب مغــامرة ستقلب حياتي رأساً على عقب وتهيأت بكل ما في أعماقي من حرمان ورغبة في مقابلة المجهول لالقاء نفسي في أحضان تلك المغامرة المثيرة .

وأنا جالس مع المرأة في أحد الكازينوهات المطلة على النيـل .. أخذت استمع اليها وهي تتحدث عن نفسها . تمنيت ألا تتوقف أبداً عن الحديث . كنت آكلها بأعصابي المشدودة إلى مفاتنها الصارخة .. أتخيــــل اللحظة التي سأحتوي فيها جسدها الرائع المثير بين ذراعي.. قالت كلاماً كثيراً عن زواجها برجل عجوز ثري أرغمها أهلها على الزواج منه .. مرحلة ترمل مفاجئة كانت بمثابة نوع شديد من الصدمة .. مرحلة اخرى تملأ بها فراغ حياتها بالتردد على النوادي وسباقات الخيل وحفلات الكوكتيل والسفر في رحلات بعيدة خارج البلاد كنت أنظر بتدله شديد اليها كأنني طفـــل وضع يده لأول مرة على لعبة مثيرة .

أنفقت عليها ببلاهة منقطعة النظير وكانت هي تشعرني أن انفــاقي عليها يقربني أكثر من حجرة نومها .

أحست زوجتي بوجود شيء كريه الرائحة في حياتنا الزوجية .. فضلت عدم اثارة الموضوع معي حتى تتيح لي فرصة الرجوع إلى العقـــل وبالتالي اليها من جديد .

يوماً ما ويبدو أن ذلك حدث بعد أن يئست تماماً من رجوعي اليها قالت وأنا أهم بالخروج من البيت وبعد أن لاحظت أنني قضيت وقتاً أطول من اللازم أمـام المرآة .. ماذا تظنني أيها الأحمق بلهاء إلى هذه الدرجة بحيث لا أدري ماذا تفعل من وراء ظهري .

سألتها بدهشة مصطنعة : ماذا تعنين بذلك

أعلم أنك ذاهب لمقابـلة امرأة اخرى وأنك ظللت تقابلهـا منذ فترة من الوقت .. أطمئن لن أقف في سبيلـك بعد الآن إذا كان هذا ما تريد بشرط أن تطلقني فوراً وسآخذ الأولاد معي إلى بيت والدي .

شعرت بارتياح شديد لما قالته لي .. أخيراً حققت لي هذه البلهـاء كل ما كنت أحلم به وفي مفاجأة غير متوقعة .. الآن سيصبح الطريق مفتوحاً أمامي لأنطلق فيه بأقصى سرعة .. وجهي يتألق بشدة وأنا أتذكر تلك الأيام الرائعة القديمة وإن كان يكتسب بين الحين والآخر مسحة أسى بالغة .

مات والدي وورثت عنه المحل الكبير .. امتدت يدي إلى رفوف البضائع التي بدأت في التناقص مع الوقت حتى نضبت تماماً .. كنت أنفق على المرأة بلا حساب أو شعور بالمسئولية ثم سرعان ما جاءت النهاية المفجعة التي لم أتوقعها لتطردني المرأة من حياتها تماماً .

تنكر لي الجميع بعد أن فقدت كل شيء .. انزويت عن العـالم في شقة صغيرة متواضعة في عمارة بها عديد من الشقق .. لا أحد يعرف عني شيئـاً وأنا لا أعرف شيئـــاً عن أحد .. لا أزور ولا أزار .. أجتر مرارة الماضي وحدي وأحياناً استعذبها .. ألعق جراحي الدامية المفتوحة كأنني قط خرج

لتوه من معركة ضارية مع العالم .. الأيام تمر على وتيرة واحدة كأنها يوم واحد يكرر نفسه .. أعمل في المحل الذي كنت أملكه ذات يوم أجيراً لدى صاحبه الجديد الذي ترفق بي فعينني عنده اكرامـاً لذكرى الأيام الخالية .. مواعيد دقيقة يحاسبني عليها الرجل الكريه بالثانية .. يضع على شفتيه ابتسامة تفتح جراحي القديمة في كل مرة يراني فيها أمامه .. لا أدري لم لا يجد هذا الرجل الكريه امرأة ينفق نقوده عليها كما فعلت أنا .. لم لا يذهب إلى الجحيم .

أتطلع بعذاب شديد إلى ساحة السباق الخضراء البعيدة .. عيناي ممتلئتان بدموع صامتة كالثلج .. يداي لا تزالان متشبثتين بقضيبي البوابة الضخمة .. أتساءل للمرة الألف عن ماهية القدر الغريب الذي انتهى بي إلى هـذا المصير المخيف .

اؤمن حقيقة بالقدر لكنه بالتأكيد ليس هو نفس القدر الذي يؤمن به كل الناس من حولي .. قدر تلك الآلهة الشريرة المتعجرفة التي تكتب مصائرنا في مكان بعيد عن الأرض ثم تفرض علينا عندما نهبط اليها أن نسير تلك السطور المعلقة فوق ظهورنا لنصل إلى النهايات المفجعة التي تكتبها هذه الآلهة بنفسها.

أضحك لهذا التفسير المتعسف للقدر .. اؤمن بمجموعـة القوى والضغوط التي تحاصرنا في هذا العالم كاشارات المرور وتحدد لنا مصيرنا.. من واقع تجربتي في الحياة القدر حتى بمفهومي الخاص ليس عشوائياً على الاطـلاق أعني أن الصدفة فيه لا تولد في فراغ تسبقهـا دائماً مجموعة من الانذارات الأوليـة التي تنبىء بقرب وقوعها .. الأغبياء وحدهم هم الذين لا تهتز حواسهم لسماع تلك الانذارات الأولية .

كان منطقياً تماماً وأنا اعاني من الفراغ العاطفي الشديد في البيت أن احاول البحث عن المتعة في الخـارج .. أن أسير بالتداعي المطلق للأحداث في نفس الطريق الذي انتهى بي إلى النهاية المفجعة التي وصلت اليها .

أحياناً أحس أنني نمـلة صغيرة تسير فوق خط من السكر مرسوم فوق

حائط ما .. تسير بغريزتها المجردة وأنها إذا عادت إلى بداية الخط من جديد لسارته بنفس الكيفية السابقة .. القدر هنا يبدو واضحاً تماماً وهو بالتأكيد ليس وارداً من الخارج .. يمكننا أن نستبدل كلمة القدر بالضرورة بالصدفة ولا يتغير المعنى كثيراً .

أحياناً أتخيل القدر انهياراً في جبـل .. في البداية يسقط حجر صغير على الأرض إلى جوار قدم إنسان أو فوق رأسه .. يحدث اصابة طفيفة وبدلاً من أن يبتعد هذا الإنسان الأحمق عن موضع الخطر يظل واقفاً في مكانه وتسقط أحجار اخرى كثيرة وتكون الاصابة أشد لكنـه يظل واقفاً في مكانه حتى يجد نفسه في النهاية مطموراً تحت تلك الأحجار .

أحس بثقل يضغط صدري بشدة .. أرغب في مغادرة المكان الذي يثير كل هذه الذكريات الأليمة في قلبي . أستدير عـائداً إلى الوراء بصري يتجمد فجأة على منظر يعيد كل الذكريات الأليمة إلى قلبي من جديد .. المرأة الواقفة هناك إلى جوار شباك التذاكر تشبه المرأة التي أحكي عنها في قصتي .. نسخة بالكربون منها .. حقيقة غريبة اكتشفتها من واقع تجربتي أن كل النساء من هذا النوع يتشابهن .. الشاب الواقف إلى جوار المرأة يلتهمها بعينيه يشبهني أيضـاً إلى حد بعيد .. الفصل الأول من المسرحيـة التقليدية يبدأ الآن في العرض لا أحد يدري للمرة الكم .

التفتت المرأة ناحية الشاب الوسيم وابتسمت له .. اندفع ناحيتها بلا وعي كأنه منوم مغناطيسياً .. صافحها وهو لا يزال يلتهمها بعينيه في جوع واضح .. شفتاه تتحركان بكلام يطير مع الهواء .. ملامح وجه المرأة تضحك وتتهلل .. سارا متجاورين باتجاه حلبة السباق .. ضاعا في الزحام .. انتهى آخر أمل في وقف المسرحية المهزلة قبل أن تبدأ .. أحس كأن طناً من الحديد سقط فوق قلبي الرخامي البارد الذي يشبه شاهد قبر .. قلبي امتلأ بعشرات الشروخ والشظايا الصغيرة .. أول حجر سقط من أعلى الجبل إلى جواري .. انذار

بكارثة مخيفة توشك ان تقع .. توالى سقوط الاحجار .. ملئت الارض من حولي .. جثة الشاب مدفونة تحتها .. أردت ان اصرخ لأمنع وقوع الكارثة قبل أن تبدأ .. الصراخ احتبس في حلقي .. عيناي امتلئتا ببلورات الثلج الصافية من جديد. اذا أردت الدخول الآن الى ساحة السباق تعين على ابتياع تذكرة تلتهم كل ما معي نقود انا بحاجة شديدة اليها لمواجهة نفقات المعيشة ثم ماذا سأقول للشاب عندما أقف أمامه في النهاية .. بالتأكيد سيحسبني مجنوناً او في احسن الحالات متطفلا .. ربما كنت حقيقة أتدخل فيما لا يعنيني .. ربما ضربني الشاب او سبني سباباً فاحشاً لا أملك القدرة على الرد عليه .. من أنا لأمنع الكوارث قبل وقوعها او اتنبأ بها .. في العالم اربعة آلاف مليون كارثة .

وقعت بالفعل وانا أريد ببلاهة منقطعة النظير ان أمنع كارثة جديدة توشك ان تقع الآن .

داخلي يمتلىء بطوفان من الضحك المختلط باحساس غامر بالتعاسة .. أفلت قضبان البوابة من يدي .. أستدير عائداً الى الشقة الصغيرة بعد ان نبذت القيام بدور الاله .. الشقة تحولت الى ثلاجة مشرحة من فرط البرودة التي اختزنتها بداخلها .. فتحت احد الادراج الطويلة وتواريت فيه .. طبقة خفيفة من الثلج بدأت تتراكم فوق جسمي الشاحب المصنوع من الشمع. الكل في داخلي على وشك ان يتجمد .. الذكريات والدم والاعصاب .. في الأصيل سأعود للدفىء من جديد .. سأعيش لأكرر مأساة كل يوم .

٣ الانتقال

توقفت السيارات في الشارع الترابي في مدينة الموتى ووراءها زوبعة ضخمة من الغبار .. الرجال الذين هبطوا من سيارة نقل الموتى الواقفة في مقدمة باقي السيارات قاموا باخراج نعش الميت من داخلها .. وضعوه فوق أكتافهم القوية تمهيداً لنقله إلى المدفن الكائن في نهاية الحارة الصغيرة المتفرعة من الشارع الذي توقفت فيه السيارة .

تحول الرجال إلى جمع صغير على وشك التحرك إلى داخل الحارة الصغيرة عندما لحق بهم رجل جاء على عجـــل وهو يلهث بشدة .. أخذ يسلم عليهم واحداً بعد الآخر وهو يضع فوق وجهه ذلك القناع السميك من التجهم المفتعل يصنعه دائماً فوق وجهه .. كان يتمتم بنفس عبارات العزاء القديمة التي اهترئت من كثرة الاستعمال والتي لم يمل من ترديدهـــا على مسامع الرجال في كل مرة يخرجون فيها لتوديع كل راحل جديد.. دائماً يمثل نفس الدور بنفس الكلمات ونفس مكياج الوجه.. الرجال لا يخدعهم البتة القناع الذي يضعه هذا الرجل فوق وجهه .. العبارات المأساوية المثيرة للغثيان التي يتفوه بها .. يعملون أنها عبارات لازمة لاداء مهمته وانه يقولهـا بلا احساس حقيقي أو شعور بالمأساة بل انهم يشكون في أن هذا الرجل ربما كان سعيـداً لقدومهم اليه فقدومهم

يعني العمل في نهاية الأمر بالنسبة له .. يعني مزيداً من فرص الكسب والحياة بالنسبة له وللآخرين ممن يعيشون داخل مدينة الموتى ويتكسبون من الموت .

ان مأساتهم لا تعنيه إلا كا يعني عمل معين يسند إلى شخص ما وضرورة اداء هذا العمل بصورة مرضية .. هذا الرجـل هو اللحاد وحارس المقبرة .. الرجل الذي يحمل موتى بيديه وينزل بهم ليغيبهم في أعماق القبر .

أثارت رؤية الرجل الضخم الجثة المتجهم الملامح كتمثال من الطين لا يبدو عليه أي انفعال خارجي انقباضاً لدى معظم الرجال السائرين في الجمع .. لا أحد يحب رائحة الموت المنبعثة من طيات ملابسه .. من افراز مسامه للعرق .. النظرة الباهتة الخالية من البريق المنبعثة من عينيه اللتين تشبهـان بركتين من مياه ضحلة راكدة .. الابتسامة الخافتة المقززة المرسومة على شفتيه كأنه ولد بها والتي تبدو واضحة تماماً وسط علامات التجهم المفتعل التي يضعهـا فوق وجهه .. هذه الابتسامة المتحدية الوقحة التي تذكرهم بالنهاية المفجعـة التي تنتظرهم والتي لا يمكن الهروب منها وهي أنهم أشخاص زائلون في هذا العالم وأن نفس هذا الرجل الغريب هو الذي سيحملهم بيديه الغليظتين كا لو كانوا اجولة من البطـاطس أو الدقيق وينزل بهم إلى أعمـاق القبر حيث يواريهم التراب إلى الأبد .

في أحضان الرطوبة والحرارة الشديدة التي تصبها الشمس فوقهم بلا توقف سيتلاشون تماماً من الوجود .. سيتعفنون .. سيمتلئون بغازات مقززة كريهة الرائحة .. ستزحف فوق جثثهم وفي داخلها جيوش من النمـل والحشرات الصغيرة صانعة معهم وجبة طعام شهية انتظروها بفارغ الصبر .. ستضيع كل صرخاتهم واستغاثاتهم في سمك طبقة التراب التي تعلوهم .

هذا المصير المخيف تبشرهم به هذه الابتسامة الشاحبة الغريبة التي ترتسم على شفتي الرجل الذي يتظاهر امامهم بحزن مفضوح تمامـاً لديهم واحد من السائرين خلف نعش الميت أحس بالمأساة التي تواجه الرجـال أكثر من الباقين

ربما لأنه ارهف منهم حساً وأكثرهم ثقافة ولأنه لم يفتأ يفكر في الموت خلال الطريق الطويل الى مدينة الموتى بل قبـــل ذلك بزمن طويل وفي مناسبات عديدة متفرقة .. أحس وهو سائر خلف نعش الميت انـه اقترب من الموت الى حد الملامسة .. الى حد شم الرائحة .. وهذا الرجل الذي غاص بعينيه الرهيبتين داخل اعماقه .. تعريه تماماً .. احس انه لم يفلت من براثن الرجل كالمرات السابقة التي كان محظوظاً فيهـا فحسب .. هذه المرة ستكون مختلفة تماماً .. أحس بشعور غريب انه هو الميت وان هـذا الجمع من الرجـال جاء ليواريه التراب .. المكان يثير اشمئزازه الكامل منذ اللحظة الأولى التي وضع فيها قدمه داخـــل مدينة الموتى .. يكن كراهية عميقة للرجل الذي يرمز الموت بفظاعة غريبة .. تمنى أن ينتهوا بسرعة من المهمـــة التي جاؤوا من أجلها ليتسنى له مغادرة هذا المكان اللعين في اقرب وقت ممكن .

بدأ الرجال في الدخول الى الحارة الصغيرة .. أقدامهم تغوص في بحر من الرمل الأبيض الناعم الذي يشبه الدقيق والذي تعلوه طبقة من الحصى المدبب الرفيع تزيد من صعوبة السير فوقه .. الشمس تلهب رؤوس الرجال السائرين في الحارة الصغيرة .. تفجر انهـاراً من العرق والملح فوق اجسامهم المكدودة الساخنة .. رائحة النفايات الآدمية المبعثرة في كل مكان داخل الحارة الصغيرة تتسلل الى أنوفهم محملة فوق موجات من الهواء الساخن لتثير ضيقهم وعصبيتهم البالغة .. ويتبع الجمع من الرجـال جمع آخر من صبية يمارسون التسول بالحاح غريب مقزز وهم يمدون أيديهم أمام وجوه الرجـــال المتقدمين ناحيتهم .. الرجال يبعدون الصبية بلطف أول الأمر فيتوقفون قليلاً عن متابعة الجمع .. يتقدمون من جديد بالحاح أكثر .. الرجال يبعدونهم للمرة الثـانية بشيء من العنف .. يتقدمون من جديد .. يبتعدون .. في النهـاية يتوقف الصبية عن متابعة الجمع بعد أن يأسوا من الحصول على ما يريدونه من الرجال وهم يرسلون عليهم سيلاً من السباب الفاحش .. الرجال لم يكن في مقدورهم عمل شيء

على الاطلاق سوى مجرد كبح جماح مشاعرهم الغاضبة .. حركات بذيئة من أيدي الصبية للرجال الذين يتقدمون على البعد وهم يضحكون بشدة ويهللون من ورائهم .. الموقف يتطلب من الرجـــال ان يكونوا وقورين متمالكين لأعصابهم حتى لو كانت اعماقهم تغلي من الغضب ويحس الرجـــال المجهدون الذين عذبتهم مضايقـــات الحارة الصغيرة انهم سائرون في مهمـة لاستلاب أرواحهم .. استلاب البقية الباقية من كرامتهم واحساسهم بالرجولة ويرتفع هذا الاحساس الى الذروة لدى المشيع الذي يحس بالمأساة أكثر من الآخرين.

خلال الطريق الطويل الى مدينة الموتى وبينما هو جالس خلف عجـــلة القيادة في سيارته التي تصنع مع غيرها صفاً طويلاً من السيارات يتبع سيارة نقل الموتى الكبيرة عن كثب حتى لا تضل طريقها الى المقابر..طوال الطريق كأن شيء واحد يشغل تفكيره .. الموت .. ليس الموت على وجه الدقة بل ما يصاحب الموت من شكليات وطقوس غريبة تحـــوله الى نوع من السحر الأسود.. تسلبه قداسته الطبيعية كان يعرف نوع الشكليات التي تبتذل الموت في تلك المدينة الملعونة النائمة في حضن الجبل الضخم الذي يشبه كومة كبيرة من تراب الفرن الرمادي والذي يرسل على المدينة بين الحين والآخر بعضاً من ذلك التراب الاسود ليدفن كل شيء تحته ويحوله الى نفس لونـــه الرمادي المتفحم .. وحيث تنتشر النفايات الآدمية في الشوارع الترابية التي تخترق مدينة الموتى وأكوام القمامة تعلوها أسراب الذباب والصبية الصغار وحيث لا توجد شجرة واحدة خضراء في كل مدينة الموتى ولحماية الرجال السائرين في شوارعها الترابية من الشمس الحارة المتأججة فوق رؤوسهم .

سبق له ان زار مدينة الموتى في مرات عديـــدة سابقة لتوديع راحلين مختلفين وفي كل مرة كان يتأكد لديه الاحساس العميق بابتذال الموت في هذا المكان اللعين .. بتحويله الى شيء رخيص جداً أشبه بنفـــاية حقيرة يتمنى الناس الذين يحملونها بين أيديهم أن يتخلصوا منهـــا في أقرب مكان يصلوا

اليه .. أن يبصقوا عليها بعد ان يفعلوا ذلك وان كانوا يتظاهرون بمشاعر مختلفة تماماً .

لم يكن الذي يعذبه هو الموت نفسه فالموت هو قدر كل كائن حي على ظهر الارض بل الابتـــذال الشديد للموت والذي يحوله الى شيء مروع ومخيف .. الذي يعذبه هو الطريقة التي يموت بها الناس هنا .. المكان الذي يوارون فيه التراب الى الأبد .. التعايش الغريب المخجل في مكان واحد بين الأحيــاء والأموات بطريقة لا تتكرر في أي مكان آخر في العالم .. اعتبار الموت من جانب كثيرين من سكان مدينة الموتى مجرد وسيلة تكسب رخيصة.

الموت رغم التظاهر بقداسته في هذه البـــلاد الغريبة المتربة هو نوع من توقف الآلة الانسانية عن العمل يجردها من فائدتها المحققة للمجموع وكما يفعلون دائماً مع الآتهم المعطلة فانهم يلقون بموتاهم داخل مقـــبرة الآلات القديمة المستهلكة وليس هاماً في شيء كيف يلقون بها المهم هو مجرد القاءها فحسب.

عندما يصبح الموت مجرد ابعاد شيء غير مرغوب فيه فانه يكتسب بعداً جديداً هو المهانة .

أخذ يستعرض بطريقة لاشعورية وفي لقطات خاطفة تضيء امام عينيه الموت في أماكن مختلفة من العالم .. يعقد مقارنات غريبة بينه وبين الموت في هذا المكان .. الزمن والمسافة يفرقان بين الانواع المختلفة للموت .. الحرب والسلم .. الصحة والمرض .. الوباء .. الشمال والجنوب .. البارد والساخن.. الأسود والأبيض .. ولم يكن من الصعوبة بمكان ان يصل الى اقتناع حقيقي مروع هو ان أسوأ أنواع الموت على الاطلاق يوجد في هذا المكان اللعين من العالم .

أخذ يفكر في الموت في الدول التي تحترم انسانية الموت كما تحترم انسانية الحياة .. المكان الذي يرقد فيه الموتى هناك .. الأرض المنبسطة الخضراء حتى

مرمى الافق وقد انتشرت من فوقها صلبان المقابر البيضاء الصغيرة التي تشبه الزنابق .. شواهد القبور المصنوعة من الرخام الأبيض الناصع المكتوب فوقه اسم المتوفي وتاريخ وفاته وميلاده . رجل أو امرأة .. أمـام المقابر رجال خاضعوا الرؤوس يمسكون قبعاتهم في أيديهم .. بعضهم يحمـل باقات من الزهور يضعها بخشوع شديد وحب أمام شاهد قبر الانسان الذي جـاء من أجله .. الموتى أنفسهم مدفونون داخل توابيت من الخشب الفـاخر تنزل بهم إلى أعماق القبر لتحفظهم من التحلل السريـع .. تحفظ انسانيتهم وكرامتهم حتى بعد أن لفظوا الحياة وتحولوا إلى آلات قديـمة معطلة تحفظ أكثر آدمية الأحياء للذين لا يبخلون بالآدمية على أحيائهم السابقين .

القس الوقور يمسك بيده نسخـة من الكتاب المقدس .. يقرأ آيات تنزل سكينة عظيمة على الأحياء الواقفين حوله والأحياء داخـل القبور .. طيور جميلة مغردة تقف في اطمئنان غريب فوق أغصان الأشجار القريبة .. اطمئنان يرمز إلى السلام الذي يخيم على ارجاء المكان .. في الناحية الأخرى من العالم حيث يقدسون الموت يحرقون جثمان الميت الذي يذهب الى السماء محمولاً فوق موجات من دخان خشب الورد يضعون جثمان الميت فوقه ثم يحرقونه . ينثرون الرماد المتخلف من عملية الحرق فوق أكبر رقعة من أرض الوطن أو يلقون به في مياه احد الانهار المقدسة ليعود الميت حيـاً من جديد مع الهواء والأشجار وأشعة الشمس والزهرات البرية وميـاه الأمطار والأنهار المقدسة .

وصل بعد هذا التفكير العميق في الموت إلى اقتناع بأنه لا يمكن تبرير انحدار الانسان من قمة الحياة والترف اليومي إلى حفرة صغيرة يبول فوقهـا الأطفـــال وتلقي النسوة بمياه الغسيل والمجاري ذات الرائحة العفنة المقززة وحيث تنتشر حول جثمانه النفايات الآدمية واكوام القمامة وسحابات الذباب والصبية الصغار السليطوا اللسان الممدودوا الأيدي وأشعة الشمس الحارقة والتراب والحصى .. لا يستطيع تبرير هذه النقـــلة الفظيعة إلا بأن الأحياء

ينظرون الى الميت على انه آلة أصبح من المستحيل الاستفادة منها ولا يهم أين أو كيف تلقى هذه الآلة المعطلة .. امتهان فظيع للموت .. للحياة نفسها .

يصل الى أقصى درجات التوتر والعصبية عندما تلتصق ملابسه المبتلة بالعرق بجسمه الساخن المكدود وعندما تبدأ بضع ذبابات لحوحه في مطاردته بإصرار غريب .. تقف فوق عينيه .. تحاول الدخول من خلال فتحتي أنفه أو عندما يستنشق الهواء الساخن المحمل بالغبار ورائحة النفايات الآدمية التعسة أو عندما تتعثر قدمه في بضع حصوات كبيرة ملقاة على الارض أو عندما ينظر الى حذائه النظيف فيجد أنه قد تغطى بطبقة سميكة من التراب الأبيض الناعم الذي يشبه الدقيق .

النسوة السائرات في الحارة يقابلن الجمع المتقدم ناحيتهن بنظرات عدائية مليئة بالفضول وبنوع حاد من التهكم والسخرية .. ينظرن باستغراب شديد إلى الرجال القادمين باتجاههن كما لو كن ينظرن إلى قطيع من الفيلة .

يلعن الساعة التي أتى فيها إلى هذا المكان .. يحسب الدقائق الباقية على خروجه منه بأسرع ما يمكن كي لا يعود اليه مطلقاً بعد ذلك .. يصر بينه وبين نفس على أن تكون هذه آخر زيارة له الى هذا المكان الكريه .. دائماً كان يقول ذلك لنفسه لكنه كان يعود دائماً لتوديع راحل جديد .

وصل الجمع الصغير الى المدفن.. تنفس الصعداء .. بوابه كبيرة من الحديد الصدىء .. فوقها طبقة سميكة من التراب .. سلسلة طويلة من الحديد تنتهي بقفل ضخم .. خيوط عنكبوت رفيعة تعشش فوق قضبان البوابة الضخمة.. البوابة مفتوحة على مصراعيها .. تشبه بوابة سجن عتيق على وشك ان يدخله إلى داخل المدفن .. مجموعة من النسوة من ساكنات البيوت القريبة يجلسن القرفصاء الى جوار بوابة المدفن .. أمامهن أواني الغسيل الواسعة ممتلئة حتى حوافها بالماء تعلوه طبقة سميكة من رغاوي الصابون الرخيص.. قطع الملابس

الملونة غارقة تحت الماء بينما تظهر أطرافها العلوية مغطاة برغاوي الصابون . النسوة منهمكات في غسل الملابس .. يتطلعن الى الرجـــال الواقفين أمامهن بعيون فيها فضول انساني غريب .. رغاوي الصابون ذات الرائحة المقززة تفور في أعين الرجال الذين ينظرون اليهـا بتأفف شديد يبادلون النسوة نفس النظرات العدائية المليئة بالفضول .. سيقان بعض هؤلاء النسوة الملتفة حول أواني الغسيل والمغروزة في برك من الطين تغطي الأرض من حولهن .. هذه السيقان المنفرجة في لامبالاة متعمدة مكنت بعض الرجال من رؤية الملابس الداخلية الصارخة الألوان لهؤلاء النسوة الفقيرات الدميمات .. امتـلأ الرجال امتعاضاً .. ورغم ان النسوة أحسسن بنظرات الرجال الموجهة لهن فانهن لم يبالين بهـا .. مضين في عصر الملابس وإرسال ذلـك السيل من النظرات الوقحة عليهم .

النسوة العجفـاوات الداكنات البشرة كتماثيـل من الطـين المحروق .. المعروقات الأيدي التي تملأ وجوههن القبيحة بالبثور والتجاعيد المبكرة وتفوح من ملابسهن الرخيصة الممزقة رائحة الصابون المقززة .. هؤلاء النسوة كن عاجزات عن تحريك الخيال الجامح للرجال على العكس امتعاضهم .

ثم بدأ الرجال يدخلون الى المدفن .. راوده احساس غريب انه لا يخرج من السجن الذي دخله للآن بقدميه .. سيصبح من نزلائه الدائمين دون ان يذكر انه ارتكب جريمة على الاطلاق سوى مجرد وجوده يوماً ما على قيد الحياة .

التراب يملأ كل مكان داخل المدفن الفسيح الذي لا يعدو ان يكون مجرد قطعة أرض فضاء واسعة يحيط بها سور ضخم من الحجر الجيري مرشوق في نهايته بعض قطع الزجـــاج الصغيرة لحماية المدفن من اللصوص والمتطفلين .. التراب الناعم الأبيض الذي يشبه الدقيق والذي يملأ ساحة المدفن يتوهج تحت حرارة الشمس القوية الساقطة فوقـــه .. الجانب المرشوش منه يتصاعد منه

بخار الماء مؤكداً احساس الرجال الواقفين حوله.بالاختناق .. بأنهم يقفون في مكان يشبه جحيم دانتي .. يدير بصره المكدود المليء بالظلام في أرجاء المدفن الفسيح .. في الوسط يوجد القبر المفتوح وحوله التراب الذي أزيح من فوهته التي تسدها الأحجار الجيرية الضخمة..الصفائح الفارغة وبعض مقاعد الخيزران مرصوصة إلى جوار سور المدفن في جانب ضئيل من الظل يصنعه السور على الأرض .. تزداد كمية الظلام في عينيه من جراء الوهج الشديد الذي يخيم على أرجاء المدفن الفسيح الذي يختفي منه اللون الأخضر تماماً وكذا الظلال فيما عدا ظلال الرجال الواقفين بداخله .

الرجال الواقفون في المدفن يشعرون بالضيق والملل .. يتعجلون الوقت للانتهاء من مهمتهم البغيضة في المكان الذي يوتر أعصابهم ويحطمها .. يدخنون بشراهة شديدة .. يخرجون مناديلهم المكومة المتسخة ويمسحون بها حبات العرق الغزيرة من فوق وجوههم المحمرة من جراء حرارة الشمس المتوهجة فوقهم .. رجال اللحاد قاموا بالعمل المطلوب منهم قبل قدوم الرجال إلى المدفن .. جمعوا الحصى من حول فتحة القبر ثم رشوا التراب بالماء ليقللوا من شدة الوهج في المكان ويمنعوا اثارة الغبار.. أتوا بالمقاعد الصغيرة ورصوها الى جوار السور العالي لكي يجلس فوقها الرجال المكدودون حتى يفرغوا هم من وضع الميت داخل القبر.. استعدوا بالمقاطف والفؤوس لتسوية التراب بالأرض من جديد بعد سد فتحة القبر بالأحجار الجيرية الضخمة .. وعندما جاء الميت الى المدفن أخرجوه من التابوت الموضوع على الأرض وقد وضع داخل كفن من قماش رخيص ثم هبطوا به الى داخل القبر.. كانوا يحملونه بين أيديهم وقد تقعر بينها .. مربوطاً عند كلا من أطرافه العلوية والسفلية كأنه قطعة كبيرة من اللحم ينقلونها من داخل السيارة الكبيرة إلى الثلاجة الموجودة في محل للجزارة .

لم يستغرق الرجال وقتاً طويلا داخل القبر قبل أن يصعدوا من جديد إلى

السطح كما لو كانوا مجموعة من فئران الحقول الضخمة السوداء تخرج من أحد الشقوق العميقة في الأرض .. فئران كئيبة ترمز للموت وتذكر الجميع بالمصير الرهيب الذي ينتظرهم في هذا المكان .

في تلك اللحظة وقبل أن يبدأوا في إغلاق فتحة القبر بالأحجار الجيرية الضخمة تذكر واحد من أهل الميت شيئاً بالغ الأهمية .. سأل الرجال الذين أخرجوا لتوهم من داخل فتحة القبر عما إذا كانوا قد مزقوا كفن الميت أجابوه بأنهم لم يفعلوا ذلك أمرهم بالنزول من جديد الى داخل القبر وتمزيق الكفن فالجميع وفي مقدمتهم اللحادون أنفسهم يعلمون ان أول ما يسرق في هذا المكان هو أكفان الموتى اذا ما تركت بدون تمزيق .

وبدأوا يبحثون عن موسى لتمزيق الكفن .. ولم يجدوا هذه الموسى فتطوع واحد من الواقفين باعطائهم مطواة صغيرة لتقوم بعمل الموسى وارتاح الجميع بعد أن أطلت بعض الرؤوس الى داخل القبر وطمأنت الرجال الباقين إلى أن عملية تمزيق الكفن قد تمت بنجاح .

هذا كل ما باستطاعة أهل الميت أن يفعلوه له من أجل حمايته من لصوص الأكفان الذين يتسللون ليلاً إلى داخل القبر ويسلبوه قطعة القماش الوحيدة الموضوعة على جسده الميت لكنهم بالتأكيد لا يستطيعون شيئاً حيال نوع آخر أخطر كثيراً من لصوص الأكفان ينتظرون داخل القبر ليبدأوا على الفور عملية السطو الجبانة على جثمان الميت نفسه لا تغريهم أمتار القماش الرخيصة بل اللحم الحي نفسه ذو المذاق الشهي الغريب .

لكن أهل الميت لم يفكروا كثيراً في هذا الأمر أو فكروا فيه وأصابهم يأس شديد من محاولة تغييره .. نوع من الاستسلام المخزى أمام حقائق الحياة المخيفة .

وبدأ رجال اللحاد بعد أن انتهوا من دفن الميت في سد فتحة القبر

بالأحجار الجيرية الكبيرة وملء الفجوات بينها بالتراب ثم رشوا المـاء فوق التراب وهنـا جاء دور المقرئين الجالسين القرفصـاء إلى جوار سور المدفن لتتصاعد أصواتها الخشنة المتحشرجة التي تشبه نقيق ضفادع جائعة في المكان الذي خيم عليه الصمت التام .

كانوا يرتلون القرآن بطريقة منفرة وباعثة على الكآبة .. راوده احساس مؤكد أن هذا المكان هو آخر مكان يصلح ليرقد فيه الموتى بسلام إلى الأبد.. بعيد تماماً عن روحانية وقدسية الموت .. يؤكد صلة الانسان الوثيقة بجسمة الحي .. بذلك الكيان الفاني في شخصيته .. امتـلأ باحساس عميق بالرعب والتقزز عندما تخيل نفسه واحـداً من نزلاء هذا السجن الأبدي الرهيب .. السجانون لهم سحن ترابية مبللة ببول الأطفال وماء أواني الغسيل والجاري.. التراب يملأ تجويف عينيه الغائرتين .. يصنع طبقة سميكة في سقف حلقـــه المتشقق الظامىء المغطى بالملح .. يختلط بالمسام الدقيقة في جـــلده اليابس المتشقق الذي يشبه جلد حيوان محنط منذ فترة طويلة من الزمن .. جسمه أصبح تمثالاً من الرمل المبلل بالمـــاء ملقى فوق شاطىء ما .. مغطى بالملح والطحالب الصغيرة.. تضربه أمواج من الماء المملح .. في داخله يتولد انشطار ذري دائم من جـــراء الحرارة الفظيعة التي توجد في ذرات الرمال الساخنة من حوله .

صمم على أن يتجنب هذا المصير المخيف الذي ينتظره في هذا المكان .. سيخرج من هنا على الفور ليبتاع قطعة أرض صغيرة في مكان بعيد يقيم فوقها مدفناً لائقاً تحيطه الخضرة من كل جانب..سيوجد بالمدفن صنبور صغير يصب في حلقه المتشقق الظامىء على الدوام .. لن توجد نساء يفترشن الارض إلى جوار سور مدفنه النظيف أو يلقين بماء الغسيل والجاري فوق جثمانه المدفون في التراب ولن توجد نفايات آدمية يتعثر فيها السائرون الى مدفنه أو أكوام من القمامة التي يحوم حولها الذباب أو صبية يتسولون من زواره بالحاح عنيد

مقزز .. المدفن لن يكون مجرد قطعة أرض تتوهج فوقها الشمس وتخلوه من الظلال واللون الأخضر ويتصاعد بخار المـــاء من بين ذرات رمالها الساخنة الحمراء ليخنق الرجال الواقفين فيها .. المدفن سيكون مليئاً بالخضرة اليانعة نظيفاً وباعثاً على احترام الموت .

أفاق من خواطره في اللحظة التي ساد فيها المدفن سكون مفاجيء أثر توقف فرقة المنشدين عن ارسال أصواتها المنكرة ثم بدأ الرجال يستعدون لمغادرة المدفن .. الارتياح يبدو على وجوههم رغم محاولاتهم المستميتة لاخفاء هذا الشعور غير اللائق عن بعضهم البعض وخلف أقنعة التجهم المصطنع التي يضعونها فوق وجوههم .

خرج الرجال من جديد إلى الحارة الصغيرة .. الشريط يدور معكوساً هذه المرة وبايقـــاع أسرع بعض الشيء .. طلعتهم عيون النسوة الجالسات القرفصاء أمـــام أواني الغسيل الواسعة .. نفس نظرات الدهشة والعداء السابقة .. أبصر بعض الرجال الملابس الداخلية الملونة لبعض هؤلاء النسوة وامتعضوا من جديد .. فـــارت في عيونهم رغاوي الصابون الرخيصة ذات الرائحة المقززة .. حمـــل اليهم الهواء الساخن المحمـــل بالغبار رائحة النفايات الآدمية المبعثرة في أرجاء الحارة الصغيرة..عاد الذباب لمضايقتهم من جديد.. التراب الأبيض الناعم الذي يشبه الدقيق يغطي نعالهم وأطراف سراويلهم.. الصبية الصغار يطاردونهم بنفس الإلحـــاح السابق حتى نهاية الحارة .. لكنهم بدوا مبتهجين بانتهـــاء المهمة البغيضة التي جـــاؤا من أجلها .. لن تمر سوى دقائق معدودة حتى يجدوا أنفسهم بعيدين تماماً عن المكان المعبأ برائحة الموت والذي يضطرهم بفظاعة إلى التخلي عن انسانيتهم .

وصلوا إلى السيارات التي تغطت تمامـــاً بطبقة سميكة من التراب الأبيض الذي يشبه الدقيق والذي طمس ألوانها تماماً .. جلس خلف عجلة القيادة في سيارته وبجواره جلس الصديق الذي جاء معه .. تحركت السيارة في الشارع

الطويل المترب وسحابة ضخمة من الغبار تعدو خلفها .. بدأ الإرتياح يظهر بوضوح على وجهي راكبي السيارة إذ لن تمر سوى دقـــائق معدودات حتى يغادران هذا المكان اللعين إلى الأبد ويعودان من جديد إلى حياتهما العادية .. سيظلان سائرين في هذا الشارع الترابي حتى يصـلا إلى الميدان الذي يتوسطه الضريح القديم والذي يتخذه قائد السيارة بمثـابة علامة طريق يتجه منها إلى مدفن العائلة .

عندما يصلان إلى الضريح القـــديم سيدوران حوله متخذين وجهتهما إلى الشارع الآخر المغطى بالاسفلت والموصل إلى الضاحية التي يسكنانها .. في ذلك الشارع سيطلق العنـان لسيارته .. سيبتعدان بسرعة عن رائحة الموت التي تطاردهما بفظاعه متوحشة .. عن الشرك الذي يقبع في انتظارهما داخل مدينة الموت الملعونة .. الحديث بينهما لا يزال متـأثراً بسيرة الموت يبدأ من أي نقطة .. يلف ويدور ثم ينتهي دائماً إلى الموت .

سيظل الموت بكل الفظاعة التي تحيط به في هذا المكان هو الالحاح الدائم على تفكير الرجلين للبضع ساعات أو الأيام القادمة حتى يختفي تمامـــاً تحت ضربات الحياة القوية المتدفقة .

بعد أن قطع مسافة من الشارع الترابي لفت نظره جمع من عواجيز مدينة الموتى يفترشون الطوار إلى جوار حائط أحـد المدافن .. أحس كما لو أنــه يشاهد قطيعاً من القطط الضالة متجمعة فوق صفيحة قمامة .. كانت أمامهم أكوام كبيرة من الفطـائر التي يوزعهـا رواد مدينة الموتى على أمثـالهم من الفقراء ومقرئي القرآن المكفوفي البصر .. بعض حبـات البرتقـال الجافة السطح .. كومـة كبيرة من الملـح الأسود الصغير .. كان من الواضح أنهم يقسمون هذه الغنيمة على بعضهم البعض.. عيونهم تلمع بشراهه القطط الجائعة عندما تتصارع على قطعة صغيرة من اللحم .. يتصايحون بأصوات متحشرجة حـادة النبرات كالصراخ .. يسبون بعضهم البعض بكلمات سباب بذيئة ..

يلوحون بأيديهم بطريقة أقرب إلى التشاجر .. انهم على استعداد لسفك دماء بعضهم البعض اذا ما اختلفوا على توزيع الغنائم بطريقة مرضية لهم جميعاً .

كانوا يجسدون الفقر والمهانة في أوضح صورهما .. كانوا أشبه بتمهيد حي الموت .. افتتاحية حزينة للرقاد الأبـدي تحت التراب .. وجوههم قبيحة عجوز متغضنة لوحتها شمس الصحراء الحارقة فبدت جافة متشققة كأنها جلود تماسيح عجوزة .. ملابسهم التي تسولوها من مكان ما بليت تمامـاً أو كادت بحيث برزت من تحتها عظامهم وقطع من جلودهم السمراء المتغضنة .. مغطاة بالأوحال والتراب .. أيديهم الخشنة المعروقة تهـتز وهي تمسك بين أصابعها الأشياء الرخيصة التي يقسمونهـا على بعضهم البعض .. تسقط على الأرض فيتناولونها من جديد بعد أن ينظفوها من التراب .. عيونهم مغطاة بسحابات كثيفة تكاد تمنعهم عن الأبصار .. نوعية غريبة من البشر تمثل السواد الأعظم لسكان مدينة الموتى .

كانوا جالسين القرفصاء إلى جـوار بركة من الوحل صنعتهـا مياه المجاري والغسيل اعتاد الأهالي القاءها وسط الطريق الترابي .. لم يكونوا شاعرين بمدى وضاعة المكان الذي يجلسون اليه .. غير مبالين بالرائحة المقززة التي تفوح منه .. شك في أن هذا الجمع الغريب من البشر ينتمي حقيقة إلى نفس الجنس الإنساني الذي ينتمي هو اليه لكنه كان متأكداً من ذلك .

إنهم ليسوا أكثر من مجموعة قطط ضالة تلتقط رزقها من أي مكان يصادفها في مدينة الموتى التي لا تعرف غيرها .. تنام في أي مكان .. أحياناً بين المقابر المتهدمة .. تتجول معظم النهار في شوارع مدينة الموتى الترابية المتوهجة بحرارة الشمس الشديدة المتأججة فوق رؤوسهم بحثاً عن القليل جداً الذي يكاد يبقيهم على قيد الحياة .. تتسول .. تسرق .. المهم أن تبقى على قيد الحياة .. لا تعرف شيئاً عن النظافة أو الاستحمام .. الماء القليل الذي تحصل عليه بصعوبة بالغة تستعمله في طهي الطعام أو غسل الملابس الممزقة على فترات

متباعدة بعد ان تكون اتسخت تماماً وكادت تبلى .. لا يقراون صحيفة أو كتاباً .. لا يسمعون اذاعة أو يشاهدون تلفزيوناً لا يذهبون إلى السينما أو المسرح أو الحدائق العامة .. لا يأكلون اللحم إلا في المواسم والاعياد وغالباً مما يتصدق به زوار مدينة الموتى .. لا يحبون وان كانوا يتناسلون كالذباب أو كأسراب الجراد أو البعوض .. الطبيعة رحيمة بلا شك لأنها تبقي من المواليد عدداً أكثر قليلاً من الوفيات وإلا لملأوا الأرض إلى ارتفاع متر تقريباً .. يعمرون طويلاً حتى تتساقط أسنانهم ويكف بصرهم وتتحول جلودهم الخشنة الى ما يشبه قشر السمك العجوز المتغضن وحين يموتون .. يدفنون في نفس المكان الذي عاشوا فيه أحياء طول عمرهم.. لا يخسرون شيئاً من أجل الحياة أو الموت فقط ينتقلون من السطح إلى القاع كأنهم لم يوجدوا أبداً . الهوة التي تفصل بينه وبينهم هي نفس الهوة التي تفصل بينه وبين الكلب أو الحصان أو السلحفاة .. الكارثة أنه متأكد انه ينتمي معهم إلى نفس الجنس الانساني المنكود الطالع.. إلى نفس الشعب .. نفس الوطن.. نفس الحقوق والواجبات المقدسة .. ما يخيفه إلى درجة تجمد الدم في عروقه هو أنه بمجرد ضربة حظ موفقة أمكنه أن يفلت من هذا المصير التعس الذي شد أقدار هؤلاء الرجال اليه رغم تأكده أن حظه قد تأكد نهائياً في الحياة .

كان يمكن أن يكون واحداً منهم في طريقه التي يكون عجوزاً في السبعين من العمر يلتقط الفتات كقط عجوز ضال من صفائح القمامة .. يتسول معظم حاجيته من زوار مدينة الموتى يأكل اللحم مرة واحدة في العام..فوق عينيه سحابات كثيفة تكاد تفقده الأبصار .

هناك خيوط غير مرئية رقيقة جداً ما تزال تشده الى عالمهم الفقير البائس يمكن أن تشده في أية لحظة .. تقتنصه كحشرة صغيرة ضلت طريقها اليها.. تمتص ما في حياته من دم وحيوية وشباب .. تحوله إلى نفاية متعفنة كهؤلاء العواجيز تماماً .

أراد أن يحول بصره بعيداً عنهم ليهرب من النطاق الذي ضربته العيون الكليلة من حوله .. العيون الشبيهة بعيون القطط الجائعة التي تحاصر فأراً صغيراً أن ينجو بحياته والتي تنبعث منها قسوة مروعة هي قسوة الحرمان والشعور الدائم بالإذلال والقهر .

استطاع أن يفعل ذلك بصعوبة بالغة كأنه أفلت من جاذبية مغناطيس قوي حاول أن يشده اليه .. تنهد في راحة وأسى .. ضغط فوق بنزين السيارة التي اندفعت بسرعة إلى الأمام داخلة بركة الوحل التي يجلس حولها الرجال العواجيز .

أطارت عجلات السيارة بعضاً من رشاش الوحل إلى وجوه الرجال الجالسين حول البركة .. ارتفعت صيحاتهم الغاضبة وقبضات أيديهم المرتعشة تطارد السيارة التي أخذت تبتعد عنهم بسرعة .

أحس ان الخيوط غير المرئية التي تربطه بالرجال العواجيز تهتز بشدة في تلك اللحظة في محاولة مستميتة لاقتناصه لكنه كان قد أفلت منها .. أحس بسعادة عميقة لذلك .

دخلت السيارة منطقة أقل قذارة من الأولى .. اختفت برك الوحل وماء المجاري من الطريق فيما عدا بعض حفر ومطبات مليئة بالتراب الذي أخذ يتطاير وراء السيارة في صورة سحابة ضخمة من الغبار الأبيض .

ظهر الإرتياح الحقيقي على وجهي راكبي السيارة عندما لاح الضريح القديم أمامها مغموراً بطوفان لامع من ضوء الشمس المتوهج من حوله .. سيدوران حول الضريح في طريقهما للخروج من مدينة الموتى .. بعد دقائق سيكونان في الضاحية الجميلة التي يسكنانها وسيصبح الموت مجرد ذكرى باهتة كئيبة تبتعد بسرعة وسيعودان من جديد للاندماج في حياتهما اليومية السعيدة .

فجأة حدث شيء لم يتوقعه أي منهما.. أزمة مفاجئة أصابت قائد السيارة

الذي وضع يده بعنف على الجانب الأيسر من صدره بعد أن أحس ألماً مفاجئاً جعل سحنته تتقلص بشدة..عرق غزير بارد أخذ يتصبب فوق وجهه الشاحب كوجوه الأموات.. وضع قدمه بشدة فوق فرامل السيارة التي اختل مقودها في يده فاندفعت بقوة لتصعد الطوار وتكاد تصطدم بجدار أحد المدافن قبل أن تتوقف نهائياً.. انكفأ قائد السيارة على مقودها ثم راح في غيبوبة مفاجئة جعلت الرعب يسري إلى قلب الرجل الآخر الذي لم يدرِ ماذا يفعل لانقاذ صديقه وبينما هو يفكر في وسيلة ما إذ بصديقه يفيق من اغفاءته ويبدأ في فتح عينيه ثم أنزل السيارة من فوق الطوار وبدأ يسير بها من جديد في الشارع الترابي لكن بحذر وبطء هذه المرة .. سأل الرجل الآخر قائد السيارة عما إذا كانت النوبة القلبية قد فاجأته من قبل فأجاب بالإيجاب وبأن الطبيب أجرى له رسماً للقلب ظهر معه أن قلبه سليم تماماً لكن الراكب الآخر لم يداخله الاطمئنان لذلك فهو يعلم أن رسوم القلب كثيراً ما تخطىء ثم تأتي النوبة في وقت لا يتوقعه المريض على الاطلاق وتحمل معها النهاية المفجعة .

حاول بإستماتة أن يبعد هذا الخاطر المزعج عن رأسه لكنه لم يستطع وسرعان ما جاءت النوبة الثانية بأسرع مما توقعه إذ انكفأ فجأة قائد السيارة على عجلة القيادة بطريقة لم تمكنه من إيقافها كالمرة السابقة .. اندفعت السيارة المسرعة التي لا سيطرة لقائدها عليها لتصعد الطوار بعنف بالغ ثم تصطدم في دوي مرعب بجدار أحد المدافن .

تأكدت مخاوف الرجل الآخر الذي آمن بينه وبين نفسه بأن هذه النوبة ستكون هي القاضية حدث كل شيء بسرعة مذهلة شلت حواسه .. ثم بدأ يفيق ويفكر في وسيلة ما لانقاذ صديقه .. ذهنه عاجز تماماً عن تذكر مبادىء علم التمريض التي قرأها في مكان ما ثم بدأ أخيراً يتصرف بطريقة عفوية تماماً.. فتح قميص صديقه ثم بدأ يهوي له أمام صدره ووجهه .. يجفف العرق الغزير الذي أخذ يتصبب على جبهته ووجهه الذي حاكى وجوه الأموات في شحوبه

واصفراره والذي بدأ يفقد حرارته إلى درجة التثلج مما يوحي أن النهاية أقرب مما يتوقعها أحد على الاطلاق لكنه كان مصراً على أن يبذل آخر محاولة في جعبته لانقاذ صديقه رغم تأكده التام أن الشيء الذي يحاول انقاذه داخل صديقه قد مات تماماً أو هو في طريقه إلى الموت .. ثم حاول أن يجرب طريقة التنفس الصناعي .. وضع فمه فوق شفتي صديقه وراح ينفخ فيهما بأقصى ما يملك من قوة دون أن يتحرك شيء ما داخل جسد صديقه الذي تأكد له تماماً أنه في طريقه بسرعة إلى الموت .. عيناه زائغتان .. بياضهما له صفرة الموت الرهيبة .. وجهه شاحب شمعي عليه نقاط غزيرة من العرق .. استمر في بذل محاولات يائسة حتى اللحظة الأخيرة وذلك حتى لا يلوم نفسه يوماً ما ان لم يستمت في محاوله انقاذ صديقه من الموت .

رفع شفتيه بعد أن يأس تماماً من انقاذ صديقه الميت .. بعد أن أيقن أن الانفاس التي ينفخها في صدر صديقه تصطدم بحائط جليدي سميك تكون بسرعة في داخله .. وضع اصبعه فوق أحد شرايين صديقه ليتأكد من موته .. الدم جامد تماماً في عروقه .. لا يوجد نبض على الاطلاق .. حرك يده أمام عيني صديقه المفتوحتين في ذهول كعيني أحد التماثيل .. اقترب بأصابعه إلى درجة ملامسة العينين لكن العينان ظلتا في حالة عجز تام عن الأبصار أو الحركة .

أغلق عيني صديقه في استسلام يائس وهو يحس بحزن عميق يقتله . أراح ظهر صديقه على مسند المقعد الذي يجلس فوقه وقد أحس بأنه يريحه داخل نعش ما .. وضع ذراعيه المشبوكتين فوق ساقيه .. أراح ظهره هو الآخر إلى مسند المقعد الذي يجلس فوقه وبدأت خيوط المتاعب التي تنتظره تلح على مخيلته .. المتاعب التي تبدأ دائماً بعد الموت .. كيف يمكن ابلاغ زوجة صديقه المتوفي أن زوجها الشاب الذي خرج في الصباح بكامل حيويته وقوته سيعود اليها الآن محمولاً في نعش وقد فارقته الحياة .

بدأ يفكر في طريقة مناسبة ليبلغها هذا الخبر المخيف لكن ذهنه بدا عاجزاً تماماً عن ايجاد تلك الطريقة المناسبة .. لا توجد أبداً أية طريقة مناسبة .. ثم بدأ يفكر في المتاعب التي تنتظر الزوجة المسكينة الذي يشبه الموت المفاجىء الذي دخل حياتها قنبلة انفجرت تحت قدميها وأطارت نصفها الأسفل في الهواء .. كيف يمكن أن يكون في الحياة شيء ومخيف كهذا .

حاول أن ينسى باغلاق عينيه لكن المخاوف كانت داخل عقله ونفسه .. داخل كل خلية حية وعصب وراح ينظر في ذهول إلى الأمام .. إلى أبعد ما يستطيع أن يرى وأفاق على ضجة تحدث بجانبه .. سيارات عديدة توقفت ونزل منها رجال يطل من عيونهم فضول شديد .. يكادون أن يخرقوا زجاج السيارة المغلق بعيونهم الجاحظة المدهوشة .. راوده خاطر غريب وهو يتأمل تلك العيون الفضولية الوقحة المتقدمة نحوه . تلك العيون التي تتصنع البراءة والدهشة تتمنى في قرارة نفسها الا يخيب توقعها .. تتمنى أن تكون كارثة مروعة قد حدثت بالفعل .. نوع غريب من الرهان الانساني .

تمنى لو يصرخ في وجوههم بأن يبتعدوا عنه وأن يتركوه لكارثته المروعة .. بحث عن مدفعه الرشاش ليصد به تلك الموجة العارمة من العيون الفضولية الغريبة المتقدمة نحوه لكن مدفعه الرشاش كان خالياً من الطلقات .

تجمد من الرعب عندما وقع بصره على ذلك الجمع من العواجيز الذين كانوا يجلسون إلى جوار بركة الوحل .. كانوا يتقدمون ناحيته في اصرار غريب مذهل .. يطلقون قنابل فوسفور حارقة وشديدة الوهج تعمي بصره تماماً .. تصيبه بشلل شعوري تام .. اختلس نظرة إلى تلك العيون الكليلة المتفرسة فيه باندهاش شديد ولم يخطىء نظرة الشماتة التي تطل منها .. ذلك الشعور العميق بالفرح المختلط بالمأساة فوق الشفاه. العجوزة المتغضنة ابتسامة لا تكاد ترى .. تذكر بابتسامة اللحاد التي قابلهم بها وهم على وشك الدخول إلى الحارة .. اقتربت منه العيون أكثر .. فوقها تلك السحابات البيضاء المخيفة ..

شعور غريب يسيطر على حواسه .. أنه طـائر مضروب في جناحه وان العواجيز المتقدمين ناحيته هم مجموعة من الصيادين تريد اقتناصه .

فجأة توقفت إلى جواره سيارة نقـل الموتى الكبيرة .. صوت احتـكاك عجلاتها بالأرض وزوبعة الغبار التي أثارتها من حولها أحدث انزعاجاً بالغاً في نفسه .. نوعاً من التنبيه الحاد لحواسه المخدرة المشلولة .

بدأ يعي أكثر ابعاد المأساة التي يعيشها ومن ثم بدأ حزن طـاغ يعتصر قلبه .. فجأة أبصر الرجـال اللحاد الضخام الأجسام يتقدمون ناحيته بينهم وجه جمل قلبه يغوص داخـــل حذائه .. كان وجه اللحاد الأسمر المتجهم الـملامح تعلوه نفس الابتسامة الشاحبـة التي لا تـكاد ترى وان كانت واضحة تماماً بين علامات التجهم المصطنع التي يضعها فوق وجهه .

٤ من يملك البيت

الاحساس المشترك بيني وبين زوجتي الجميلة ونحن نتحرك بين موائد المدعوين المبعثرة في حديقة الفيللا الصغيرة نقوم بواجب المضيفين تجاههم هو الزهو .. أقصى درجات الزهو .. زوجتي هي صاحبة الفكرة في اقامة ذلك الحفل الصغير الذي ضم بعضاً من أقاربنا وأصدقائنا المقربين جاؤا للاحتفال معنا بهذه المناسبة الفريدة في حياتنا .. امتلاكنا لفيللا خاصة بنا .

شعور حقيقي بالاستمتاع والزهو يتدفق في داخلي وأنا أشاهد العيون ترمقني باعجاب مبالغ فيه .. بنوع مفضوح من الحسد الدياء كأنني ممثل يقوم بدور البطولة في مسرحية ناجحة .. المدعوون مكانهم هناك وسط مقاعد المتفرجين الغارقة في الظلام .. أنا وزوجتي فقط نتحرك فوق خشبة المسرح المضيئة اللامعة .. لا أحد يمكنه أن يتخيل مدى روعة الشعور الذي يتدفق في داخلي الآن وأنا أملك بعد سنوات طويلة من الكفاح والحلم فيللا خاصة بي وحدي .. امتلك كل شيء فيها حتى الهواء .

أحس أنني انتقلت إلى الجانب الآخر المضيء من الحياة .. الجانب القوي المفعم بأحساس عظيم بالذات .. شعور بالتفوق على الآخرين الذين ما زالوا يعيشون في السفح .. أحس أنني أصبحت محصناً ضد كل الأخطار المخيفة التي

يتعرض لها الناس الذين مـا زالوا يعيشون على الأرض في تلك الخروم الضيقة التي تشبه فتحات خلايا النحل الصغيرة .. أعيش محصنـاً خلف أسوار قلعة ضخمة أمارس ورائها حياتي الخاصة بعيداً عن عيون الآخرين المتلصصة التي تشبه عيون القطط الجائعة .. عن آذانهم المرهفة التي توجد دائماً وراء الأبواب المغلقة أو حيث لا يتوقع أحد أن توجد على الاطلاق .

وراء هذه الأسوار العالية يمكنني ممارسة حياتي الخاصة دون أن أضطر في نهاية الأمر أن أقدم حساباً عنها لأحد أو أخشى تطفل أحد .. مثلاً يمكنني ان أخلع ثيابي تماماً .. أن أسير عارياً كما ولدتني أمي .. أن أقفز في حوض السباحة الصغير الذي يوجد بالفيللا .. أخرج من حوض السباحة .. أستلقي فوق العشب الأخضر الذي يمتد في نعومة شديدة حتى نهـاية سور الفيللا والمغطى بفروع الأشجار الكثيفة التي تجعـل رؤية مـا يجري تحتها شيئاً مستحيلاً تماماً .. استمتع بكرات الشمس الصافيـة الدافئة .. التي تلمع بين فروع الأشجار الضخمة الظليلة .. تستلقي فوق النجيل الأخضر اللامع الذي يشبه البساط الشديد النعومة .. أتقلب فوق النجيل الأخضر المقصوص بعناية شديدة مستمتعاً بدفء الشمس اللذيذ كأنني قطة صغيرة مرحة أو سنجاب شقي صغير .

يخيل إلي من فرط الهدوء الذي يخيم على حديقة الفيللا وتعذر الرؤية من خلال فروع الأشجار الكثيفة التي تظللها ان في مقدوري أن أضاجع زوجتي تحت واحـدة من تلك الأشجـار الضخمة الظليلة دون أن أخشى أن يتمكن واحد من الجيران الفضوليين من رؤيتي وأنا أفعل ذلك حتى لو فعلته في وضح النهار فهناك دائماً ذلك القدر من الظلام والظلال الذي يجعل الرؤية من الخارج مستحيلة تماماً .

ليست هـذه هي الفائدة الوحيدة لسكني فيللا خاصة بي وحدي فانني بالتأكيد سأتجنب ذلـك النوع من الاذلال الذي يلحق ساكني الشقق الصغيرة

أو البيوت التي يملكها أناس آخرون عندما يضطر هؤلاء السكان التعساء أول كل شهر إلى دفع ثمن بقـــائهم على قيد الحياة في بيوت يملكها غيرهم كأنهم يحصلون من هذا الغير على إذن متجدد ببقائهم أحيـــاء داخل البيوت التي يملكونها .

أعتقد ان الانسان لا يمكنه أن يشعر حقيقة أنه يعيش في بيت يملكه عندما تقتصر هذه الملكية على بعض قطع الأثاث الموجودة بداخله.. خصوصاً اذا كان عليه أن يدفع ثمن بقائه في هذا البيت إلى رجل آخر .

حقيقة لا يمكن أن أصف لـــكم شعوري الآن بعد ان وضعت لنفسي جذوراً عميقة من الاسمنت المسلح في الأرض .. جـــذوراً لا يمكن اقتلاعها بسهولة من مكانها .

بـدأ كل شيء كحلم صبي صغير يمر وهو في طريقـه الى المدرسة البعيدة بفيللا ذات حديقة واسعة يحوطها سور عالي مكسو بالخضرة .. بوابه ضخمة من الحديد ينبعث منهـا نوع غريب من الغموض والسحر .. اعتـدت عندما أصل إلى سور الفيللا الضخم أن أضع يدي فوقه .. أن أبقيها فوقه حتى ينتهي السور تماماً .. أحياناً كنت أبقي يدي معلقة في الهواء وسائرة الى جواري حتى بعد أن ينتهي السور .. كنت أتحسس خضرة السور اليـــانعة بعذوبة شديدة كأنني أتحسس ظهر امرأة عارية .. كنت أحلم بامتلاك فيللا كهذه يوماً ما .. كانت النية مستحيلة تماماً بالنسبة لصبي فقير يرتدي بنطلوناً قصيراً ويسكن شقة صغيرة متواضعة في بيت يوشك أن يكون آيلا للسقوط في حي مكتظ بالناس الفقراء أو متوسطي الحال من أمثال أسرتي الكبيرة العدد .

كنت أحلم لكنني كنت أعرف في نفس الوقت ان طريقي إلى تحقيق الحلم سيكون طريقاً صعباً مليئاً بالمشاق و كنت على استعداد لدفع الثمن المطلوب.. كنت أعرف ان الطريق الوحيد لامتلاك فيللا كهذه هو طريق التفوق في

الدراسة .. العمل الشاق لبضع سنوات بعد التخرج وبعدها يتحقق حلمي القديم المستحيل.. كان يلذ لي وأنا سائر إلى جوار سور الفيللا المكسو بخضرة مثيرة يانعة أن أختلس النظر إلى داخل الحديقة الواسعة من خلال بعض الفرجات القليلة في السور أو من خلال البوابة الضخمة .. كنت أرى عالماً غريباً يخفق له قلبي وينتعش خيالي ومشاعري وأنا أرى الناس السعداء الذين يعيشون داخل تلك الفيللا الواسعة كأنني أرى أناساً من عالم آخر .. عالم بعيد أكثر نقاوة ومثالية من عالمي الفقير المتواضع .. عالمي الأرضي .. رغم أنني حقيقة لم أكن أراهم على الاطلاق .. كنت دائماً أشاهد الحديقة خالية من الناس .. أحياناً قليلة كنت أرى أطفالاً صغاراً سعداء تصحبهم المربيات ذوات الملابس البيضاء النظيفة يتأرجحون في الارجوحة الصغيرة المختفية وراء أشجار الحديقة أو يجرون فوق النجيل الأخضر الناعم أو يقطفون بعض الورود الجميلة الملونة من الأحواض الكثيرة التي تنتشر في أرجاء الحديقة الواسعة .. كان عالماً مثالياً تتشابك فيه الأغصان الخضراء وتنتشر برك المياه الباردة العذبة .. عالم يستمتع به أناس سعداء طيبون من طينة أخرى .. يختلف كثيراً عن عالم الشقة الصغيرة المكتظة عن آخرها التي أعيش فيها مع أسرتي الكثيرة العدد حيث تصطدم أجسامنا المرهقة الشقية وهي تتقلب من حرارة الجو في ليالي الصيف الساخنة أو عندما نجتمع على مائدة الطعام المربعة الشكل الصغيرة الحجم الموضوعة في الصالة الوحيدة بالبيت .. عالم الصراخ والمشاحنات والعرق الذي ينز من أجسامنا المرهقة المشحونة بالغضب طول اليوم .

سعادتي لم تكن أبداً بمثل تفجرها وحيويتها عندما عثرت في النهاية على بركة المياه الصغيرة الباردة التي ظللت أبحث عنها طويلاً مختفية وراء فروع أشجار كثيفة تجعل رؤيتها متعذرة تماماً من الخارج .. دائماً وبغريزتي التي تشبه أنفاً بالغ الحساسية كنت أبحث عن بركة المياه الناعمة الراقدة في مكان ما داخل الحديقة الواسعة في تلك اللحظات القليلة التي كان يتاح فيها لعيني

المدهوشتين الباحثتين أن تريا داخل الحديقة .. أحساس لا يكذب كان يقول لي انها هناك تنتظرني وان علي أن أواصل البحث عنها حتى أجدها وعندما عثرت عليها في النهاية أحسست انني اكتشفت قارة جديدة أو كأن أصحابها السعداء سيسمحون لي أن ألقي فيها بجسمي المكدود الساخن وأنا في طريق العودة الى البيت بعد يوم مرهق طويل في المدرسة .

كنت أرى الفيللا في الصباح في ضوء الهواء النظيف والشمس الخافتة المستيقظة .. أتحسس سورها العالي المكسو بالخضرة اليانعة حتى ينتهي تماماً وأنا عائد من المدرسة كنت أرى الفيللا من جديد في ضوء الشمس الغاربة .. في الليل أظل احلم بما رأيت طول النهار .

عندما أصبحت في نهاية المرحلة الثانوية استغرقني تماماً حلم امتلاك فيللا خاصة بي .. بدأت أخطط بذكاء لتحويل حلمي المستحيل إلى حقيقة واقعة في أقرب وقت ممكن .. دخلت كلية الطب .. ذاكرت باجتهاد شديد طوال سنوات الدراسة .. نجحت بتفوق في امتحان التخرج .. عينت بنفس الكلية التي تخرجت منها .. فتحت عيادة في أحد الشوارع الرئيسية بوسط المدينة.. أصبحت متأكد ان العمل الشاق ومرور الوقت سيحققان لي كافة أحلامي البعيدة .. أحلام الطبيب التقليدية .. السيارة .. الزوجة الجميلة .. الفيللا .

عندما تزوجت وجدت من يشاركني حلمي في امتلاك فيللا خاصة بي .. كنت أعمل في العيادة باستماتة بالغة ساعات طويلة أعود بعدها مكدوداً لكن سعيداً الى أحضان زوجتي الجميلة .. أضع بين يديها كل ما جمعته في يومي الطويل المرهق من مال وفير كانت تقتصد منه بحرص المرأة الشديد على المال حتى استطعنا بعد سنوات قليلة وما زلنا في ريعان الشباب أن نشتري فيللا خاصة بنا .

تغيرت حياتنا تماماً بعد انتقالنا إلى الفيللا الجديدة..علاقتنا مع الآخرين.. مشاعرنا.. أحسسنا اننا أناس مختلفون عن ساكني حجور الفئران الضيقة في

الحواري الصغيرة أو خلايا النحل الضخمة المرتفعة الطوابق والتي يأوي اليها النحل الشغال بعد يوم عمل مرهق طويل ليرقد داخل خرومها الصغيرة حتى صباح اليوم التالي ولتتكرر المأساة إلى الأبد .. لا تدع للحشرات الصغيرة المرهقة فرصة للراحة أو الاستمتاع بحياتها أو الشعور الحقيقي بالامتلاك .

في هذه الخروم الضيقة تصبح رائحة العرق والحرارة الخانقة للأنفاس بديلاً عن الهواء البارد النظيف .. الصراخ بديلاً عن الهمس .. الألفاظ النابية بديلاً عن القبلات والحب والعلاقات الإنسانية بين الناس.. تتوارى الخصوصية تماماً .. يعيش سكان هذه الجحور الضيقة حياة جماعية شبيهة بحياة قطعان الماشية حيث يمكن لكل واحد منهم أن يعرف عن الآخرين كل شيء..رائحة عرقهم .. نوع الطعام الذي يفضلونه .. متى يتشاجرون .. أي أنواع السبب يتبادلونها فيما بينهم .. متى يتبادلون الحب أو على الأرجح الجنس حيث لا مكان لنمو عاطفة الحب النبيلة في تلك الأماكن الضيقة التي تسكنها قطعان الفئران التعيسة المرهقة .

في هذه الخلايا الضيقة لا تحس حقيقة بالحرية أو الامتلاك .. تحس فقط انك غريب متطفل على أماكن يملكها آخرون أقوى وأغنى منك كثيراً .. أناس أنت مضطر لأن تدفع لهم ليبقوك في واحدة من تلك الخروم الضيقة التعسة التي يملكونها .. تحس أنك بعيد عن الحقيقة المؤكدة في عالم البشر.. الأرض.. بعيد عنها بعدة طوابق كأنك معلق بين السماء والأرض .. كأن جذورك تنموا في الهواء أو كأنك بلا جذور على الاطلاق .

تحس شعوراً مختلفاً تماماً منذ أن تصبح على الأرض لا فوقها بعدة طوابق.. عندما تصبح لك جذور ضاربة في أعماق الأرض .. تحس انك لم تعد حقيبة يمكنهم نقلها بسهولة من مكان الى آخر بل شجرة عتيقة متعمقة في باطن التربة لا يمكنهم زحزحتها من مكانها .

هذه المشاعر تتلاطم في داخلي الآن وأنا أتجول بين موائد المدعوين المتناثرة

في حديقة الفيللا أقوم بواجب المضيف تجاههم .. زوجتي إلى جواري تتلاطم في داخلها نفس المشاعر الرائعة الجياشة .. لكن هذه اللحظات الفريدة الرائعة لا تقارن باللحظة التي عدت فيها من المكان الذي يشهرون فيه عقود البيع وأنا أحمل عقد بيع الفيللا المسجل في يدي .

كان موضوعاً داخـــل مظروف أصفر كبير .. أخرجته من المظروف وقدمته إلى زوجتي بإحساس عظيم بالزهو كأني أقدم لها أعظم هدية يمكن أن أقدمها لها في يوم من الأيام .. زهوي وفرحتي في تلـك اللحظة النـادرة من حياتي يفوقان زهوي وفرحتي يوم انجاب طفلنا الأول .. كنت اعتقد دائمـاً أن بمقدور أي رجل أن يمنح امرأته طفـــلا كل تسعة شهور على الأقل لكن ليس بمقدور أي رجل أن يمنح امرأته فيللا جميلة حتى مرة واحدة في العمر .

رحت أتأمل ملامح زوجتي الجميلة وهي تمسك العقد بكلتا يديها وتتظاهر بقراءته .. عيناهــا تبرقان بشدة كأنهـا قطة على وشك السطو على قطعة من اللحم .. مسامها تتفتح كأوراق أزهار صغيرة لأريج عطر نفـاذ ينبعث من تلك الصفحات الناعمة المصقولة التي تشبه قطعـــاً من فراء المنك .. زوجتي تتحسس نعومة الصفحات المصقولة بأناملها الرقيقة كأنهـــا تحلم .. عيناهـا تتظاهران بفهم ما تقرأه لكني متأكد أنها لم تفهم شيئاً على الاطلاق من تلك الصفحات المليئة بهوامش وتوقيعات وأرقام تجعل من الصعب قراءتها أو فهمها لكن هذا ليس هاماً من وجهة نظر زوجتي فهي تعلم ان مجرد توقيعنا أسفل هذه الصفحات يعني اننا أصبحنا نمتلك فيللا خاصة بنا وحدنا نحن واولادنا من بعدنا كل ما عدا ذلك من تفصيلات لا تعنيها على الاطلاق .. عينا زوجتي تمتلئان بنظرة حب وعرفان بالجميل لم أرَ مثلها منذ تزوجنا .. اقتربت مني وهي تتمسح في جسمي كهرة أليفة .. طبعت فوق شفتي قبلة طويلة محمومة ما زلت أحس بطعمها كلما تذكرت تلك اللحظات الفريدة في حياتي .

المشى الطويل في الحديقة مغطى بطبقة رمل ناعمـة تغوص فيهـا قدماي

بسهولة شديدة .. على جانبي المشى يوجد صفان من أصص الورد الملونـة .. خلف الأصص مساحة خضراء فسيحة من النجيل تمتد حتى سور الفيللا .. الجو في الصبـاح منعش بارد بطريقة مثيرة .. يقبـــل على وجهي فأحس عذوبة رائعة .. يتلاعب بفروع الأشجـــار المتشابكة .. يطلق طيوراً مغردة من أعشاشها لا أحس بنفس الشعور المبهج الذي أحسه كل صباح .. الشعور بأنني في قمة السعادة والنشوة .. بأنني ملك هذه البقعـة من الأرض .. أمتلك كل شيء فوقها حتى الهواء نفسه .. كآبـة غريبة تخيم على مشاعري .. أحساس بالملل وبعدم قدرتي على الاستمتاع بالطبيعـة الساحرة من حولي .. أحس أنني ثقيل كما لو كنت عربة محملة بطن من الأحجار الضخمة تصعد تلا .. الجو من حولي مشبع برطوبة ثقيلة تخنق أنفاسي .. الأشجار ليست لها نفس الخضرة اليانعة التي اعتدت أن أراها عليهـــا كل صباح .. مغطاة بطبقة خفيفة من الصدأ أو التراب الذي غطى العالم أثناء الليل .. العالم الذي يختلف تماماً عن العالم الذي تعودت رؤيته منذ أن سكنت هذه الفيللا حتى الآن .. انني لا لا أدري حقيقة هذا الاختلاف لكنه بالتأكيد اختلاف إلى أسوأ .. كل القيم الراسخة في نفسي تهتز بشدة .. تسقط أوراقها في خريف مفاجيء وعنيف.. احساس بالامتلاك إلى درجة الشبـع والزهو يتبخر بسرعة من داخلي .. أحس أنني فقدت توائمي السابق مع الحياة وأنني سأحتاج إلى وقت طويـــل لأعيد انسجامي السابق معها من جديد .

دائرة رخوة تتوسط الرمل الأصفر في المشى الطويل .. تجتذب انتباهي بشدة .. من وسط فجوة صغـيرة بها تخرج اعداد ضخمة من النمـل الأسود المعروف باسم «حرامي الحلة» .. فضول شديد يتملكني .. أتوقف لاراقبهم.. منتشرون في كل مكان حول الفجوة الصغيرة .. فوق كثيبات الرمال المحيطة بها .. يخرجون من داخل سراديب عميقة في الأرض وهم محملون بذرات صغيرة من الرمل الناعم الأصفر يكومونها فوق كثيبات الرمال المحيطة بالفجوة .

من الواضح أنهم منهمكون في عمل بيت لهم داخل الأرض .. يعملون بهمة ونشاط تبعث على الاعجاب لكني لا أستطيع أن أتجاهل أن هذه الجماعة من النمل تشوه منظر المشى الجميل في الحديقة فضلاً عن تطفلهـا الصارخ على ملكيتي إذ من الذي أذن لهم أن يدخلوا إلى هذا المكان وأن يشوهوا منظره على هذه الصورة الصارخة .. بدأت أحس بشعور معادي لهم تمثـل في تلك الرغبة الانسانية المعتادة في الفتك بهم .. في اهالة أكوام الرمـال التي بذلوا جهداً خارقاً في سبيل اخراجهـا من داخل الأرض فوقهم .. فوق أجسامهم الرقيقة الهشة التي ستتحطم تحت الثقل الضخم الذي سينهال عليهم .. تمنيت أن أصنع لهم مأساة حزينة تمحو تماماً وجودهم من على الأرض التي أملكهـا وحدي .. من المكان الذي لا حق لهم في الوجود بداخـله .. رفعت قدمي وأوشكت أن أهبط بها فوقهم .. ترددت قبل أن أرتكب هذا العمـل الإجرامي الوضيع .. لم يدم ترددي طويـلاً .. استعمدت بسرعة شعوري العدائي تجاههم .. بشريتي .. انسانيتي الوضيعة .. تسيطر على فكرة غريبة انهم ينافسونني في مكان املكه وحدي .. مكان ليس من حقهم التواجـد بداخله فضلاً عن تشويهه .

هبطت بقدمي فوقهم بلا رحمة .. بدأت اسحقهم .. ادفنهم تحت كثيبات الرمال الناعمة التي انهارت فوقهم كأنها نوع غريب من الطوفان وفوق الفجوة الصغيرة التي سدتها تماماً وبداخلهـا بضع مئات منهم .. يجتاحني الآن شعور شرير يستعذب الجريمة المروعة التي ارتكبتهـا في الصغار المسالمين وانا اراهم يسحقون تحت قدمي او يموتون مخنوقين داخل السراديب العميقة التي سدتهـا الرمال تماماً فمنعت عنهم سبل النجاة . قدمي تتبع الناجـين منهم الذين يحاولون الهرب بعيداً فتسحقهم تحتها بلا رحمة .. سويت الأرض تماماً في المشى الجميل .. هممت بالسير من جديد .. توقفت على مفاجئة مذهلة تحدث امامي .. عشرات من النمل الأسود الصغير يخرج من تحت الرمال المدفونين

تحتها .. الأطراف اولاً ثم الشوارب وباقي جسم الحشرة الصغيرة حتى تستوي على السطح .. دوامات غريبة تحدث اولاً في الرمال الناعمة ثم تنبثق من داخلها الحشرات الصغيرة كأنها جثث غرقى يقذف بها الموج إلى السطح .

بعد فترة وجيزة كانوا يملئون الأرض من حولي .. عشرات من النمل الأسود الصغير المنهوك القوى لكن الشجاع المصر على البدء من جديد.. التراب يعلو اجسامهم الصغيرة المحطمة كأنهم عمال خرجوا لتوهم من منجم انهـار فوقهم .. يحاولون الوقوف بصعوبة فوق أرجلهم المحطمة الأصرار يطل من حدقات عيونهم الصغيرة التي تشبه حبات من الرمال السوداء الرفيعة .. بدوا وقد فقدوا جانباً من ايقاعهم السابق لكنهم بالتأكيد لم يفقدوا شجاعتهم واصرارهم على البدء من جديد .. يشبهون جيشاً من جنود شجعان خسروا معركة لكنهم يحاولون جمع شتاتهم المبعثرة لكسب الحرب في نهاية الأمر .

كنت متأكداً انهم سيعيدون بناء البيت من جديد وسط الانقاض والحطام واشلاء زملائهم القتلى.. سيحفرون الانفاق الطويلة داخل الأرض..سيخرجون منها مئات الآلا ف من ذرات الرمال الصغيرة الناعمـة في دأب عجيب .. يكومونها من جديد حول الفجوة الصغيرة التي سيعيدون فتحها .. سيستغرق منهم ذلك ربما ساعات أو ايام ومجهوداً صارخاً مضنياً لكنهم لن يبخلوا بشيء من أجل أن يبقوا على قيد الحياة .. في الواقع أنا لا أتنبأ بذلك .. لي تجارب سابقة معهم ومع أصناف اخرى كثيرة من الحشرات فأنا انسان تماماً شرير بالوراثة عن كل أجدادي السابقين. تلك المخلوقات غير قابلة للموت أو الهزيمة.

عندما كنت صغيراً هدمت كثيراً من أمثال هذه البيوت فوق أصحابها الصغار لمجرد الرغبة في الهدم والاستمتاع بإنسانيتي الشريرة إذ لم أكن قـد ملكت شيئاً بعد .. كنت ادخل عصا رفيعة داخل الفجوة المفتوحة ثم أنزع طبقة الأرض الموجودة فوقها ثم أمضي بعد ذلك متتبعاً السراديب الطويلة في

المنزل التي بذلت الحشرات الصغيرة جهداً خارقاً في سبيل بنائه ، لا أتوقف إلا عندما يتحول المنزل الهندسي الرائع الى خرائب مروعة وإلا بعد أن أشاهد عشرات من النمل الصغير مبعثرين حولي على الأرض مجرد أشلاء ممزقة والأحياء منهم بلا مأوي لكنهم دائماً هؤلاء الشجعان الصغار وبعد بضعة ساعات أو أيام قليلة يقضونها في العمل الشاق كانوا ينتهون من اقامة المنزل الهندسي الرائع الجديد مكان حطام المنزل السابق .. في أحيان كثيرة كنت أجد طريقة العصا تستغرق وقتاً أطول من اللازم او كنت أعتقد انها ليست حاسمة تماماً في الوصول إلى النتيجة المطلوبة وهي احداث خراب شامل للصغار التعساء الذين يوقعهم قدرهم البائس في طريقي.. كنت أصنع ما صنعته الآن .. أدوس المكان كله بقدمي وأسويه تماماً بالأرض لكنهم دائماً كانوا يخرجون من تحت الأرض من جديد ليعيدوا بناء البيت من جديد حتى للمرة المائة بحيث يتملكني اليأس المطلق تجاههم .

لا أستطيع اخفاء اعجابي بالصغار المصرين على البقاء في بسالة مدهشة لكن في اعماقي ترقد رغبة شريرة آدمية تماماً في هدم المكان فوق رؤوسهم من جديد .. ما زالت فكرة انهم يتطفلون على مكان أملكه وحدي تسيطر تماماً على مشاعري .. تدفعني إلى تكرار محاولة هدم المنزل فوق رؤوسهم العنيدة من جديد .. القضاء عليهم تماماً .. رفعت قدمي وهممت ان أهبط بها فوقهم .. شيئاً ما جمدها في الهواء .. شيء يفوق عجرفة قوتي . خيلاء فكرة الامتلاك المسيطرة على مشاعري .. يمت بصلة ما الى الشعور بالخجل.. بان جريمة قتل واحدة تكفي .. أحسست انني هتلر آخر وانني أوشك أن أدخل بضعة آلاف من الكائنات البريئة إلى أحد أفران الغاز الرهيبة .. أعدت قدمي بتخاذل شديد لتستقر الى جوار القدم الأخرى .. من أنا وبأي حق أفعل بهم ذلك .. اذا كنت أظن أنني أملك المكان لأن قصاصة ورق تقول لي ذلك فها هي الحقيقة الواقعة المؤكدة تكذبني .. تقول لي ان هذه

المخلوقات الصغيرة النشطة تملك المكان كما أملكه تماماً بل ربما أكثر مما أملكه فأنا يمكن ألا أوجد في هذا المكان في المستقبل .. يمكن أن أبيعه أو أطرد منه أو تنقرض سلالتي تماماً ويجيء أناس آخرون للسكن فيه .. لكن هذه الحشرات الصغيرة ستظل دائماً في هذا المكان هي وسلالتها من بعدها وربما للمليون سنة القادمة .. انهم غير قابلين للموت أو العزل او المصادرة .. مجرد أرقام مجهولة لا نهاية لها في سلسلة تلتف حول الأرض .

أحسست فجأة انني أضأل كثيراً ممـــا كنت أتخيل نفسي ولأول مرة شعرت ان هناك من يتحدون ملكيتي بطريقة لا قبل لي بمقاومتهـــا .. وبدأت شهيتي المفتوحة للحيـــاة تتناقص بصورة مخيفة .. العـالم يبدو لي غير مفهوم للمرة الأولى في حياتي .. أشياء كالفطر أو العفن تنمو بسرعة فوق أعصابي الحساسة التي أصابها التلف.. تصيبني بحالة ركود ولامبالاة كاملة .

صعدت النجيل الأخضر بشعور شديد بالغثيان والقرف..اشعلت سيجارة القيتها على الأرض قبل أن أفرغ منهـــا .. انتظر بلهفة شديدة سماع صوت زوجتي يدعوني الى الدخول لتناول طعام الافطار معها .. ماتت رغبتي في استمرار جولة الصباح المبكرة التي طالما انعشت خيالي وأحيت فيّ احساساً مؤكداً وعميقاً بالسعادة .

سحليتان تصطدمان بحذائي .. في حالة مطاردة سريعة لبعضهما البعض لم تعبأ بي عندما اصطدمتا بحذائي .. استمرتا في مطاردتهما المحمومة .. تصرفتا كما لو انهما تملكان المكان الذي تجريان فيه .

اختفت السحليتان خلف صف الأصص المحاذي للمشى .. احدثت سرعتهما الكبيرة وهما تعدوان فوق اوراق الشجر الجافة الساقطة على الأرض نوعاً من الضجة العالية التي نبهت حواسي بشدة .

قطة سقطت من فوق سور الفيللا إلى داخـل الحديقـة الواسعة .. مطت جسمها بصورة غريبة وهي تموء بشدة.. عيناها لامعتان.. توقفت تماماً عندما رأتني .. حدجتني بنظرة طويلة شذراء من عينيها اللامعتين ثم تابعت طريقها إلى المطبخ الكائن خلف الفيللا حيث تنبعث رائحة طعـــام نفاذه طول الوقت .. القطة تمضي تجـاه هدفها المعلوم .. لا تشعر البتة انهـا تتطفل على مكان أملكه وحدي كما يقول القانون ربمـــا تشعر في قرارة نفسها انني أنا المتطفل على مــــكان تملكه هي وسائر الكائنات الأخرى التي بدأت أحس بوجودها المكثف الحقيقي لأول مرة في حيـاتي هذا الصباح .. أشعر بمنتهى الضياع والاحساس بالتمزق بأن كل ما بنيته في حياتي هدم فجأة فوق رأسي.. عالمي القديم المتماسك يتهاوى الآن مبعثراً على الأرض مجرد حطام وانقاض .. أحس ان كل شيء دخــــل منطقة الظل لن يخرج منها ابداً .. أحس انني أفقد إنسانيتي القديمة بسرعة مذهلة وألبس مكانها إنسانية جديدة غريبة علي تمامـاً لا تمت بصلة إلى إنسانيتي القديمة .. أحس أن الحدود اختلطت وان الألوان بهتت وان العالم تحول الى دخان يطير في الهواء .. ابتهـل الى صوت زوجتي ان ينقذني من حالة الضياع التي اوجد بهــــا الآن .. لا يرد علي سوى الصمت المطبق والفراغ الرهيب .

المدعوون انصرفوا قبل لحظات قليــــلة .. لا أزال أعيش حالة سعادة رائعة .. الموائد تكومت في احد اركان الحديقة .. الأنوار أطفأت.. دخلت مع زوجتي الى الطابق الأول من الفيللا لنستريح قليلاً بحجرة المكتب قبل أن نأوي إلى فراشنا في الطابق العلوي .. وجه زوجتي الجميل يتألق في سعادة لم أراها فوقه منذ سنوات بعيدة .. ملامحها تنطق بأنوثة ناعمة في قمة تألقها .. اننا الآن نجني ثمرة كفاحنا الطويل الشاق .. وصلنا الى القمة .. الشمس بين يدينا .. عينا زوجتي قطعتان من الدفء اللامـــــع فيهما دعوة لا تخطئها عيناي .

قالت بصوت حالم منغم قبل أن تغـــادر حجرة المكتب في طريقها إلى الطابق الأعلى .. أرجوك لا تتأخر كثيراً في الصعود .. إنني في انتظارك .. كان بيدي كتاب أقرؤه .. وعدتهـا أن أصعد فور ان أفرغ من القراءة .. الحجرة تنساب فيها موسيقى حالمـة تزيد من تأجج حالة السعادة المخيفة التي تعيش بداخلي .. أحس انني وضعت الشمس في جيبي .. نسمة هواء باردة أطارت ستار باب التراس المفتوح على الشرفة الواسعة المطـلة على الحديقة .. قمت لأغلق الباب بعد أن أحسست بشيء من الرعشة .. لمحت شيئاً مخيفاً يلمع بين فروع الشجرة الضخمة المغمورة بطوفان لامع من الضوء المتدفق من باب التراس المفتوح .. تقدمت ناحية ذلك الشيء مدفوعاً بإغراء لا يقاوم رغم انني كنت أعرف ماهيته منذ البداية .. عينا ذلك المخلوق الغريب القابع في اطمئنان بين فروع الشجرة المليئـة بالأوراق والأغصان الكثيفة ينبعث منهما حنان غريب لامع .. دافيء لكن تشوبه قسوة مروعة .. قسوة زجـــاج مصقول .

أحسست بانزعاج شديد وأنا أفكر في أن هذه البومة القابعة في اطمئنان غريب بين فروع الشجرة الضخمة قد ظلت تتطفل على حيـاتي طوال الفترة السابقة وانها كان يمكن أن تظل تتطفل عليها دون أن أدري شيئـاً عنها .. وصور لي خيالي ان مخلوقات أخرى كثيرة في هذا المكان تتطفل على حيـاتي بنفس الطريقة وانني لن أتمكن أبداً من ضبطها ولم أرتح لهذا الشعور المزعج فأنا لم أنتقل من الشقة الصغيرة إلى الفيللا لتراقبني عيون أخرى غير عيون الجيران الفضوليين .. وصممت على التخلص من البومـــة ومن كل المخلوقات الأخرى المتطفلة على حياتي حتى لو اضطرت لاطلاق الرصاص عليها جميعاً .

أقتربت من البومة التي ما ان أحست بالخطر حتى أزاحت فروع الشجر الكثيفة إلى الوراء وطـــارت إلى بعيد .. سقطت فوق أرض التراس بضعة ريشات من جسم البومة الصغيرة .. أزحتها بقدمي في ازدراء قبل ان أقرر

الرجوع من جديد إلى داخل حجرة المكتب ومحاولة نسيان الأمر كله على الأقل حتى الصباح .

خاطر مزعج ما لبث ان طاف بذهني وأنا أفكر في انه لا يوجد سبب واحد يحول بين البومة المتطفلة والعودة الى مكانها من جديد في أعلى الشجرة ومراقبة حياتي كما ظلت تفعل حتى الآن .. ربما كانت لها عائلة كبيرة العدد وانها تملك أعشاشاً كثيرة في أرجـــاء متفرقة من الحديقة الواسعة .. بهذه الطريقة لن أتمكن أبداً من طرد هـــذه المخلوقات الغريبة المتطفلة وسأضطر لتحمل الاحساس الثقيل بوجودهم طول الوقت داخل كل مكان في البيت .. ربما داخل حجرة نومي نفسها .. ازداد احساساً بالضيق والتوتر ومن ثم عدت من جديد إلى داخـــل حجرة المكتب بعد أن اغلقت باب التراس المفتوح وأنزلت الستار .

استرحت نفسياً عندما بدأت أفكر في الصعود إلى الطابق الأعلى والارتماء في أحضان زوجتي الجميلة التي تنتظرني.. أغلقت نور الحجرة وهممت بالخروج من الباب .. صفير حاد متقطع يخترق سمعي منبعثاً من أحد أركان الحجرة الواسعة .. كنت أعرف ماهية ذلك الصوت .. انه أحد صراصير الحديقة الكبيرة التي اعتادت التسلل إلى داخل البيت وازعاجنا بصفيرها المتقطع الحاد طول الليل والتي كنت أضطر في مرات كثيرة الى القيـــام من النوم والقائها خارج البيت .

صممت على قتل هذا المخلوق المزعج المتطفل والقائه خارج المنزل.. فتحت نور الحجرة تقدمت ناحية الصوت لاحدد مكانه على وجه الدقة لكن الصوت توقف فجأة .. أغلقت نور الحجرة فعاد الصوت يرن في ارجائها من جديد .. بعد عدة محاولات استطعت أن احدد مكانه على وجه الدقة .. كان موجوداً تحت أحد المقـــاعد الكبيرة .. فتحت النور من جديد وتقدمت ناحيته .. رفعت المقعد الكبير ثم طرف السجادة التي يوجد تحتهـــا .. وأبصرته أمامي

بجرد صرصور كبير الحجم أسود اللون له جناحان طويـلان يحكمهما فيصدر عنهما ذلك الصفير المتقطع المزعج .

كان منكمشاً على نفسه في حالة خوف شديـد من المخلوق الضخم الواقف أمامه والذي يضمر له كثيراً من الشر .

وضعت قدمي فوق جسمه الصغير البائس وسحقته تمامـاً .. انبعثت منه خيوط هلامية بيضاء تشبه الدماء.. فتحت باب التراس والقيت به في الخارج.. أعدت اغلاق الباب من جديد .. اطفـأت نور الحجرة وصعدت إلى زوجتي الجميلة .

آخر الليل حلمت حلماً غريباً ارجع اليّ كل متاعبي هذا الصبـــاح .. كل حالة السأم والضياع التي أحسها في عالم فقد قيمته تماماً في رأيي.. مكان ما.. لا يمكن تحديد جغرافيته تماماً .. قشرة صلبة .. ماء أو طباشير .. يخيم عليه ضباب كثيف رمادي اللون يجعل الرؤية من خلاله متعذرة إلى حد بعيد .

حفلة راقصة غريبة تدور في ارجاء المكان.. مجموعة بوم ترقص في الوسط.. تدب الأرض بأقدامهـــا المغطاة بالريش الكثيف في انسياق تام مع الموسيقى الصاخبة التي تصدح في ارجاء المكان .. تدق بأجنحتهـا الطويلة المفرودة في الهواء كما لو كانت على وشك ان تطير .. عيونهـا المستديرة العميقة تلمع في الظلام . جماعة اخرى من صراصير الحديقة السوداء تقوم بدور الفرقة الموسيقية الصاخبة وهي تهز أجنحتها الطويلة ليخرج منها الصوت الحاد المتقطع .. بوم وصراصير تصفق في حماس شديد لمجموعـة الراقصين في الوسط .. هواء بارد يصفر بشدة من حولي .. احس رعشة شديـدة تسري في جسمي .. التمس الدفىء في جسم امرأتي العاري الراقد إلى جواره في الفراش والذي كان يتململ بين لحظة واخرى .. ما زالت أحس برعشة شديدة حتى الآن .

الصباح المبكر.. ادرك ان الأرض الغريبة التي دارت فوقها الحفلة الراقصة هي صدري العاري الأبيض .. رأيت اثار أقدام البوم الراقصة فوق صدري..

خدوش ودوائر متجلطة من الدم وريشات صغيرة ملتصقة بها .. حول قلبي توجد حفرة عميقة كأنها فوهة بركان قديم خامد.. مناقير البوم الحادة المقوسة استطاعت النفاذ من خـلال هذه الحفرة والوصول إلى قلبي .. اخذت تنقره بلا رحمة كما لو كانت تنقر ثمرة ناضجة ملقـاة فوق نجيل الحديقة .. ما زلت احس ألماً هائلاً في قلبي الصباح منعش بارد كالعادة ودفء الشمس التي استيقظت منذ لحظات قليلة فتـح أزاهير الحديقة وعيون العصافير النائمة لكني احس ان العالم فقد شيئاً لا يعوض من بهائه القديم .. العالم كئيب .. مغطى بالصدأ أو التراب الذي غطى العالم اثناء الليل .. الأشياء لا تساوي العرق والدم اللذان يبذلان في سبيلها .

صوت زوجتي الحالم يدعوني للدخول لتناول طعام الافطار .. استدرت عائداً إلى الفيللا وأنا احس بالملل يكاد يخنقني .. لأول مرة يبدو لي صوت زوجتي كأنه صفيح يتمزق .

توقفت إلى جوار حجرة المكتب .. دافـع يلح علي بالدخول .. فتحت درج المكتب .. اعرف تمامـاً ما اريد .. اخرجت المظروف الأصفر الكبير الذي يوجد به عقد بيع الفيللا .. اخرجت العقد من داخـل المظروف .. مضيت أتأمله بإحساس يختلف عن اي مرة سابقة فعلت فيها ذلك .. لم يعد يثيرني على الاطلاق او يبعث في داخلي تلك الموجات المتدفقة من السعـــادة والاحساس العظيم بالذات .. الصفحات تبدو لي مجرد قصـاصات لا قيمة لها من الورق.. تقول كلاماً خرافياً يكذبه الواقع .. وضعت العقد فوق المكتب بلا مبالاة ولم احرص على وضعه داخـل مظروفه الاصفر الكبير كما كنت افعـل دائماً ثم اغلق عليه درج المكتب بعنـاية شديدة .. اسرعت بمغادرة الحجرة ثم المنزل .

٥ فتى المقارنة

في اللحظة التي رفع فيها بصره في حذر شديد ليلتقي بالعينين الغريبتين الشاخصتين اليه لم يحس كالعادة بحالة الخوف الغريزية التي تنمو في داخله فجأة كنوع غريب من الفطر يتكاثر بسرعة فوق قلبــه كلما أحس عيوناً غريبة تتلصص من حوله .. تحاصره .. تصطاده كذبابة صغيرة .. العيون تمتلىء بذلك المزيج الغريب من الاحساس بالدهشة والازدراء .. العيون التي تقيس رجولته .. تعطيه قيمة أقل من غيره في عالم الرجال الأقوياء .تهين آدميته.. تسحقها تماماً .

لأول مرة يفتقد ذلك الشعور المروع بالقسوة والذي ينبعث من العيون الغريبة التي تعود رؤيتها في حياته.. حنان غريب دافىء يقاوم ذلك الشعور المفاجىء بالصدمة ينبعث من العينين الغريبتين وهما ترنوان اليــه للمرة الأولى في حياتها لكن الاطمئنان لم يداخله رغم ذلك إلى العينين الغريبتين الشاخصتين اليه .. يتصور انهما كباقي العيون تتطلعان اليه بقصد ابتذاله والاساءة اليه .. بقصد اصطياده مهما كانت كمية الفهم أو الحنان المنبعثة منهما .. هكذا عودته كل العيون التي تتطلع اليه خاصة في المرة الأولى .

على الفور وجد نفسه ينسحب بسرعة إلى داخل قوقعة الخوف الصغيرة

التي تتكون تلقائياً في داخله كرد فعل مفاجىء وعنيف لأي خطر خارجي يداهمه ثم بدأ يطل على حـذر من داخل قوقعة الخوف الصغيرة على الخـارج كأنه فأر مذعور يتحسس العالم بشواربه حتى إذا مـا اطمأن إلى عدم وجود خطر حقيقي يهدده خرج من داخل القوقعة الصغيرة وبدأ يجابه العالم الخارجي بشجاعة مؤقتة سرعان ما تتبدد عندما يدب أحدهم بقدمه إلى جواره فيعود من جديد إلى داخل قوقعة الخوف الصغيرة ليحتمي بها .

اختلس نظرة أخرى متلصصة إلى العينين الغريبتين الشاخصتين اليه.. بدأ اطمئنان حقيقي مشوب بالحذر يداخله وهو يشاهد كمية الحنان التي تتضاعف بسرعة في العينين الشاخصتين اليه .. يطمع وهو يتشرب ذلك الحنان الغريب الدافىء المنبعث من هـاتين العينين في موقف انساني مختلف عن كل المواقف التي صادفها في حياته لكنه ليس متأكداً أنه سيصادف هذا الموقف الآن .. الحياة عودته دائماً على الأسوأ .. على مفاجئات قاسية تصيبه بارتباك شديد.. في مقدور أي انسان ان يدخل شيئاً رفيعـاً جداً داخل جدران الخوف الرقيقة التي يحتمي بداخلهـا .. يشكه في جسمه العاري الذي يشبه جسم حيوان بحري دقيق الحجم يعيش تحت مياه سحيقة.. يجعله ينكمش على نفسه أكثر .. يحس بالخوف أكثر من العـالم المخيف الذي يتلاطم خارج جدران صدفته الصغيرة .

في حياته كلها لم يشعر انه ند للآخرين الذين يهزأون به طول الوقت .. يعذبونه باستمتاع شديد مذهل .. رجـل له مثل قامتهم المفرطة الطول ليس فقط لأنه ضئيل الحجم مشوه الخلقة بصورة مروعة بل لأنه يشعر في أعماقه بالضآلة امامهم .. بأن الصراع غير موجود على الاطلاق بالنسبة له او غير عادل على الأقل . يشعر بأن الهزيمة هي قدره المحتوم في الحيـاة .. عيون الآخرين تسلط عليه أشعة ساخنة تذيب جدرانـه الخارجية المصنوعة من الصفيح .. يحس انه عار أمامها .. مجرد تماماً من الحماية .. ان مصيره معلق

برغبتهم في المسالمة او الصراع لكنهم وكما عودوه دائماً يجنحون الى الصراع لأنهم متأكدون أنهم سيكسبون المعركة منذ اللحظة الأولى لبدايتها ولأن المعركة والنتيجة المروعة التي تنتهي اليها تسبب لهم سعادة تهز قلوبهم من الأعماق .

فكر كثيراً في معنى العدالة عندما يجد فأراً صغيراً مجرداً تماماً من الحماية انه محاط بمجموعة لا نهاية لها من قطط جائعة الى درجة التوحش تلتهمه في كل دقيقة من حياته وبلا سبب مفهوم من جانبه .. تذكر لحظات الهوان الشديدة التي اضطروه فيها الى ابتلاع كرامته .. إلى سف التراب الذي انكفأ بوجهه فوقه مئات المرات .. دمعت عيناه بشدة وهو يشاهد خيط الدم الرفيع المنسحب على الدوام من بوزه الصغير كبوز الفأر وهو يرسم شريطاً طويلاً دامياً وراءه أينما سار في هذا العالم .. اللحظات التي أحس فيها بأنه يريد أن يموت ليهرب من شقاء يبدو بلا نهاية .. بأنه أغرب شيء في العالم.. ان آلاف العيون التي تناصبه العداء بلا سبب مفهوم تحاصره طول الوقت كأنها تريد أن تلتهمه ليس أفظع من أن ينظر اليه الناس كشيء غريب مقزز .. أن يتفرسوا فيه إلى درجة اشعاره بمنتهى الخجل من نفسه .. في هذه اللحظات اليائسة الحزينة يحس بارتباك يشل حواسه .. يتوسل إلى تلك العيون الفظيعة أن ترحمه .. ان تنحسر عنه .. أن تدعه وشأنه ليعيش حياته في هدوء لكن العيون الفظيعة المليئة بقسوة لا حد لها وبنوع فظيع من الدهشة تظل مركزة فوقة وبتعمد حقيقي مثير للقرف لتزيد من ارتباكه واحساسه بالشلل..العيون الغريبة لا تفصح عما تريده منه .. لا تتكلم لغة يفهمها تظل فقط مسلطة عليه كأنها لعنة أبدية .

الاحداث القريبة تضغط فوق صدره بشدة .. تجعله يكاد يجهش بالبكاء.. منذ زمن بعيد جداً يريد أن يجهش بالبكاء ليغسل قلبه من الأحزان التي تعيش

فيه لكن الأحزان تتزايد دائماً في قلبه لأن الدموع لا تسقط أبداً من عينيه.. الدموع حبات من الحصى الرفيع جداً أو بلورات دقيقة من الملح لا تسقط أبداً من عينيه .

يفكر في صديقه الوسيم الذي غادر المرسم قبل لحظات تاركاً إياه فريسة لعينين غريبتين تفعلان به ما يحلو لهما .. انفجرت ثمرة الكراهية المرة في قلبه .. سرت المرارة الشديدة مع الدم إلى نقاطه البعيدة فأحرقتها .. يريد أن يفجر في قلب صديقه الذي لم يعرف العذاب طول حياته نفس ثمرة الكراهية المرة التي انفجرت في داخله .

صديقه الآن واقف أمام محطة الاوتوبيس يثرثر مع المرأة التي سبقته إلى الخروج من المرسم .. بالتأكيد فانه سيكون موضع تندرهما .. المرأة الحمقاء الغريزية الملامح ستسأله وهي تضحك حتى تكاد تنفجر من الضحك عن السر الغريب في مصاحبته لهذا الانسان المضحك .. كيف يمكن أن تجمع الصداقة بينه وبين نقيضه تماماً .

سيجيبها الوغد الوسيم وهو يبتسم ابتسامته الساخرة .. ابتسامته الشريرة القادرة على إطفاء رنة صدق مزيف على كلامه بأنه يشفق عليه فحسب .. يرثي له .. القزم في حاجة إلي صدقيني وأنا لا أخسر شيئاً عندما أقدم له صداقتي ثم لا تنسى انني الانسان الوحيد في هذا العالم الذي يرضى أن يصاحبه .

سيشعر أمامها بأنه بطل حقيقي .. انسان تماماً وستزداد سمك طبقة الغرور فوق وجهه وسيمتلىء باحساس مبالغ فيه بالثقة بنفسه وستتسع ابتسامته الطفولية الشريرة التي ترتسم دائماً فوق وجهه كأنها جزء من ملامحه والتي تحمل قدرا من السم بمثل اتساعها عندما يرى المرأة تصدق ما يقوله

لها .. يعرف بينه وبين نفسه انه يكذب على المـــرأة .. المرأة على الأرجح تعرف انه يكذب عليها .. لكن هذا ليس هاماً في شيء فالمرأة ستصدقه حتى لو أيقنت انه يكذب عليها .. العالم كله يصدقه حتى لو أيقن انه يكذب عليه .. هذه احدى ميزات الوسامة الشديدة .. أن يصدقك كل الناس بينما أنت تكذب عليهم أما هو الانسان القبيح المكروه من كل الناس فان احداً لن يصدقه حتى لو قال الصدق.. انه متهم من كل الناس بالكذب.. مشكوك فيه دائماً لأنه غريب وقبيح .

بلورات الملح تذوب في دمه .. أقصى درجات الكراهية لصديقه الوسيم الذي يستمتع وحده بكل الأشياء المبهجة في العـــالم .. لأنه لا يبالي البتة بمشاعره كإنسان من حقه ان يعيش ويستمتع كالآخرين .. لأن نظراته اليه مصنوعة من زجاج شفاف عاجزة عن فهم حاجاته العميقة كإنسان .. لأنه لا يرد أن يتعمق أكثر .. لأنه عاجز من أن يتعمق أكثر .. أن يفهم أكثر .. الاذلال له والمجد لصديقه الوسيم .

يقولون عن هذا العالم رغم ذلك أنه عـــادل ورحيم وان الناس بسطاء متسامحون .. هؤلاء الناس الطيبون لديهم القدرة الفائقة على تبرير كل جرائم العـالم الوحشية .. بالذات جريمة قتـــل معنويات انسان من حقه أن يعيش كالآخرين .. عندما يعجزون عن اقناعك بمنطقهم المتخاذل الشرير يقولون لك ببساطة شديدة مقززة نصيبك ستناله في العالم الآخر حيث كل انهـار العسل واللبن وحيث تستلقي هناك حول شطآنها الدافئة كل حثالة الأرض المنكوبة التي لم تنل حقها في الحياة .

تنتابه رغبة هـائلة في الضحك .. بغريزته .. بتلقائيته يتجهم أكثر .. عينان غريبتان تحصيان عليه حركاته وسكناته .. تكونان انطباعاً مؤقتـاً عنه .. حتى أفكاره الداخلية يمكن أن تحصيها عليه .

صديقه الوسيم لن يقول المرأة التي تقف معه الآن أمـام محطة الأوتوبيس كيف يستغله بوقاحة نادرة لتحقيق مآربه الخاصة .. يستنزفه إلى آخر قطرة فيه .. كل الناس يفعلون ذلك .. يتغذى على رحيقه الداخلي المحدود كأنه حشرة سامة تعيش على حسابه .. على حبوب اللقاح والتذكير فيه .. يتركه مجدباً فقيراً كأن إنساناً مصه .. انه بالتأكيد لا يجد دفاعاً فعالاً ضد هـذه الحشرة السامة التي تقف فوق رأسه وتمتص حيويته .. يستسلم لها في قدرية غريبة .

صديقه الوسيم يأتي كل صباح فيقفز ورائـه ببساطة شديدة فوق دراجته البخارية الصغيرة التي تحملهما معاً إلى الجامعة ثم تعود بهما بعد انتهاء الدراسة .. يفعل ذلك ببساطة شديدة كأنه يمارس حقـاً خالصاً له .. كأنه يتفضل بهذا الصنيع الرخيص المتطفل على صديقه القزم الذي لا يستطيع أن يقول له لا تفعل ذلك أو لا تفعله بهذه الطريقة .

الناس تتفرس فيهما بوقاحة غريبة .. تتفرس فيه هو على وجه الخصوص .. تعقد مقارنة غريبة بين تناقضهما الصارخ .. يحس بمنتهى الخجـل من نفسه .. صديقه يمتلىء بأقصى درجات الزهو .. يتمنى لو تطول هذه اللحظات ليستمتع أكثر .. ليست هذه سوى الجوانب الظاهرة من جبل الحقيقة العائم فوق الماء .. الجانب الغارق تحت الأمواج وهو أكثر خطورة وبعثـــاً للألم في نفسه فان صديقه الوسيم لن يبوح به لأحد على الاطلاق .. صديقه الوسيم يحس نشوة من الأعماق عندما تمتلىء العيون المتفرسة فيهما بأقصى درجات الاستغراب والدهشة .. يحس في تلك اللحظات الغريبة بنعمة التفوق الصارخ على صديقه القزم .. بأنه ولد لمجرد الصدفة الحسنة وسيماً وان عليه أن يستغل هذه الميزة حتى لو سحق آدميته وحقه المشروع البسيط في السعـادة .. كلاهما يعلم بالتأكيد عن هذه الرابطة غير المرئية بينهما .. كلاهما لا يبوح بما يشعر به للآخر .. تظل هذه الرابطة الغريبة تثقل على صداقتهما كنوع من الاثم الصامت الحزين .

النار تشتعل في كومة القش الموجودة داخـل صدره المنبعج الصغير الذي يمتلىء بدخان أسود يصل إلى حلقه فيخنقه .. عيناه تمتلئان بالدموع .. يجاهد حتى لا تظهر مشاعره الحقيقية أمام الرجـل الغريب الذي ما زال ينظر اليه بشيء من الدهشة والاستغراب في الدقائق الاولى للمقابلة وان كان يحاول جاهداً اخفاء مشاعره الحقيقية عنه حتى لا يجرح مشاعره .. أصابعه القصيرة الملتوية المليئة بالعقد تتقلص بشعور حاد بالكراهيـة .. تزحف كثعابين صغيرة فوق عنق صديقه الضخم القوي لتقتل فيه كل أثر للحياة .

واقفان أمام باب المرسم المغلق.. صديقه يضغط جرس الباب بخفة ومرح.. استهتار حقيقي مدهش .. ابتسامة عريضة تملأ وجهه .. تزيده وسامة .. لا يحمل هماً لشيء على الاطلاق فقد ولد في الجانب المضيء الباسم من الحيـاة .. يحس احساساً حقيقياً بالسعـادة .. بالانتماء للعالم الذي يموج من حوله .. هو يشعر بنفس الاحساس التقليدي بالخوف والتعاسة.. بعدم الانتماء لعالم يكرهه.. يعامله كأغرب شيء في العالم .. يحس أنه الثور التقليدي الذي يحمـل العالم فوق قرنه المدبب .. العـالم المليء بالمتفجرات .. يخشى أن يسقط العـالم على الأرض وينفجر في لحظة .

خطوات الرجل تقترب من الباب المغلق .. تتزايد مع الوقت .. يسمعها باذنيه المرهفتـين .. كل شيء فيه يضطرب فجـأة .. ضربات قلبه تعلو عن معدلها الطبيعي .. عرق لزج يتصبب فوق كل مكان من جسمه المنبعج الصغير خاصة جبهته الطينية المرتفعة عن باقي مستوى وجهـه الغريب .. يفكر في تأثير ذلك الوجه المضحك على الرجل الذي سيفتح لهما الباب بين لحظة واخرى ليفاجأ بـه واقفـاً أمامه .. صورة مروعة للقبح والبشاعـة .. لا شك أنه سيصاب بصدمة مروعة .. كل الناس يحدث لهم ذلك عندما يفاجئون برؤيته أمامهم للمرة الاولى .. يتظاهرون بحدوثه لهم للمرة المائة أو الألف .

وجهه الغريب المضحك يستفز مشاعر الغضب في داخلهم .. يسحبونه بسرعة من داخل قوقعته الصغيرة .. يمزقون لحمه الحي بالعصا الرفيعة التي يغزونها في لحمه الطري الأملس.. يفعلون ذلك بتلذذ دموي غريب.. باحساس حقيقي بالانتقام والمتعة .

يستطيع كل انسان أن يسلخ جلده.. أن يبصق في أحشائه أو فوق وجهه دون أن يخشى خطر أن يرد هذا الانسان عليه فهو انسان عاجز عن الرد .

توقع رغم ذلك سلوكاً مختلفاً من الرجل الذي يوشك أن يفتح لهما الباب بين لحظة واخرى .. هذا الرجل فنان .. هذا الرجل مختلف .. لكن ما الذي يمنع حقيقة أن يتحول الفنان إلى وحش دموي غريب وهذا الاستفزاز العنيف يطل عليه من وجهه المروع الغريب الملامح .. الوجه الذي يندر أن يتكرر.. رجال مهذبون أو المفروض أنهم مهذبون انفجروا في وجهه ضاحكين أو صائحين في صخب مجنون أو سبوه سباباً فاحشاً عندما رأوا وجهه للمرة الاولى في حياتهم .. يشعر رغم ذلك أو يتمنى بشعور داخلي لا يكذب أن سلوك الرجل معه سيكون مختلفاً عن سلوك الآخرين .

لم يخب ظنه كثيراً فالوجه الذي أطل عليه من فرجة الباب ورغم الدهشة المؤقتة التي بد عليها في اللحظات الاولى تبدو عليه ملامح طيبة مؤكدة .. عيناه تخلوان من ذلك البريق الضاحك الذي يلمع دائماً في عيون الآخرين .. عينان حنونتان تبعثان بدفء طيب إلى قلبه .. بسكينة إلى مشاعره.. أنزل العالم بسلام من فوق قرنه المدبب ووضعه على الأرض .

فتح لهما الرجل الباب ودعاهما للدخول إلى المرسم .. المكان يخيم عليه هدوء مشوب بالتوتر .. الهدوء انفجر فجأة وبدأت جحافل من النمل الأسود تزحف بسرعة على قلبه .

فوق أحد المقاعد الموجودة بالمرسم توجد قنبلة زمنية لم يشك لحظة واحدة في أنها ستنفجر في وجهه بمجرد ان يوجد أمامها.. تأكد من ذلك وهو يشاهد كمية العدوان الهائلة التي تطل من وجه يدعو إلى الابتذال الشديد .

عينا المرأة الشديدتا الضحالة تحاصرانه بطريقة لا تدع له مجالاً للهروب من أمامها .. تمضغانه وتبصقانه على الأرض .. تسببان له احساساً هائلاً بالمهانة والتأكد من الهزيمة .

أمام العينين المتفرستين فيه بإصرار مذهل يقف مسمراً منوماً كجرذ مخدر وعاجز عن الحركة .. يتقدم بطريقة لاإرادية من عيني القطة المتوحشة لكي تلتهمانه .

وقف أمام المرأة وهو يشعر بخوف شديد .. أحس انه سحب الفتيل من القنبلة الزمنية لتصبح معدة للانفجار في أي وقت من الآن .
دوت في أرجاء المرسم ضحكة المرأة التي تشبه لوحاً من الزجاج سقط على الأرض وأحدث دوياً مزعجا في سكون المرسم في نفس اللحظة التي مد فيها القزم يده الصغيرة الملتوية ليصافحها في خوف مذعور بينما هي تلمس أصابعه الممدودة اليها بازدراء تام .

هذه المرأة تقف الآن مع صديقه الوسيم أمام محطة الأوتوبيس تسأله بنوع من الغباء الضاحك عن الأعجوبة التي أحضرها معه إلى المرسم .. سيصبح مثار تندرهما .. تعليقاتها السخيفة .. ضحكاتها العالية .. سيصبح نقطة البدء والنهاية في كل حوار بينهما .. مادة جيدة التوصيل للحرارة بين قلبيهما .

الصمغ الذي يلصق أجزائه الملحومة يوشك أن يسيح .. يبذل مجهوداً أكبر لكي يتماسك أمام عيني الرجل الغريب الجالس أمامه والذي يريد أن يؤكد له أنه رجل مثله رغم مظهره الذي يوحي بالضعف الشديد .

قبل أن تنصرف المرأة من المرسم وجهت نظرة ذات مغزى إلى صديقه الوسيم انصرف على أثرها بعد أن اخترع عذراً لم يقتنع به الرجلان اللذان حدجاه بنظرة استهجان لم يعبأ بها .. تركهما وحدهما ليواجها المهمة الشاقة .. مهمة التعارف الحقيقي بينهما .

جو من التوتر يخيم على الرجلين الذين لم يكن احدهما قد قـدم للآخر بطريقة مناسبة بل اكتفى صديقه بأن قدم كلا منهما الى الآخر باسمه فقط .

الوضع في المرسم .. رجلان غريبان يجلسان في مواجهة بعضهما البعض في حالة تحفز واستكشاف متبادل .. يزمعـان انشاء علاقة ما .. يرجوان أن تكون علاقة طيبة .. البداية ينبغي أن تكون حسنة لتصبح العلاقة طيبة .. ينبغي أن يفهم كل منهما الآخر تمامـاً ويقدر ظروفه .. ابتسم صاحب العينين المدهوشتين بعض الشيء وهو يوجه الخطاب إلى الرجل الخائف الجالس أمامه ..

هل تدخن أجاب قائلاً .. كلا انني لا أدخن .

إذن هل تريد زجاجة كوكا كولا مثلجة ؟

إذا كان ممكناً .

حسناً سأقوم لأحضر لك واحدة ولي أيضاً فانني أشعر بالظمأ الشديد .. الجو حار أليس كذلك ؟ .. ثم قام الى الثلاجـة الصغيرة الموضوعة في أحد جوانب المرسم وأحضر زجاجتي كوكا كولا ثم مضى يتأمـل ضيفه الصغير الغريب وهو يشرب جرعات من السائل البارد وقد بدأ الهدوء يعود اليه من جديد وقطرات العرق الباردة تجف من فوق وجهه الطيني الغريب الملامح بينما عيناه تلمعان بشعاع دافىء ينبعث من أعماقه البعيدة .

للوهلة الأولى أدرك أنه أمام انسان محطم تماماً .. انسان خلق ليتعذب حتى الموت .. لا يصادفه المرء كثيراً في الحياة .. خيل اليه أن هذا الانسان ملحوم في أكثر من مكان لأن به عديداً من الشروخ وأنه يمكن أن يتفسخ بين أصابعه بسهولة شديدة إذا لم يمسكه بحذر تام لكنه لم يستطع للحظة خاطفة أن يقاوم رغبة شريرة آثمة في أن يضحك من هـذا الانسان الغريب الملامح كأي رجل آخر في العالم .. هذه الرغبة التي لا يمكن مقاومتها .. الانسانية تمامـــا .

بذل جهداً خارقاً لوئد هذه الرغبة قبل أن تتحول الى حقيقة واقعة .. كان لا يريد حتى أن تظهر ابتسامة خافتة فوق شفتيه تؤذي مشاعر ضيفه إذ كان حريصاً تماماً على أن يبدأ على علاقة طيبة مع الانسان المسكين الجالس أمامه .. كان عليه أن يكسب ثقته أولاً بعدم إيذاء مشاعره أو إشعاره أنه ينظر اليه على أنه رجل مختلف عن الآخرين .

بينه وبين نفسه كان يشعر فعلاً أنـه رجل مختلف عن الآخرين .. يصلح أن يكون موضوعاً للوحة سريالية لبيكاسو أو سلفادور دالي .. العينان مكان الأذنين .. الأنف مكان الفم الواسع جداً .. النحيف جداً .. بلا رقبة تحمل رأسه الضخمة كأنهـــا كرة منفوخة بالهواء .. جبهته الطينية العريضة بارزة بروزاً مخيفـاً الى الأمام .. تملؤهـا خطوط عميقة مستعرضة كأنهـا نوع من الأخاديد خاصة عندمـا يتجهم وجهه وهو يبدو متجهماً أو هـكذا يتصور الآخرون .

رأسه المنكسة الى الأرض في خوف حقيقي مزمن وشعور بالعار والمهانة تشبه ثمرة كمثري ضخمة مقلوبة ومرتكزة بسنهـا فوق عنقه القصير المكتنز والمليء بالعقد .. مثال للبشاعة والقبح .. أعجوبـة إنسانية فذة .. لا يملك

الانسان أمامها إذا كان لا يريد أن يجرح مشاعره وهذا الانسان نادر جدا في حياته إلا أن يبذل جهداً خارقاً لوقف موجة الضحك المجنونة المنبعثة من داخله في صورة اجتياح عنيف تريد أن تنطلق من فمه على هيئة انفجار مروع ومخيف .

عيناه تمرتا بطاطس جاحظتان بصورة مخيفة للأمام.. محمرتان على الدوام.. بياضهما غريب يشوبه اصفرار باهت مقزز كاصفرار عيون الموتى خاصة عندما يوجه بصره بطريقته الجانبية المثيرة للضحك وهو دائماً بخوفه من مواجهة عيون الآخرين يفعل ذلك .. طوله لا يزيد كثيراً عن طول المقعد الصغير الذي يجلس فوقه .. قدماه بالكاد تلامسان الأرض رغم المجهود المضني الذي يبذله .. ساقاه وذراعاه قصيرة ملتوية بصورة منفرة تماماً وباعثة على الضحك .

أحس بإشفاق على هذا الانسان الغريب الذي تخيل أنه لا بد ويعيش حياة مخيفة تماماً .. صمم على ألا يسمح لأصابعه المدربة على العنف والقسوة كأي انسان آخر أن تفسخ هذا الانسان المصنوع من أرق أنواع الخزف .. في داخله دم أسود مخنوق يمكن أن يسيح على الأرض ويلطخ الجدران .

المشكلة التي عليه أن يحلها الآن هي كيف يقنع ضيفه الصغير أنه إنسان يختلف عن كل الآخرين الذين صادفهم في حياته وأنه يود من أعماقه أن يشاركه العبء الثقيل الذي ينوء به وحده .. ترى ما الذي يمكن أن يكون قد دفع بهذا الانسان الى المجيء اليه .. إنه لا يدري شيئاً عن ذلك لكن هذا الانسان يدري بالتأكيد ولا ريب أن له دوافعه الخاصة في المجيء اليه .

قرر هذا الانسان الضائع أن يبحث عن نفسه في اتجاهات مختلفة يائسة..

أن يسير وراء مشاعره الخاصـة في أي طريق يمكن أن تؤدي به للعثور على ذاته المفقودة .. جرب أشياء كثيرة تدور كلها حول بحثه الدائب عن ذاته .. عن إحساسه بالكرامة .. في كل مرة كان يعود بخيبة أمل فظيعة .. يريد أن يثبت للآخرين الذين يعاملونه كنفاية حقيرة أنه ليس ذلك القزم المنفر الذي يصرون على رؤيته .. في داخله انسان آخر مختلف تماماً يملـك قدرات هائلة تفوق كثيراً حجمه المرسوم في مخيلتهم .

لم يبق أمامه سوى الرسم كطريق أخير للعثور على ذاتـــه المفقودة .. لاكتساب احترام الناس وثقتهم به .

أخيراً ها هو جالس أمام الرجل الذي باستطاعتـه أن يساعده في تحقيق هذه الرغبة .

صفحات كثيرة تملأ درج مكتبه .. أيامه كلهـا .. تعاسته .. ذكرياتـه الأليمة تضمها تلك الصفحات الملونة التي لا يدري ماذا يصنع بها بعد أن ردوها اليه .. كانوا دائمة يبعثون اليه بردود مثبطـة للهمة .. قاتلة للانسانية هذا إذا ردوا عليه على الاطلاق فهم في معظم الوقت كانوا لا يكلفون أنفسهم عناء الرد عليه .

الصفحات تزيد في درج مكتبه يوماً بعد يوم .. تزيد من احساسه الشديد باليأس .. الأعمدة الطويلة في الصحف تفيض بطوفـان من كلمات رخيصة لا يخجل أصحابها من نشرها على الناس .

حاول أن يجرب طريقاً آخر .. لماذا لا يصبح عازفاً على البيانو .. راقت له الفكرة كثيراً فهو منذ أن كان صغيراً يحس بدافع قوي إلى أن يجلس إلى البيانو القديم في البيت ويحاول أن يخرج أنغاماً جميلة بفطرتـه وحدها .. كل ما يحتاجه لـكي يصبح عازفاً على البيانو أن يضيف إلى هذه الموهبـة الفطرية بعض الدروس الخاصة في العزف .

قرر أن يبدأ الخطوة الاولى التي احتاجت منه إلى شجاعـة كبيرة فهو لم يكن واثقاً من نفسه ومن قدرته على النجاح في هذا المجال الصعب الذي اختاره لنفسه ثم ماذا يستطيع أن يحقق في هذا المجال سوى مجرد أن يصبح واحداً من المغمورين .. لكن هذا لم يثبط همته بل على العكس حفزها لمواجهة التحدي الذي ينتظره .

أخذ يبحث عن أحد أساتذة البيانو ثم قرر الذهـــاب لمقابلته .. هناك اصيب بصدمة لم يفق منها حتى الآن .. انها أحد الأمراض المزمنة التي تصيبه بنوبات حادة بصفة دائمة .

كان يتصور أنه ما دام قادراً على اخراج تلك النغمات البسيطـة بفطرته فان بامكانـه أن يصبح عازفاً حقيقياً على البيـانو أو ان بامكانه أن يؤلف له لكنه أفاق في بيت مدرس البيانو على صدمة مروعة أفاقته من أحلامه الجميلة إلى الأبد .

وضعه المدرس الملعون بقسوة فظيعة أمام حقيقة عجزة الجسماني الصارخ.. وجه اليه هذا الرجل المغرور الأحمق اهانة بالغة منذ اللحظة الاولى التي أبصره فيهـا .. منذ الوهلة الاولى تكهرب الجو بينهما .. أصبـح نوعاً من التحدي الصارخ وحجمه الضئيل يرتسم فوق مقلتي مدرس البيـانو والابتسامة الوقحة التقليدية تتربـع في تحد فوق جانب من شفتيه الصامتة باحساس عميق بالازدراء والكراهية ترتسم فوق ملامح وجهـه التي تحولت إلى نوع صارخ من الضحك المكتوم اصابه في الصميم .

لن يمكنك أن تعزف على البيـانو مهما حاولت .. انظر إن يديك أقصر كثيراً من اللازم ثم أصابعك انها فظيعـــة جداً .. قل لي هل سبق لك أن أصبت بشلل الأطفال .. ثم انك قصير جداً لن تستطيع أن تصل إلى بدال البيانو .. فكر في الأمر.. وامتلأ وجه مدرس البيانو من جديد بتلك الابتسامة المتحدية الوقحة التي تعذب انسانيته .

أمام العدوانية السافرة لمدرس البيانو الأحمق.. الاستهزاء المتعمد به كانسان له قدرات خاصة متفوقة فانه أراد أن يثبت له أنه مخطىء تماماً في تصوره.. أصر بعناد وتحدى على تلقي دروس البيانو .. أحمق مليء بكبرياء عنيدة ستجر عليه متاعب لا حصر لها.. انتهز مدرس البيانو الفرصة السانحة أمامه ليصيده كحشرة صغيرة .. طلب منه أن يغطي أوكتافا بأكمله بأصابع يده القصيرة الملتوية وهو يعلم بالتأكيد أنه سيعجز عن ذلك .

طلب منه أن يقوم بهذا العمل الصعب ليشعره بالعجز المطلق أمامه .. لينتصر عليه بضربة قاضية واحدة وبرغم أنه كان يعلم مسبقاً بانتصاره الساحق على خصمه الضئيل الحجم فان ذلك لم يمنعه من الشعور بنشوة عظيمة ملأت قلبه الصغير .. نشوة التلذذ بتعذيب وامتهان آدمية انسان عاجز عن الدفاع عن نفسه .

نكس بصره إلى الأرض بشعور هزيمة مروعة .. لم يجد في نفسه أي رغبة في الدخول في معركة ميئوس منها تماماً .. عيناه ممتلئتان بزجاج مجروش .. كل ما يريده الآن هو أن يهرب من وجه مدرس البيانو الأحمق الذي تحول إلى فاجعة وإلى أبعد مكان ممكن .. ولم يعد يخطر بباله قط بعد ذلك أن يصبح عازفاً على البيانو .

حسناً الآن أرجو أن تخبرني بكل شيء عن هوايتك للرسم .. متى بدأت ترسم .. كل شيء .

انبعثت في داخله على الفور حالة الخوف الغريزية وهو يفكر في احتمال أن تتكرر مأساة مدرس البيانو للمرة الثانية عندما يضطر لإخبار الرجل بالحقيقة المرة وهي أنه لم يرسم بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة وان كل ما فعله هو مجرد وضع خطوط لا قيمة لها فوق صفحات تنتهي دائماً إلى سلة المهملات .

قرر بينه وبين نفسه أن يقول الصدق حتى لو كلفه ذلك ان يطرد من المرسم .. انه انسان ليس بمقدوره ان يكذب حتى من أجل بضعة دروس رسم لعينة .. يؤمن ان الصدق أقرب طريق إلىالكارثة ورغم ذلك يسلكه .

وضع الاستاذ يده بحنان بالغ فوق الكتف المقوسة المليئة بالرعب الجالسة امامه ليبعث فيها شيئاً من الاطمئنان اليه والوثوق به .. ابتسم في حنان قائلاً .. يمكننا ان نبدأ الطريق من اوله على اي الأحوال .. لكن لا بد ان تكون لديك الرغبة الأكيدة لتعلم الرسم وقبل كل شيء الموهبة اللازمة لذلك.. صمت قليلاً قبل ان يردف قائلاً .. دعني أولاً اسألك سؤالاً واحداً ارجو ان تجيبني عليه بصراحة تامة.. ما الذي جعلك تفكر في الرسم على وجه التحديد.

تردد القزم للمرة الثانية في الاجابة على سؤال راوده شك في أنه ربما يكون فخاً منصوباً لاقتناصه.. لم يدم تردده أكثر من ثوان قليلة أردف بعدها قائلاً بلهجة حاول ان تكون جادة تماماً ليقتنع بها الرجل الذي وجه اليه هذا السؤال المفاجىء.. الحقيقة لا أعرف يا سيدي.. لكني متأكد من انني أحب الرسم ولو لم أكن متأكداً لما أتيت إلى هذا المكان .

حسناً المهم أن تحب الرسم لتستطيع أن تحقق فيه نجاحاً مذكوراً .

إذن هل ستوافق على أعطائي دروساً خاصة في الرسم يا سيدي .

أرجو أن تتمهل قليلاً وسأخبرك في الوقت المناسب .

ثم طلب من ضيفه الصغير أن يقوم معه ليريه اللوحات الموجودة بالمرسم.. اللوحات تملأ كل مكان داخل المرسم .. معلقة فوق الحوائط أو ملقاة على الأرض في اهمال .. معظمها انتهى منها الاستاذ وان كان البعض لا يزال مجرد خطوط وألوان ينقصها الكثير لتصبح لوحات .. في الوسط لوحة المرأة التي غادرت المرسم معلقة فوق حامل من الخشب .. أشار لها الاستاذ بفخر شديد

وهو يوجه سؤالاً إلى ضيفه الصغير عن رأيه فيهـــا ولم ينتظر الاستاذ سماع اجابة القزم عن سؤاله كأنه كان متأكداً ان اللوحة ستروق له .

تجاوزها الى اللوحات الأخرى وهو يحس انه إله صغير خلق كل هـــذا الجمال والشخصيات النابضة بالحياة وحده وانه يستحق الثناء من أجل ذلك .

بعد أن فرغ من الجـولة السريعة بين لوحـات المرسم وبعد ان دار حوار بينهما حول بعضهـا قال الاستاذ موجهـاً كلامه إلى ضيفه الصغير .. يبدو لي انك لن تصبح تلميذاً فاشلاً بحال .. لقد توقفت أمام اللوحات الأحسن في المرسم .. بشيء من الجد يمكنك أن تصبح فناناً ذا قيمة .

أشكرك يا سيدي .. قالهـا ببرود شديد دهش له الاستاذ الذي أسرع قائلاً .. من طريقة كلامك يخـل إلي انك لست معنياً بمـا فيه الكفاية لما قلته لك الآن .

على العكس يا سيدي ان ذلك يعنيني تماماً .. كل ما في الأمر انني لا أجد جدوى في أن أصبح فناناً شهيراً كما تقول .

الاستاذ بدهشة .. لا أعتقد انني أفهمـــك .. هل يمكنك ان توضح كلامك أكثر .

تقلص وجه القزم بشدة وظهرت فوق جبهته الطينية تلك الأخـــاديد العميقة المليئة الماء المظلم الذي لا يرى فيه شيء على الاطلاق .. أعني يا سيدي انني لن أصبح أبداً مثلهم حتى لو أصبحت فناناً شهيراً كما تقول .. انهم لن يسمحوا لي ابداً بذلك .. هل تدرك معنى ما أقول يا سيدي .. ليس تماماً .. لكن أرجوك ان تتكلم .. أن تفصح عن كل ما يضايقك .. انني أستطيع أن أفهم .. تأكد من ذلك .

حسناً .. هل تعــلم يا سيدي انهم سيظلون ينظرون إلي ككائن غريب ليس من حقه أن يتساوى معهم حتى لو أصبح فناناً شهيراً .. انني أحس دائماً انني أدور في حلقة مفرغة .. الناس جميعاً يسيرون في خطوط مستقيمة تدفع بهم إلى الأمام وانا أبدأ من نقطة لا أعود فأنتهي اليها .. انني لا أكبر أبداً يا سيدي .. سأظل دائماً صغيراً في نظرهم مهما فعلت وسيظل في مقدور أي واحد منهم أن يعذبني .. أن يمتهن آدميتي في أي وقت يريــد ذلك .. هل فهمت ما أعنيه يا سيدي .

إلى حد مــا .. لكن ألا تعتقد ان نظرة الناس لــك يمكن أن تتغير إذا أثبت جدارة أو تفوقاً من نوع ما .. أعني ان كثيرين في مثل حالتك فعلوا ذلك من قبل واكتسبوا احترام الناس وتقديرهم .

لا أعتقد ان ذلــك صحيح كلية يا سيدي .. أعني ان نظرة الناس يمكن أن تتغير جزئياً وليس تماماً إذ سيظل دائماً في مقدور أي واحد منهم أن يسيء إلى الفنان الشهير المشوه الخلقة متى أراد ذلك وبمنتهى البساطة.. يكفي فقط أن يبتسم في وجهه .. أعني ان تصورهم له كإنسان مشوه قبيح الخلقة سيظل هو التصور الأعمق والمستتر خلف المظــاهر السطحية لتكريمــه .. ما فائدة الشهرة إذا كان الإنسان لا يستطيـع ان يحصـــل على احترام الناس وتقديرهم له أو حب امرأة جميلة .. ما فائدة الشهرة إذن يا سيدي .

لكن ألا تعتقد انك متشائم أكثر مما ينبغي .

كلا يا سيدي بل أنا واقعي تماماً .. ان الغرابة هي عالمي الذي أعرفه أكثر من أي إنسان آخر في العالم وهم يصرون دائماً على تأكيد هذا الاحساس في داخلي عندما يصرون على معاملتي بطريقة مختلفة تماماً .. ثم قد تقول يا سيدي ان الطبيعة دائماً عادلة ورحيمة أعني انها في نفس الوقت الذي حرمتني

فيه من الوسامة منحتني مميزات أخرى على سبيل التعويض.. ربما يكون هذا صحيحاً بصفة مطلقة أعني ان هناك أناساً ليسوا فقط محرومين من الجمال لكنهم محرومون في نفس الوقت من أية ميزة أخرى على سبيل التعويض .. الأمر كله متعلق بمجموعة من الصدف التي لا يمكن أن تكون كلها سعيدة وحسنة الطالع .. فأنت لا يمكن أن تفترض عقلانية أو مثالية الطبيعة لأنها هذا يقتضيك بالضرورة أن تسلم بمثالية الحياة وهذه نتيجة أشك انك تؤمن بها يا سيدي .. الأفظع من ذلك انك لا تستطيع أن تتخلص من مشكلة من هذا النوع فالذين ضنت عليهم الطبيعة بالجمال ليسوا أمتاراً من النسيج التالف يمكن ببساطة أن تلقي بها بعيداً .. إن المجتمع مضطر دائماً لقبولهم ضمن اطار حياته المألوفة رافضاً لهم في نفس الوقت وهنا تبلغ المأساة ذروتها .

أحس انه عرّى نفسه تماماً أمام رجل غريب يراه للمرة الأولى في حياته وانتابه احساس شديد بالخجل لكن الغريب في الأمر انه أحس راحة شديدة لأنه تكلم مع هذا الرجل الغريب .. كان يريد دائماً أن يتكلم معه أحد ما.. أن يضع الناس أمام أنانيتهم وانسانيتهم المزيفة وها هي الفرصة قد سنحت أخيراً لذلك لكنه أحس فجأة بعدم قدرته على البقاء عارياً أمام رجل غريب يراه المرة الأولى في حياته .. استأذن في الانصراف على أن يعود في وقت آخر وسمح له الاستاذ بذلك .

غادر القزم المرسم لكن كلماته كانت ما تزال تدوي داخل جدرانه الأربعة .. تسبب حيرة مؤلمة لهذا الرجل القوي الواثق من نفسه الذي لم يشعر أبداً أنه توجد معضلة في هذا العالم لا يمكنه حلها .. الرجل الذي كان يظن انه يعرف كل تعاسات البشر وآلامهم المزمنة .. كان يقول لنفسه هذا رجل جائع أو مريض أو فقير أو عجوز لكنه لم يقل أبداً هذا رجل قبيح أو مشوه الخلقة ولم يشعر أبداً في حياته بالرثاء لهذا النوع التعس من الناس لأن العالم المتعجرف الذي استمد منه قيمه وتجاربه الانسانية لم يقل له ذلك .

بدأت مفاهيم الاستاذ عن العالم الطيب العادل الرحيم الذي يعيش فيه تتساقط كأوراق خريف ميتة .. مفاهيمه عن العدالة التي لا تخطيء أبداً .. لم يتصور الاستاذ المثالي الحالم في الحياة يمكن أن تتركز في شعاع من الرعب يخترق قلب إنسان ليحول حياته إلى موت بطيء دائم .. لم يتصور ان الناس يمكن أن يصبحوا حقراء إلى درجة سلب الآدمية من إنسان كل جريمته أنه ولد مختلفاً عن الآخرين . وأن يعاقبوه على جريمة لم يرتكبها بهذه القسوة الدائمة المروعة .

تساؤلات القزم العميقة .. احساسه الدائم بالظلم كلها تضع أصابع من الديناميت تحت حصونه المشيدة القوية التي طالما اطمأن إلى متانتها وتفجرها في الهواء .. عالم الخرسانة المسلحة يتحول إلى أنقاض .. إلى أوراق طائرة في الهواء .

الآن يحس الاستاذ أنه بعيد عن مرافئه القديمة الدافئة .. انه شراع فقد اتجاهه الأصلي نحو الشمس .. يسير في ظلمات بعيدة حيث تضرب أجنحته رياح ثلجية بالغة القسوة .. الآن يحس ان الشيطان هو الذي يحكمه لا العدالة أو المنطق أو الحكمة وان عليه أن يبحث من جديد وبعد رحلة عذاب مضنية عن شمس جديدة يؤمن بها .. الآن يحس بالضياع الكامل لكن باحساس حقيقي بالفخر وبعدم كراهية القزم الذي فجّر كل هذه التساؤلات في عالمه الراسخ المتين .

على العكس أحس انه ينبغي عليه أن يشكره لأنه أخرجه من حالة غيبوبة مزيفة عاش فيها طول حياته كما يفعل مريض السرطان مع إنسان يطلق الرصاص على رأسه .

الآن بدأ يشعر بخجل عميق من نفسه .. كراهية لكل من شارك في صنع خديعته .. كان يظن ان الناس يتصرفون بحنان ونبل في كل مرة يشاهدون

فيها إنساناً قبيحاً .. يفسحون له الطريق .. يديرون رؤوسهم إلى النــاحية الأخرى حتى لا يؤذوا مشاعره .. لم يكن يتصور أن الناس يقتلون الإنسان القبيح في كل مرة يرونه فيها.. وبدأ يفكر في المشكلة من وجهة نظر العدالة المطلقة .. احترقت كل كمية القش الموجودة داخل رأسه .. عيناه تدوران في يأس حزين مظلم فوق لوحات المرسم التي تحولت إلى جثث محنطة .. اكتشف انه لم يخدع فقط في عواطفه وفي نوع الحياة التي عاشها ولكن أيضــاً في هذه اللوحات التي فقدت قيمتها تماماً وتحولت إلى أشياء مثيرة للغثيان .

وعندما وقع بصره على لوحة المرأة المعلقة فوق الحامل نزعهــا في سخط وألقى بها على الأرض .

عاد من جديد يدور بعينيه الساخطتين المظلمتين فوق لوحات المرسم كأنه يبحث عن شيء يعيد الثقة إلى نفسه في هذه اللوحات .. أوشك أن يغــادر المرسم دون أن يعثر على بغيته في اللحظة التي وقع فيهـــا بصره على ظاهرة غريبة هزته بعنف .

راح يتفرس في اندهاش شديد في اللوحتين المتجاورتين المعلقتين فوق أحد حوائط المرسم .. رآهما عشرات المرات من قبـــل لكن شيئاً جديداً لفت نظره هذه المرة .. شيئاً يجيب على كل تساؤلات القزم .. كم كان غبياً بحيث لم يلاحظ هذه العلاقة الغريبة من قبل .. هذه العلاقة المألوفة تمامــاً في الربط بين كل الأشياء المتناقضة في العالم .. بين الجميـــل والقبيح .. بين الأبيض والأسود .. بين الصحيح والمريض .. بين الليل والنهار .. العلاقة التي تعطي القيمة النسبية للنقيضين .

اللوحة التقليدية التي رآها الآن كان يعتقد دائماً انها جميلة لكنه الآن وبعد أن رآها مقارنة باللوحة التجريدية المجــاورة أصبح يعتقد انها دميمة .. على العكس من ذلك احساسه تجاه هذه اللوحة التجريدية لقد أصبحت أكثر جمالاً من أي مرة رآها فيها من قبل .

أدرك فجـأة قانون العلاقــات الغريب بين الأشياء المتناقضة في العالم ..
أدرك على وجه الخصوص ما ينطوي عليه من ظلم فادح لأحد طرفي المقارنة..
فما ذنب القبيـح أو الأسود أو المريض أو الفقـير إذا كان كل ما يخرج به من
عملية المقارنة هو أن ندرك على حسابه الخاص فائدة الجمـــال أو البياض أو
الصحة أو الغنى .

تبدو قيمة هذه العلاقة الغريبة بين المتناقضات في العالم إذا تصورنا اختفاء
احد طرفيها .. وفي علاقتنا هذه إذا تصورنا اختفاء القبيـح أو الجميل .. إن
كلمات كالجمال أو القبح تبدو بلا معنى على الاطلاق.. مفرغة تماماً من المعنى
المألوف لنا .. الجمال بالنسبة لماذا .. القبح بالنسبة لماذا .. الجمــال لا يوجد
إلا بالمقارنة بالمرض ونحن لا نعرف ضوء النهار إلا بمقارنته بالليل أو الفقر إلا
بمقارنته بالثراء .. لكن أغبياء العــالم لا يدركون ذلك .. لا يدركون أهمية
القبح والمرض والفقر وسواد الليل ليعرفوا جمال النهــار أو الصحة أو الثراء
أو الوسامة .

بدأ يحس بانتماش عقلي عظيم وهو يحس بهذه الحقائق الجديدة تملأ وجدانه
بدفء لم يعرفه من قبل وصمم على نقل هــذا الاحساس الجديد إلى اللوحات
التي يزمع رسمها في المستقبل .. الآن على الفور .

ارتدى معطفه الملطخ ببقع الألوان وقد فارقته حالة الخمول والكآبة التي
خيمت عليه في الفترة السابقة على اكتشافه الجديد وبــدأ العمل على الفور ..
ارتسمت على شفتيه ابتسامة أخذت تتسع بينما هو يمضي في العمل متخيلاً وجه
القزم وهو يتأمل اللوحة في المرة القادمة التي سيأتي فيهــا إلى المرسم .. لا
شك أنه سيعجب كثيراً باللوحة .

٦ المنتحر

كان على وشك أن يرتكب أخطر عمل في حياته .. أن يقتل نفسه .. وللمرة الأولى بدأ يدرك سخف الفكرة الشائعة بأن الإنتحار عملية تلقائية يقوم بها المنتحر دون إعداد سابق .. تطرأ على ذهنه فجأة فينفذها على الفور .. هكذا ببساطة شديدة .. الآن وهو يقف أمام الموت تأكد ان الإنتحار ليس عملاً من هذا النوع .. انه شيء معقد مخيف يحتاج إلى كل شجاعة الرجل وعقله وحواسه .. على الأقل الجانب المادي الارادي منه .. يستهلك جانباً من طاقته العصبية المختزنة بحيث يحتاج إلى أن يتفرغ له تماماً وأن يعد له .

المنتحر .. إلى حد ما .. إذا لم يرد ان يترتب على عمله مضاعفات قد تسيء لآخرين يحبهم في هذا العالم يشبه الجراح الذي يقوم بعملية بتر كاملة للعضو المصاب بالغرغرينا .. ينظف مكان العملية الجراحية ليتأكد انه لن تحدث مضاعفات خطيرة قبل أن يغلق مكان الجرح المفتوح .. المنتحر يصفي كل علاقاته القديمة .. يقطع كل الخيوط التي تربطه بأناس يعنيهم في هذا العالم حتى لا يرحل عن الدنيا مديناً لأحد .. حتى لا يسبب إزعاجاً لأحد .. هذا كله يحتاج منه إلى أن يخطط لهذا العمل الخطير قبل فترة مناسبة .. أن يقوم

بمبادرات معينة ثم عليه أخيراً أن يواجه أهم وأخطر المراحل على الاطلاق .. في لحظة ما.. من مكان ما..بوسيلة ما..أن يحول الفكر المجرد إلى عمل .

هذا هو الموقف الآن الذي يجد نفسه فيه والذي يدرك معه أن كل أفكاره السابقة عن الانتحار كانت نوعاً سخيفاً من الوهم من أناس لم ينتحروا على الاطلاق أو يفكروا في الانتحار .

إنه يدرك تماماً الآن ان الانتحار عمل مخيف على الأقل الجانب المادي الارادي منه .. أن يصل الإنسان الى تلك الدرجة من الهوان على نفسه .. الاحساس الكامل بالضياع واليأس من الحياة بحيث لا يجد صعوبة في أن يضع رأسة في مواجهة مسدس ثم يطلق الرصاص .

لو انهم اقتحموا جمجمته الآن لرأوا عن قرب ذلك الصراع المخيف الدائر فيها بين رغبته في البقاء ورغبته في الانتحار .. بين الشجاعة والخوف .. بين كل مغريات الحياة وجاذبية الموت الرهيبة .

لكن تردده لم يكن راجعاً إلى أنه لم يختر بعد أن يموت .. على مدى أيام طويلة كان قد اختار .. تذبذبه كان شيئاً غريزياً تماماً يتحرك في نفس كل إنسان يواجه الموت الارادي وتشده مغريات الحياة إلى الوراء .. تذبذبه كان إنسانياً تماماً لأن الخوف الغريزي الذي كان يشعر به تجاه الموت .. على الأقل الجانب المادي الارادي من الموت لم يكن شيئاً مخجلاً على الاطلاق .

كان عليه أن يحسم هذا الصراع المخيف على الفور .. أن يضع نفسه وجهاً لوجه أمام المخرج الوحيد من مأزقه .. أن يموت .

كان قد هيأ المسرح تماماً للعمل الخطير الذي ينوي ارتكابه.. اختار وقتاً هادئاً للغاية لتنفيذ مخططه الجنوني .. كان يدرك ان زوجته المريضة طريحة الفراش منذ سنوات بعيدة عاجزة تماماً عن إنقاذه في اللحظة المناسبة حتى لو

أحست به .. وكان قد طلب من ابنته الطالبـــة بالجامعة ألا تعود في فترة الظهر لتعطي لأمها الدواء كالعادة قائلاً لها أنه سينوب عنها في اداء هذه المهمة ولم تشك ابنته في شيء فقد كان حريصاً تماماً على اخفاء مشاعره الحقيقية عن أقرب المقربين اليه ابنته وامرأته طريحة الفراش بل انها رحبت بهذا العمل من جانب والدهـــا لأنه سيعفيها من مشقة الرجوع إلى البيت ثم العودة إلى الجامعة من جديد لتكملة باقي المحاضرات .

الحجرة التي يوجد بها يخيم عليها الظلام .. مصراعها الخشبي المغلق يحجب ضوء الشمس المتوهج في الخارج .. الظلام سيضفي شاعرية غريبة على عمـــله الجنوني .. سيجعل كل الأشياء التي لا يريد أن يراها تذوب في الظلام .

كان واقفاً فوق مقعد صغير بوسط الحجرة .. حبـــل يتدلى من خطاف حديدي صغير في السقف يلتف حول رقبته.. صمت تام يخيم على الشقة كلها.. صمت يحمل بين طياته رائحة الموت الطيبة العطرة .. ليس عليـه أن يتردد طويلاً بل يحسم الأمر بسرعة لصالح فكرة الموت التي جاء من أجل تنفيذها.. دفعة بسيطة من قدمه للمقعد الذي يقف فوقه ويجد نفسه جثة متأرجحة في الهواء كما أراد تماماً وبذلك تنتهي كل متابعه في لحظات .

الثواني تمر عليه وهو عـاجز عن أن يصل إلى حسم الأمر لصالح فكرة الموت المسيطرة على كل خلجة في نفسه .. شجاعته تخونه مع الوقت .. العمل الذي تصوره بالغ السهولة .. مجرد أن يدفع المقعد الصغير بقدمه إلى الأرض أصبح مستحيلاً بدرجة خرافيـة .. قدمـه تحولت إلى صخرة من الجرانيت تعجز كل الدوامات الساخنة التي تفور في داخـله عن تحريكهـا لتدفع بالمقعد الصغير إلى الأرض .. إنـــه يعيش لحظة تجمع بين الحقيقة ومنتهى الوهم .. عاجزاً عن رؤية أي شيء أمامه .. عن حسم أي شيء .

بدأ يقوم ببعض الأعمال التافهة ليكتشف اللحظات التي تمر به .. اللحظات

التي تشبه الهواء الساخن المتسرب من بين أصابعه .. ليعطيها شحنات أكبر من الحقيقة .. بدأ يتحسس الحبل الملتف حول رقبته .. مسند المقعد الذي يقف فوقه .. جسمه المسترخي في بلادة شديدة كأنه مات فعلاً وليس في طريقه إلى أن يموت .. ثم بدأ يفكر في زملائه في العمل .. الخطوة الأولى ليمتلىء بالغضب الذي يدفع به بسرعة في طريق الموت .. بدأ يحس انه يمضغ إحدى الثمار الشديدة المرارة .. كان يشك طول الوقت في ان الأوغاد عرفوا شيئاً عن السر الدفين الذي حاول باستماتة بالغة أن يخفيه عن عيونهم المستريبة الحاقدة .

الذي كان يعذبه أكثر هو انه لم يكن متأكداً تماماً انهم عرفوا شيئاً على الاطلاق وإلا لما التزموا الصمت حتى الآن ولجابهوه بعدوانية صريحة لا موارية فيها .. إنه ليس متأكداً انهم عرفوا شيئاً على الاطلاق .. انه فقط يشك فيهم وهو بالتأكيد يملك أسباباً حقيقية لذلك الشك .. هو نفسه اعطاهم مبررات الشك فيه إذ لا ريب انهم لاحظوا انها المرة الأولى في تاريخه الوظيفي الطويل الذي يتميز بالانضباط الشديد التي ينصرف فيها عن العمل قبل أن يحين ميعاد الانصراف الرسمي ودون ان يعطي لذلك مبررات معقولة لزملائه.. وفاة قريب مثلاً أو عملية جراحية في مستشفى أو عشرات أخرى من الأسباب .. كل ما برر به هذا العمل هو انه احس ارهاقاً مفاجئاً يمنعه من الاستمرار .

كان لا بد لهم ان يشكوا في رجل لم يشعر خلال تاريخه الوظيفي الطويل بأي ارهاق من العمل ولم ينصرف أبداً قبل ان يحين ميعاد الانصراف الرسمي مهما كانت الأسباب والمبررات .. أحس من نظراتهم اليه انهم لا يصدقون حرفاً واحداً مما قال .. إنهم يتبادلون فيما بينهم شفرة صامتة غريبة في محاولة استجلاء السر الدفين الذي يحاول باستماتة بالغة اخفائه عن عيونهم المستريبة الحاقدة .

المأساة أنه يعرف أنهم لم يصدقوا حرفاً واحداً ممـــا قاله لهم لكنه لا يستطيع أن يصارحهم بذلك .. هم أيضاً يعرفون أنه كذب عليهم لكنهم لا يجرؤن على مصارحته بذلك .. ويتكهرب الجو بينه وبينهم وترتفع حدة الكراهية المشتركة الى الذروة وهو يعلم أن مرؤوسيه الصغار يتمنون من صميم قلوبهم أن يقع مرة واحدة على الأرض فيسارعون بإحضار سكاكينهم الحادة التي لا ريب أنهم أعدوها لتلك المناسبة والإجهاز عليه .

نظراته الخائفة التي تتلصص عليهم من وراء أكوام الملفات الموضوعـة على المكتب أسهمت هي الأخرى في خلق حالة الشك المتبـادل بينه وبينهم .. السجائر التي يشعلها واحدة من الأخرى ثم يطفئها قبل أن تنتهي .. محاولته المكشوفة في أن يبدو منهمكاً في أي عمل فيرتبك أكثر وأكثر ارتعـاشة يديه .. العرق الذي يتصبب بغزارة فوق وجهـــه والذي كان يجففه بمنديله المكتوم المتسخ كلها ساهمت في خلق حالة الشك بينه وبينهم .. وأخذت الهوة تتسع بينه وبينهم .. انـه يعلم أنهم يضمرون له الكراهية التقليدية التي يشعر بهـــا الموظفون الصغار تجاه رئيسهم العجوز العاجز عن فهم عقليتهم الشابة المتفتحة .. الذي يقف أمـامهم كالصخرة التي تسد طريقهم الى المستقبل .. طريقته في العمل مختلفة .. إحساسه بالحياة مختلف لكنهم مضطرون في نهاية الأمر للخضوع لتلك العقلية المتحجرة التي تتحكم في حيـــاتهم ومستقبلهم الوظيفي لذلك يكرهونه يتمنون له أن يقع مرة واحدة فيسارعون بالإجهاز عليه .

الخوف منهم.. كراهيتهم .. يملآن قلبه بمزيج غريب مقرف من المشاعر.. عيونهم التي تتلصص عليه من وراء أكوام الملفـات دوائر من الضوء المركز تحاصره بحيث لا يمكنه الفرار من حصارهـا .. الجبناء يحسون بغريزتهم التي لا تخطىء.. بلؤمهم الوظيفي التقليدي أنه وقع في مأزق غـــير عادي .. مخجل على الأرجح وأنــه لا يعرف طريقة للخروج منه لذلك يشعر بالخوف

والارتباك أمامهم لأنه متأكد أنهم يعرفون سره الدفين وإن كانوا لا يجرأون على مصارحته بذلـك .. لكنهم لا يعرفون نوع ذلك السر وإن كان متأكداً أنهم سيظلون ينبشون بأظافرهم وراءه حتى يعرفوا ماهيته وعند ذلـك لن يتورعوا عن إحداث أكبر فضيحة له لن يستطيع بعدها أن يرفـع رأسه .. لكنه لن يمنحهم أبداً الفرصة التي يتوخونها .. لن يمكنهم أبداً من العثور على السر الذي يسعون وراءه .. كل ما عليه أن يفعل هو أن يظل متماسكاً حتى يخرج من هذا المكان اللعين ثم بعدهـا يعطي لنفسه حرية الانهيار .. انه لن يبالي حينئذ لو عرف كل الناس السر الذي يحمله بـين ضلوعه لأنه ببساطة سيكون في وضع لن يؤثر فيه افتضاح هذا السر لأنـه سيكون في طريقه الى الموت .

جاءت اللحظة التي قرر فيهـا الانصراف من المكتب .. أدخل الملفات بسرعة الى داخل المكتب ثم اختلس نظرة أخيرة على الوجوه المحنطة المحيطة به وعلى الأخص الى عيونهم الزجاجية المضيئة المركزة فوقـه والتي تصيبه بارتبـاك فظيع .. أطفأ السيجـارة العاشرة في المطفأة وهي لا تزال في منتصفها .. وجهه قناع سميك من الجلد يخفي وراءه كل اضطرابه وخوفه من المستقبل الذي ينتظره .. وقف على قدميه متحاملاً بيده على سطح المكتب.. يجفف العرق الغزير الذي يتصبب فوق وجهه وجبهته العريضة بمنديله المكنوم الذي يخرجه من جيبه .. أخذ يساوي ملابسه المتهدلة من الخلف .. رفع حزام بنطلونه الساقط الى أسفل .. اختلس نظرة أخـيرة إلى العيون التي تشجعت وراحت توجه له نظرات صريحة مليئة بالاتهام .. تصور لو انه بقي أكثر من ذلك لانهار تماماً أمام تلك العيون المليئة بقسوة فظيعة .

غادر الحجرة بسرعة بعد ان وجه تحية لزملائه بإيماءة من رأسه .. بحيث لم يجرؤ على النظر الصريح لعيونهم التي اعتقد انهـا مليئة بالضحك .. تنهد في راحة وهو يغلق وراءه باب الحجرة .

أحس ان عبئاً ثقيلاً انزاح من فوق كاهله .. لم يعد يهمه لو عرفوا السر الذي يخفيه بين ضلوعه بل انه لا يمانع الآن في العودة اليهم واخبارهم بذلك السر فهو في طريقه الآن إلى عـدم الاهتمام بشيء على الاطـلاق .. في طريقه الى أن يموت .

ابتسم في مرارة شديدة راضية .. لم يكن يتصور ان الموت يمكن ان يكون حلاً سحرياً لكل مشاكل الحياة المعقدة وهو الذي كان يتصور الموت مشـكلة في حد ذاته والمنتحر خاطئاً عقابه الجحيم .

وهو واقف أمام الموت وجهـاً لوجه .. الحبـل المتدلي من سقف الحجرة ملتف حول رقبته .. دفعة بسيطة من قدمه للمقعد الصغير الذي يقف فوقـه وينتهي كل شيء كما توقع تماماً .. وهو في هذا الموقف المأسوي الحزين تغيرت كثير من مفاهيمه السابقـة عن المـوت .. الجانب الارادي منه على وجـــه الخصوص .. لم يكن يتصور ان قتـل الإنسان لنفسه يمكن أن يكون بهـذه الصعوبة .. إن على الانسان أن يفكر مائة مرة قبل أن يقدم على هذا العمل الفظيـع .. الشجاعة التي تصور أنها موجودة على طرف حذائه اكتشف الآن انها لم توجد على الاطلاق .. دخل منطقة انعدام الوزن المحيطة بالموت حيث يفقد الانسان قدرته على التفكير العقلاني الهادىء ويصبح مصيره معلقاً بعمل غير مقصود يقـدم عليه في لحظة مـــا .. مجرد غلطة بسيطة مروعة تكلفه حياته .. الحياة بكل قوى الجذب في داخلها.. بكل جاذبيتها العارمة تشده إلى الوراء .. تبدد فكرة الموت من عقله بسرعة مذهـــلة .. تكسب مواقع جديدة في داخله وهي تطارد أمامها ظلال الموت المنهزمـة .. دوائر عديدة من الضوء المركز تتكون بسرعة داخل مسطح الظلام الرمادي الموجود بداخله.

في تلك اللحظة يدور صراع تقليدي رهيب بين قوتين تتنازعانـه بشدة لكل منهما جاذبيتها التي لا تقاوم .. فلو لها التي تنتشر بسرعة في داخله أو

تختفي .. هو حائر بين هاتين القوتين لا يحس بالانتماء الحقيقي لأي منهما ..
القوتان متعادلتان تماماً في داخله لكن عليه رغم ذلك وبارادة معدومة تماماً
أن يغلب إحدى هاتين القوتين على الاخرى .. أنه في تلك اللحظات النادرة
التي يملك ولا يملك الانسان فيها مصيره تماماً .. انه إله صغير يستطيع بعيداً
عن أي تأثير خارجي ان يتحكم في مصيره ومستقبله .. ان يعيش أو يموت .

في تلك اللحظة يحس أنه يريد ان يعيش فهو خائف من الموت لكنه أيضاً
يريد ان يموت فهو خائف من الحياة .. ضائع .. مبعثر .. لا يمكنه العثور
على إرادة الاله الصغير الذي يحسم الامور ببساطة شديدة لأنه فوقها .. الآن
يحس انه ليس فوق المشكلة بل في صميمها .. انه ليس إلهاً يحل مشاكل إنسان
آخر بل إنسان في محنة شديدة وبحاجة إلى مشورة انسان آخر إلى جانبه
لكنه لا يجد هذا الانسان أبداً المهمة التي عليه ان يقوم بها الآن تبدو مستحيلة
تماماً .. قدمه ثقيلة مليئة بالرمل ملتصقة بجسمه المتخاذل الذي يشبه كيساً من
القطن .. بدأ يدرك الآن ان عليه ان يقوم بدور الجلاد والمحكوم عليه في
نفس الوقت واعياً لكل ما يحدث له من الآن فصاعداً .. لا يمكنه ببساطة
ان يضيع الوقت أكثر من ذلك او ان يترك الأحداث تدفع به إلى نتيجة لا
يريدها .. عليه هو ان يدفع الأحداث إلى النتيجة التي يختارها وهو قد اختار
ان يموت وجاء إلى هذا المكان ليضع اختياره موضع التنفيذ لكنه يشعر الآن
انه عاجز عن اتخاذ قرار سريع وحاسم بالمضي في طريق الموت إلى غير رجعة
وتلك مأساته الآن .. وبدأ يحسد المحكوم عليه بالاعدام لأنه يجد على الأقل
من يقوم عنه بهذا العمل الفظيع .

بدأ يفكر بطريقة عكسية تماماً ليتخلص من تأثير جذب الحياة له ..
ليدفع بنفسه اكثر في اتجاه الطريق الآخر نحو جاذبية الموت الرهيبة .. بدأ
يفكر في الفضيحة التي ستعقب اكتشاف عجز الخزانة التي في عهدته .. قنبلة
ستنفجر في صرح حياته الطويلة الشديدة الهدوء والنصاعة فتهدمها فوق رأسه ..

ليس رأسه فحسب بل ايضاً رأسي أعز مخلوقتين لديه .. زوجته وابنتـه .. الموت بعد ان فكر طويلاً هو الحل السحري لانقاذه من المأزق الرهيب الذي اوقعته فيه ظروفه السيئة .

تراءت له عيون زملائه في الحجرة ممتلئة بوميض باهر من السخرية والشماتة لا يمكنه بحال احتماله ثم بدأ يسمع أزيزاً كالكهرباء يزن إلى جوار اذنه .. أنهم يلوكون سيرته في افواههم .. يقطعونه إلى عشرات القطع الصغيرة من اللحم النيء ثم يقذفون بها إلى فوهات البراكين الجائعـة في داخلهم .. يحس برغبته تتزايد في الموت .. يرفع ساقه إلى اعلى مستوى المقعد الذي يقف فوقه ليدفع به الى الأرض .. ساقه تتجمد في الهواء .. تعود في تخاذل شديد وبعد لحظة تردد قصيرة لتستقر إلى جوار قدمه الاخرى .

الآن يتأكد له مع الوقت أنه اختار وسيلة مستحيلة تماماً وسخيفة في نفس الوقت للهروب من مأزقه .. الحياة تشده من جديد الى مرافئها الدافئة القديمة.
فكر في ابنته التي ستصاب باغماء مؤكد عندما تعود من الجامعة لتكتشفه معلقاً من رقبته في حبل يتدلى من سقف الحجرة .. يتأرجح في الهواء ككيس من القطن فارقته الحياة .. عيناه جاحظتان بشكل مخيف داخل محجريهما .. فكه ملتو بشدة كأنه ضرب فوقه .. لسانه يتدلى من فمه المصـــاب بزرقة شديدة .. لونه شمعي باهت .. جسمه كله مسترخي في بلاده شديدة كأن أشياء كثيرة قد سحبت من داخله .. ابنته بالتأكيد لن تتحمل منظره المخيف وستصاب بحالة اغماء مؤكدة على الفور ثم زوجته المريضة طريحة الفراش منذ سنوات بعيدة بقلبها العليـل لن تتمكن هي الاخرى من أن تظل على قيد الحياة بعد أن يبلغها خبر وفاته المفجع الذي سينزل عليها كالصاعقة .

أنها جريمة قتل متعمدة اذن يرتكبهـا ضدهم .. ضد أحب مخلوقتين إلى قلبه ولو أنه مهد لهذا العمل الخطير بأي صورة من الصور لشجعه ذلك على

المضي في تنفيـذ مخططه الرهيب دون أن يخشى التأثير المدمر له على زوجته وابنته لكنه لم يفعل ذلك .. لم يشعر بكلمة واحدة ليس فقط لما إنتوى الأقدام عليه بل حق لمشكلته نفسها .. وبذلك تهاوى آخر معقل من معاقـل الموت الرهيبة أمام الهجوم العنيف والمتصاعد لقوى الحياة في داخله .. صمم على أن يعيش من أجل المرأتين اللتين يحبهما اكثر من أي شيء آخر في العالم .

رفع الحبل بتصميم من حول رقبته وهو يحس أنه افلت باعجوبـــة من أعجب ورطة وضع نفسه فيها بارادته .. تنهد في راحة شديدة .. نزل بسرعة وجلس على الفراش ممسكاً رأسه بين يديه يفكر بعمق في الخطوة التالية .. ما زال يحس أنه لم يبتعد تماماً عن خطر الموت الذي يلاحقه فهو لم يجد باقتناع كامل بديلاً له حق الآن فالحياة بكل مغرياتها وقوة الجذب فيها ليست قادرة تماماً على جذبه من الموت .. انها على الأقل تحمل بين طياتهـا خطر افتضاحه أمام الآخرين .

غادر مقر العمـل .. يسير بخطوات ذاهـلة في الشارع المزدحم باناس لا يشعرون بمأساته الحادة .. تسيطر عليه فكرة الموت كحل نهائي وسعيد لمأساة حياته .. يحس أنه بالون صغير ممتلىء بغاز أخف من الهواء وهو على وشك أن يقطع الخيط الرفيـع الذي ما زال يشده إلى الأرض منطلقاً الى غير رجعة في فضاء لا نهائي .. خفيفاً كالأحلام .. كطيور السماء البعيدة لا تثقله المشكلة الحديدية التي يحملها في داخله .. قبل ذلك ظل يقارن في نفسه بين نوعين من العار لا بد أنه واقع في واحد منهـما .. العار وهو ميت والعـار وهو حي مفضوح بين الناس .. واختـار أخف العارين .. اختار أن يموت .. ربما كان موقفاً أنانياً منه لم يعمل حساباً لآخرين يحبهم في هذا العالم لكنه بدا له الحل الوحيد المفجع والسعيد للخروج من مأزقه .

اكتسبت خطواته خفة مذهلة وهو يفكر على هذا النحو .. وصل أخيراً

إلى البيت .. زورق وصل إلى مرفأ الأمان .. ألقى بكل همومه وراء ظهره وبدأ يتطلع إلى حياة بلا هموم على الاطلاق في مكان بعيد عن الأرض .

وقف في بئر السلم يتطلع بضيق وعصبية إلى صف السلالم الطويل الذي يتمين عليه أن يصعده ليصل إلى شقته في الطابق الخامس من المنزل .. لأول مرة منذ سكن هذا البيت يبدو له هذا العمل الروتيني المألوف كنوع ثقيل من العبء عليه أن يؤديه .. أحس ان وزنه زاد بمقدار طن من العذاب وان عليه أن يحمل هذا العبء الاضافي ويصعد به إلى شقته في الطابق الخامس.. أحس باعياء شديد لكنه تحامل على نفسه وقرر الصعود على الفور كي لا يضيع الوقت الذي يحتاج إلى كل دقيقة منه .. بذل مجهوداً خارقاً ليرفع جسمه المترهل الضخم الى السلمة الأولى.. استند بيده على سياج السلم الحديدي ليعاونه ذلك على الصعود إلى أعلى .. أطلق كل البخار المختزن في داخله كما تفعل القاطرة البخارية وهي تحاول التحرك من حالة الجمود الأولى .. تصور انه سيصعد باقي الدرجات بقوة الدفع الذاتي وبشيء من السهولة النسبية .

في صعوده بدأ يحس بشعور غريب يجتاحه للمرة الأولى في حياته.. شعور يفتح مسام نفسه إلى الحد الأقصى لتفهم عميق وحقيقي للحياة .. يهيؤها لحب الأشياء الصغيرة التي لم تلفت نظره قبل الآن .. الأشياء الدافئة المشحونة بقوة العاطفة الإنسانية الخلاقة .. بدأ يتنبه للمرة الأولى في حياته إلى رائحة الطعام العذبة السابحة في جو السلم الفسيح مختلطة بذرات الغبار ودفء الشمس الداخلة من النوافذ المفتوحة العالية صانعة أعجب رائحة شمها في حياته .. أيقظت تلك الرائحة المثيرة كل الأشياء النائمة في صدره .. جعلت عينيه تغرورقان بدموع حقيقية .. أهاجت فيه حنين الإنسان العميق إلى الحياة والدفء واللذات اليومية المألوفة .. كل الأشياء التي هو في سبيله إلى فقدها الآن .. تحول هذا الشعور بسرعة إلى حزن عميق يسيطر على حواسه .. إلى نوع فظيع من اليأس فهو بسبيله إلى فقد كل الأزهار اليانعة في حديقته الخاصة

التي توشك على الذبول في الوقت الذي ستظل فيه أزهار الآخرين حية يانعة تتقبل دفء الشمس كل صباح .. سيموت هو بينما سيظل الآخرون قادرين على الاستمتاع اليومي المألوف بكل الأشياء الصغيرة الدافئة التي تهيج حاستهم العميقة للحياة .. استمتاعهم بها.. الضحكات .. الدموع .. الحب .. المشاكل اليومية الصغيرة .. وجبات الطعام الشهية.. وجوه الناس التي تطل من وراء النوافذ الصغيرة .. فوقها طبقة سميكة من حب الحياة والدفء الإنساني .. وفي عيونها فضول غريب .

أحس انه ماتَ قبل أن يبدأ يموت لكنه حاول باستماتة شديدة أن يكبت هذا الشعور في داخله فهو قد جاء إلى هذا المكان وفي نيته أن يموت وهو بالتأكيد لن يسمح لأية مشاعر إنسانية مفاجئة أن تفسد تدبيره .. وبدأ يتابع الصعود إلى أعلى لكن ببطء أشد وبقدرة أكبر على التأمل والاستمتاع والعذاب .

لفت نظره صفائح القمامة الممتلئة الموضوعة أمام أبواب الشقق المغلقة .. كان هذا يسبب له إزعاجاً دائماً في الماضي حيث لم يكن في المنزل العتيق سلم للخدم .. الآن يحس بشعور مختلف تماماً وهو يرى تلك الصفائح الممتلئة حتى حوافها والموضوعة أمام أبواب الشقق المغلقة .. يشم رائحة تلك الصفائح الكريهة بنفس الشعور الغريب الذي يشم به رائحة الطعام السابحة في جو السلم .. دلالة هذه الصفائح تبدو له الآن واضحة تماماً .. ان معنى وجودها في تلك الأماكن ان وراء الأبواب المغلقة أناساً يعيشون .. يستهلكون وانهم لفترة طويلة قادمة سيظلون على قيد الحياة في الوقت الذي يكون هو فيه قد اختفى تماماً من الوجود .. وبدأ الشعور الحزين يهاجمه من جديد بضراوة فظيعة .. انه الآن في طريقه إلى أن يتحول إلى صفيحة قمامة يأخذونها مع هذه الصفائح ويفرغونها في مكان بعيد عن العيون .. هذه الصفائح ستعود أما هو فسيبقى هناك إلى الأبد .

فتح باب الشقة بهدوء حتى لا يوقظ زوجته النائمة في الفراش .. فتح باب حجرة نومها .. أطل عليها من فرجة البـاب بحذر شديد .. اطمأن عندمـا أدرك انها لم تشعر بوجوده .. أغلق الباب من جديد بهدوء شديد .. تقـدم ناحية حجرة ابنته المجاورة لحجرة نوم زوجته .. فتح الباب .. الحجرة يخيم عليها ظلام نسبي .. تقـــدم إلى المصراع الخشبي المغلق وفتحه .. الضوء غمر الحجرة فجأة .. أعمى عينيه .. خرج بسرعة الى الشرفة الصغيرة المطلة على الشارع المزدحم .. الناس من تحته مجموعة من الأشباح والظلال الذائبة في ضوء النهار المتوهج في الشارع .. ناس مصنوعين من دخان في عالم كل ما فيه دخان أحس ان هذا التفكير يقربه أكثر من الموت الذي جاء من أجله .. فجأة خيم صمت شديد على الشارع .. الأصوات الصادرة منـــه لا تصل اليه .. الناس تحـولوا إلى حشرات صغيرة التصقت بإسفلت الشارع الذي ساح من حرارة الشمس القوية فوقه .. ثم بلعهم الشارع من تحته .. أحس فجـأة انه يقف في صمت وسكون أمام الموت الرهيب الذي جاء من أجله .. الموت قابـع الآن داخل تلك الحجرة الصغيرة فليدخل لمقابلته .. تصور انـه منوم مغناطيسياً أو انه نوع من الإنسان الآلي المدرب من قبل على هـــذا العمل وان كل ما سيقوم به بعد الآن من خطوات سيتم بطريقة آلية تماماً ومجردة من مشاعره كإنسان .. سيتم بتلقائية مذهلة كأنه انتحر عشرات المرات من قبـــل .. تحسس الملابس المنشورة فوق حبـل الغسيل الممتد بعرض الشرفة الصغيرة .. الملابس جافة كما توقع .. جمعها ودخل بهـا الى الحجرة وألقى بهـا على الفراش .

بحث عن شفرة حلاقة سرعان ما وجدها .. خرج بها إلى الشرفة وقطع بها حبل الغسيل وحمله إلى داخـــل الحجرة .. أغلق المصراع الخشبي ليعود

الظلام النسبي فيخيم على الحجرة من جديد .

راوده شعور غريب وهو يجلس الى جوار الملابس المكومة على الفراش .. ملابسه وملابس زوجته وابنته وقد اختلطت ببعضها البعض.. رائحة الصابون والشمس والهواء المنبعثة منها تملأ رئتيه .. تصور ان الملابس كالناس يمكنها أن تحس بشعور الاغتراب المصاحب للموت وانهـا عندما تنتزع من جوار بعضها البعض تحس بشعور الأصدقـاء القدامى عندما يفترقون .. بل ان الملابس يمكنها أن تحس بإلفة تجاه أصحابهـا الذين تعودوا ارتدائها والذين انبعث العرق من مسامهم ليختلط بنسيج تلك الملابس فتشعر بالحزن لفراقهم ولم يستطع إلا أن يتخيل شعور ملابسه الغريب بعد أن يضمهـا إنسان آخر فوق جسمه .. أهاج هذا الشعور كل الخواطر الحزينة في داخله .. انسانيته .. دفع به أكثر في طريق الموت الذي جاء من أجله .. الموت الذي يحس الآن انه يحبه من أعماقه .. انه الآن يدمر كل الجسور المشيدة ورائه ليبدو الرجوع الى الخلف مستحيلاً تماماً .. ليبدو الموت هو الطريق الوحيد الذي يمكن أن يسير فيه .

أحس في تلك اللحظات الفريدة المليئة بالحنان ان علاقته قد قويت بكل الأشياء الصغيرة التى استعملها في الحياة .. فرشاة أسنانه .. ماكينة حلاقته.. مشط شعره .. وامتلأت عينـاه بدموع الملح الصامتة بينما يـده تعتصر كومة الملابس وتقربهـا بحنان وفظاعة من أنفه كي يمـلأ صدره برائحتها الغريبة الدافئة .

نظر إلى سقف الحجرة .. تنهـد في راحة عندما وجد الخطاف الحديدي الصغير في مكانه كما توقع أن يجده .. كان يخشى طوال الطريق الى البيت ألا

يجده في مكانه .. أحضر مقعداً صغيراً من الصالة وصعد فوقـه .. ربط الحبل بقوة في الخطاف الصغير .. تأكد متـانة العقدة أكثر من مرة .. في الطرف الآخر من الحبل صنع عقدة أكبر أدخل فيها رأسه ثم وقف ينتظر .

جالس على الفراش .. رأسه المزدحمة الثقيـلة بين كفيه .. يفكر بعمق شديد .. ان الأمر عندمـا تدوي الفضيحة من حوله لن يكون قاصراً على سخرية الموظفين وشماتتهم أو ثرثرة الجيران ونهشهم الدائم اللحوح لسيرته انه بالتأكيد سيصل الى أبعد من ذلك .. سيصل به الى السجن .

تساءل بينه وبين نفسه هل يمكنه احتمال السجن في هذه السن المتـأخرة أو حتى في أي سن أخرى .. انه بالتأكيد يفضل أن يموت على أن يسجن .. ثم انه سيصم أسرته الى الأبد في حالة سجنه .

ذبابة الموت تطن داخل رأسه من جديد وبإلحاح أكثر .. نظر بحنان شديد الى الحبل المتدلي من سقف الحجرة .. الحبل يمثـل له الخلاص من أزمته الحاضرة.. صمم على أن يموت .. صعد بسرعة وبلا تردد فوق المقعد الصغير.. رفع قدمـه الى أعلى ليتمكن من دفع المقعد الى الأرض .. قدمه تجمدت في الهواء في حالة عجز تام عن تنفيذ الأمر الذي أصدره اليها .. بإحساس شديد بالاحباط والتخاذل عادت قدمه لتستقر الى جوار جسمه المتبلد المسترخي .. أدرك انه لا يمكن أن يموت .. ليس الآن وليس بهـذه الطريقة .. ان عليه مسؤوليات جسيمة تجاه أسرته الصغيرة التي لم يعدها بأي صورة من الصور لتقبل صدمة موته المفاجئة .

ثم لماذا لا يحاول أن يجد حلاً لمشكلته التي يضخمها الوهم أكثر من اللازم.. لقد امتدت يده الى الخزانة التي في عهدته .. فعل ذلك من أجل توفير الدواء

لزوجته المريضة بالقلب .. من أجل مستقبل أفضل لإبنته الطالبة بالجامعة .. كثيرون غيره فعلوها من قبل وكثيرون غيرهم سيفعلونها في المستقبل .. عليه أن يفكر بحكمة ليخرج من مأزقه .. انه لم يجرب مصارحة زملائه الموظفين الكبار في السن .. ربما وجد عندهم حلاً لأزمته المستعصية .. انه واثق انهم سيساعدونه بكل ما يقدرون عليه .. انه إذن تقصير خطير في حق حياته الثمينة وحياة أسرته الصغيرة أن يموت بهذه للسهولة .. هذه الأسره التي لا يعتقد انها ستتخلى عنه مهما حدث له بل انه واثق انها ستقف الى جواره وتشد من أزره .

قوى في داخله الاحساس العميق بالحياة .. دقت ساعة الحائط أولى الدقات في الساعة الثانية عشر وهو الميعاد الذي تتناول فيه زوجته دواء القلب وهو عادة يقدمه اليها بنفسه عندما يكون موجوداً بالمنزل..اليوم وعد ابنته بأنه سينوب عنها في هذه المهمة ولا يمكن بحال أن ينكث بوعده .. تخيل وجه زوجته وقد بدأت تسمع دقات الساعة وكل حواسها متنبهة انتظاراً لدخوله أو ابنته الى الحجرة ليعطيها واحد منهما الدواء كالعادة وهو يطبع قبلة حانية فوق جبينها بينما هو يتمنى لها الشفاء العاجل .. أحس ان شيئاً يعتصر قلبه بشدة ويخرج منه كل ما به من مرارة .. وأخذت دقات الساعة تتابع في سكون الشقة الرهيبة ومع كل دقة كانت أعصابه تتنبه أكثر واحساس عميق بالحياة في داخله يقوى أكثر .

فجأة خيل اليه أنه سمع صوت زوجته الخافت تنادي على ابنتها .. بدأ الصوت يتضح تدريجياً في أذنيه .. الآن تأكد له انها استيقظت وتريد أحداً يعطيها الدواء ويجلس الى جوارها.. هفت كل مشاعره الطيبة نحو زوجته.. أراد أن يتحرك اليها بسرعة ليقبل يديها ويطلب منها الغفران والصفح.قلبه

ممتلىء بالحب .. ذكريات السنين الطويلة تحرك خيـاله .. قوة أكبر من ارادته دفعت به ليتحرك من فوق المقعد كي ينزل على الأرض ويلبي نداء زوجته .. الحبل ملتف حول رقبته .. المقعد الصغير الذي يقف فوقـه يمكن أن ينزلق بسهولة شديدة من تحته لو لم يتحرك بحذر شديد .

ساد سكون فظيـع أرجاء الحجرة التي يوجد بهـا .. اكتشفوا الجثة في المساء .. جثة رجل تحول الى كيس من القطن يتدلى من سقف الحجرة بحبل معلق في رقبته..عيناه جاحظتان الى الأمام وفكه ملتو كأنه ضرب فوقه.. لسانه يتدلى خارج شفتيه الزرقـاوتين المتضخمتين وبشرته شمعية شاحبة يلمع فوقها اصفرار الموت الرهيب .. الموت الذي لم يتوقعه على الاطلاق .. ارتسم فوق وجهه تعبير غريب ينم عن منتهى الدهشة والاحساس بالألم..حاول الذين تجمعوا حول الجثة في المساء أن يفسروا سر هـــذه الدهشة الغريبـة لكنهم عجزوا عن ذلـك .. واحـد فقط كان في مقدوره أن يكشف لهم عن السر الذي يحيرهم .. إنه هو نفسه لكنه ببساطة شديدة كان قد .. مات .

* * *

٧ علبـــة

في ذلك المساء كنت أجلس في بار المقهى الكبير ومعي صديقاي مدحت وسمير نشرب كالعادة ونثرثر حول أخبار العالم .

كان من عادتنا أن نجتمع كل مساء في البار منذ أن تخرجنا من الجامعة لا نكاد نخطىء ليلة واحدة بحيث عندما كان واحد منـا يتأخر عن القدوم الى البار كنا نذهب اليه في المنزل لسؤاله عن سبب غيابه كأن من الضروري أن يأتي دائما الى البار ولا يتخلف أبداً عن الحضور .. ولم تكن الخمرة هي التي تجمعنا وحدهـــا لكن الاهتمامات المشتركة والسكن في الحي الواحد والسن المتقاربة .. سن أواسط العمر وذلك بالاضافة الى صفة فريدة تميزنا عن غيرنا هي أننا لم نتزوج بعد رغم قدرتنا المادية على ذلك ولا يدري أحد منا السبب في ذلك .. ربما كانت الخلفية التي تعيش في عقولنا الباطنة والمكونة من كل ما نسمعه ونراه عن استهتار النساء وعدم وجود حب حقيقي أو قيم اخلاقية في مجتمعنا ربما كانت تلك الخلفية هي السبب في اضرابنا حتى الآن عن الزواج.. كل ما نعرفه هو أننا ظللنا واقفين في محطة الزواج الضخمة المزدحمـة بالناس ننظر بلا مبالاة إلى قطار الزواج الواقف في الانتظار وهو يوشك أن يتحرك بين لحظة واخرى كأننا نبتهل اليه أن يتحرك ويدعنا واقفين في مكاننـا ..

والآن وبعد أن مرت كل تلك السنوات وما زلنا واقفين في الانتظار فاننا نشعر بأننا غير نادمين على أن قطار الزواج تحرك وخلفنا وراءه .. فنحن نجتمع كل مساء في البار نضحك ونشرب ونقابل النساء .. نضحك كثيراً ونفكر قليلاً ولا نحمل هما لشيء .

صديقاي يسميان العصر الذي نعيش فيه عصر الصياعة أما أنا الكاتب الذي لم يكتب حرفاً واحداً حتى الآن فإنني اسميه في بلاغة شعرية عظيمة عصر التشرد أو اللازواج وأنا من أجل هذا التشبيه الشعري العظيم ومن أجل الأفكار التي تعيش في رأسي والتي لم أكتبها بعد أعتبر نفسي في درجة تعلو درجة صديقي" اللدودين اللذين لا يكفان عن السخرية بي من أجل ادعاء صفة الكاتب رغم أنني لم اكتب فضلاً عن أنني لم أنشر حرفاً واحداً حتى الآن .

كثيراً ما دارت بيني وبين صديقي" الحميمين مناقشات لا تنتهي بخصوص هذا الموضوع .. ضاحكة في الغالب .. مليئة بسخرية مرة وان كانت لا تجرح من جانب صديقي" .. لكني أشعر أنني لا أفتئت على الحقيقة عندما ادعى صفة الكاتب فأنا في داخلي أشعر بأنني ممتلىء بعشرات الكتب .. كل ما علي أن أفعله هو أن أجلس إلى المكتب وأبدأ في تسجيل خواطري .

لكن هذه العملية البسيطة بالنسبة لغيري تبدو مستحيلة تماماً بالنسبة لي فأنا أخشى إذا جلست إلى المكتب وحاولت الكتابة ألا أجد شيئاً أكتبه .. أن تخرج الطيور المحبوسة داخل عقلي وتطير إلى غير عودة بعد أن أفتح لها باب القفص المغلق .. أخشى أيضاً أن تنحشر أفكاري في مكان ما بين رأسي وقلمي رافضة أن تغادر عنق الزجاجة الذي انحشرت بداخله .. لكني أعتقد أنني سأتغلب على أزمتي بأسرع مما يتصور صديقاي وبأسرع مما أتصور أنا نفسي إذا أردت أن اكف عني سخرية صديقي" اللدودين اللذين يطلقان علي" صفات مثيرة للضحك فأنا في نظرهم الكاتب مع وقف التنفيذ أو مشروع الكاتب الخ ...

لكني مصمم هذه المرة على كسر حدة الصمت والغمود في حياتي الأدبية.. الموضوع اختمر تماماً في ذهني لم يبق سوى مجرد الجلوس الى المكتب والبدء في تسجيل خواطري.

« ميدو ».. أحضر لي كأساً أخرى من البراندي ومزيداً من الثلج والمازة.. واجرع ما تبقى من الكأس الأولى واسمع صوت احتكاك قطعتي الثلج في الكأس الفارغة وانا أعيدها إلى منضدة البار فأحس بنشوة لا حد لها.. بانني إنسان مصنوع من مادة متوهجة شفافة تسري الخمر أو الشمس في شرايينها البعيدة.. بأن عقلي يتألق بشدة وهو يتعذب في عملية مخاض رائعة للأفكار التي اختمرت بداخله.

ملأ لي « ميدو » أو محمد البارمان الأسمر.. الضاحك دائماً.. النشيط دائماً الذي يجيد صناعة أجمل وأتعس خلطة كوكتيل في مصر.. ملأ لي الكأس ووضع بعض مكعبات جديدة من الثلج ثم جاء بطبق من الجزر وآخر من الفول السوداني ووضعهما على البار وهو يبتسم كالعادة.

تناولت بعض حبات من الفول السوداني مضغتها في قرف شديد إذ كانت قديمة سيئة الطعم ولم أكمل بلعها بل بصقتها بسرعة على الأرض ثم تناولت جزرة ذابلة لأغير من طعم فمي جعلت أمضغها في قرف هي الأخرى ولم أكملها بل أرجعتها الى الطبق من جديد.

« ميدو ».. أليس لديك سوى هذا الجزر اللعين والفول السوداني القديم المزنخ لتقدمه لي.. أين المازة التي كنتم تقدمونها في الماضي يا ميدو.. أين أطباق الجبن المتنوعة واللحوم الباردة والأسماك والطيور وأطباق الطحينة والمخلل.. أين كل ذلك يا ميدو.. قل الصدق أين كل ذلك الآن.

ازدادت ابتسامة ميدو اتساعاً وظهرت أسنانه الصفراء المتآكلة من وراء شفتيه الغليظتين في الوقت الذي انصرف فيه الى ملء كأس صديقي مدحت

الذي تنبه فجـــأة لكلامي فالتفت ناحيتي وعلامات المهاجم المتحفز مرتسمة فوق وجهه .. أيقنت في تلك اللحظـة ان جولة السخرية اليومية على وشك أن تبدأ .

هل سمعت يا ميدو .. انه يريدك ان تحضر له أطباقاً من المـازة الحقيقية في هذا العصر .. لا بد ان الخمر قد أثرت فيه كثيراً .. كم كأساً احضرتها له يا ميدو وضحـك من قلبه وقذف ببـاقي كأسه الى جوفه وهو يحس احساساً هائلاً بالمرارة .. مازة حقيقية في هذا العصر هه .. لا ريب انـك مجنون .. صمت قليلاً قبل أن يردف قائلاً .. كان ذلك في العصر الماضي ايهـــا الأحمق عندما كان الرخاء يعم العالم .. ينساب حتى يصل الى كأسك ثم يسيح منه.. كان في وسعك أن تملأ بطنك وتنام في فراش دافيء وثير وتجـد شقة عندما تريد ذلك وتتزوج في سن العشرين أما الآن فليس أمامك سوى هـذا الفول السوداني اللعين والجزر الذابل لتأكلهما في صمت تام وتشكر الله على ذلك وبعد بضع سنوات أخرى لن تجد حتى هذا الفول السوداني او الجزر لتـأكلهما .. ثم ضحك بمرارة شديدة وهو يصيح ملوحـاً بيده في الهواء .. كأس أخرى يا ميدو ومزيد من الفول السوداني الفاخر والجزر الطازج .

تنبه صديقي سمير الذي كان يجلس على طرف البـــار يشرب بشراهة واستمتاع وأمامه مجلة نسائية عارية يتصفحها .. تنبه الى المناقشة الضاحكة الدامية الدائرة بيني وبين مدحت فاقترب منـا بعد أن أغلق مجلته النسائية العارية وتحفز هو الآخر للاشتراك في تلك المناقشة .

انكما احمقـــان بالتأكيد لأنكما تتناقشان في أمـور أصبحت من عاداتنا الراسخة .. أمور ليس هناك أدنى أمل في تغييرها..اننا نأكل هذا السوداني اللعين والجزر الذابل منذ سنوات طويلة وسنظل نأكلهما طالما نحن نأتي الى هذا البار أو أي بار آخر في القاهرة .. كلهم يقدمون هذا الجزر اللعين حتى

خلت من كثرة ما تناولت منه انني أرنب حقيقي .. أنظر ان لي ذيلا صغيراً وأذنين كبيرتين..من يريد شراء أرنب ضخم مسلي بسعر التراب.. وضحكنا جميعاً وظهرت أسنان ميدو الصفراء المتآ كلة من جديد وأردف سمير قائلا .. على أي الأحوال لا بد أن توجد لديكما ملكة التخيــل التي توجد عند أي إنسان يجلس على الرصيف عندمــا يتخيل ان أقراص الطعمية التي يأ كلها هي شرائح منتقاة من ديك رومي فاخر .. هذا الفول السوداني مثلا ..المزنخ .. الحقير . وتناول بضع حبات منه وضعها في فمــه وأخذ يلوكها متظاهراً بالاستمتاع الشديد .. انه ليس فول سوداني .. انه فستق حلبي معتبر..وهذا الجزر اللعين وأخذ جزرة ذابلة قضم منها قطعة صغيرة ثم بصقها على الأرض انه ليس جزراً ذابلا انه موز مغربي فاخر .. هــل رأيتم يمكنكم أن تفعلوا مثلي لتصبح الحياة جميلة وسعيدة..وضحكنا جميعاً وكان أكثرنا ضحكاً ميدو بالطبع الذي أعجبته النكتة كثيراً فأراد ان يكرمنا فأتى لنــا بمزيد من أطباق السوداني والجزر وهنا قال له مدحت وهو يضحك .. تاني .

وقال مدحت حسن يا سمير اننا لن نتكلم في هــذه الموضوعات التي لا جدوى من مناقشتها .. سنناقش موضوعــاً أهم من ذلــك .. وارتسمت على وجهه ابتسامة أعرفهــا جيداً .. ابتسامة تحمل قــدراً كبيراً من السخرية الضاحكة التي لم أكن أكرهها .. سنناقش موضوع كتاب صديقنا احمد الذي لا يريد ان ينتهي .. والتفت إلي قائلا وهو مــا يزال يبتسم .. بالمناسبة مــا اخبار كتابك الجديد .. آسف كتابك فحسب فاذا لم يكن لك كتاب قديم فليس لك كتاب جديد .. منطق أليس كذلك وضحك حتى كاد يستلقي على ظهره من الضحك وشاركه الضحك كل من سمير وميدو .. ورفــع كأسه وخبطه في كأسي وهو يقول .. على أي الأحوال ستكتب كتاباً يوماً ما .. اطمئن .. في صحتك .. لا تجعل هذا الموضوع يشغلك أكثر من اللازم .

إنكما تسخران مني لكني سأثبت لكما انكمـا مخطئان .. سأكتب كتاباً بأسرع مما تتصوران .

أردف مدحت قائلا وهو ما يزال يبتسم ولماذا تكتب كتاباً على الاطلاق يكفي ان تحس بينـــك وبين نفسك انك كاتب لتصبح كاتبـــاً وليس من الضروري ان تتعب نفسك كباقي الكتاب وتكتب كتاباً .. انهـا فلسفتك أليس كذلك .

إنها فلسفة صحيحة إلى حد كبير .

قل لي إذن كيف سيعرف الناس انك كاتب .. هل سيخمنون ذلك .. كيف ستنقل اليهم أفكارك وإذا لم تستطع نقلها اليهم كيف يمكن أن تسمي نفسك كاتباً .. ثم إذا سايرنا منطقك هذا فإن الجرّاح ليس من الضروري أن يجري جراحه فوق منضدة عمليات ولمريض حقيقي بل يمكنه أن يجريها وهو نائم في الفراش يحلم مثـلا وعلى مريض وهمي غير موجود .. والممثل ليس من الضروري ان يمثل فوق خشبة مسرح حقيقي وامام جمهور من المشاهدين بل يمثل وهو جالس فوق مقعد او تحت شجرة جميز مثـلا او في الحمام .. والجزار هو من يذبــح فرع شجرة ويتخيل انه يذبح خروفـاً .. وضحكوا جميعاً .. مدحت وسمير وميدو غير اني لم اشاركهم الضحك هذه المرة .

على أي الأحوال سأكتب كتاباً ولن أكتفي فقط بالاحساس بأنني كاتب.. الموضوع اختمر في ذهني تماماً وليس علي سوى أن أبدأ كتابتــه .. وسأبدأ اليوم بعد أن أعود من البار .

هل يمكن اذن أن تقول لنا عن موضوع كتابك هذا إذا كنت جاداً إلى هذا الحد .. التفت ناحيــة « علبة » الذي كان منهمكاً في تلميع حذاء أحد الزبائن والذي كان في حالة قذارة شديدة من جراء الطين الذي يملأ الشوارع

إذ كنا في احدى امسيات الشتاء الباردة المطيرة وكان المطر الغزير الذي انهمر ساعات طويلة أثناء النهار قد حول الشوارع الى برك من الطين والماء الموحل .

لمعت عيناي بدفء حقيقي وأنا اشير الى علبة .. سيكون كتابي القادم عن علبة .. ما رأيكما وصاح مدحت وسمير في نفس واحد علبة .. غير معقول .. ما الذي تراه فيه حق تكتب عنه .. لماذا لا تكتب عنا نحن الاثنين .. اننا نعجبك كثيراً .. وضحكا من قلبيهما .

أرجوكما تكلما بجدية مرة واحدة في حياتكما .. المفروض أنني أكتب عن الحياة .. عن شخصيات انسانية حقيقية .. شخصيات أعرفها جيداً حتى يمكنني أن اصورها بصدق وحقيقية .

صاح مدحت .. غبي .. أن علبة شخصية تافهة .. لماذا لا تختار شخصية عظيمة .. نابليون بونابرت مثلاً أو ميكي ماوس .

أنك تعود الى السخرية من جديد .

على أي الأحوال أنني أرجو لك أن تنجح لكن اختيارك لشخصية عادية تجد مثلها ملايين في هذا العالم هو بداية سيئة لك ككاتب وسط طوفان من كتب الجنس والعنف والجريمة .. بالمناسبة لماذا لا تكتب كتاباً من هذا النوع انه مضمون النجاح .

أنني سأكتب عن علبة .. عن شخصية انسانية أعرفها ولن أبتذل قلمي في الكتابة في موضوعات الجنس الرخيص أو العنف أو الجريمة .. ثم أن في حياة علبة قصة تستحق أن تروى .

وهنا قال سمير .. أتعني تلك القصة القديمة التي شبعنا منها .

نعم .. انها تصلح مادة مشوقة لقصة مثيرة وساشير اليها بالتأكيد عندما اكتب قصة علبة .

وهنا صاح مدحت منادياً علبة الذي كان قد فرغ من مسح حذاء الزبون فأتى وهو يحمل صندوق الأحذية بيد وبيده الاخرى يحمل الفرشاة وقطع القماش التي يستعملها في مسح الأحذية .. فوق وجهه آيات من الحيرة والبؤس الحقيقي .. سنواته الستين حفرت أخاديد عميقة فوق وجهه وحول عينيه اللتين مسحت منهما بريق الشباب والحيوية القديمة فأنت لا تعرف لونهما الحقيقي .. انهما فقط عينان للأبصار.. أدنى درجات الأبصار.. عظام وجهه بارزة الى الأمام .. فوقها جلد ملتصق تماماً خالي من اللحم فوقه كثير من الشعرات البيضاء النابتة .. يرتدي جلباباً متسخاً وممزقاً وفوقه جاكته قديمة بليت في اكثر من مكان فرتقها بعديد من الخيوط البيضاء الظاهرة .

علبة .. تعالى هنا .

تريد ان تمسح يا بيه .

كلا ولكن اريد ان ابلغك خبراً سيسعدك كثير .

خبر يسعدني أنا .. ما هو يا بيه .. تكلم .. سأكسب نقوداً .

اكثر يا علبة .. اكثر .. ستصبح شهيراً وسيتكلم عنك الناس.. قالها وهو يضحك ويلوح بيده في الهواء بطريقة جعلت كل الموجودين في البار ينفجرون بالضحك ويرهفون آذانهم لسماع انفجار ضاحك آخر يدوي في المكان .

علبة غير المصدق الذي انتابته حالة سرور خفي مدهوش يتساءل قائلاً.. أنا ساصبح شهيراً .. ماذا سأعمل يا بيه .. سأظهر في السينما .

سيما إيه يا غبي الا اذا كانوا سيظهرونك في دور احدب نوتردام مثلاً أو شيتا او الآنسة حنفي .. ودوى المكان بالضحك من جديد .

هل تسخر مني يا بيه .

كلا انني اتكلم جاداً .. البيه .. مشيراً اليّ سيكتب عنك كتاباً .

قلت موجهاً الكلام الى مدحت بغضب .. دعه يذهب يا مدحت .

اننا لا نريد شراً به .. اننا نضحك فقط ونمضي وقتاً سعيداً .. انك لا تريد ان تحرمنا من ذلك أليس كذلك .

ليس على حساب انسان آخر يا مدحت .. اذهب يا علبة الآن .

ولكن مدحت قال بسرعة .. انني أتكلم جاداً يا علبة .. هذا البيه .. مشيراً ناحيتي من جديد سيجعلك شهيراً جداً مثل رابسو أو الكوكاكولا .

والتفت علبة إليّ وقد لمعت عيناه بحزن دفين وعميق وتباعدت أصداء الضحكات والسخريات كأنها غير موجودة بالنسبة له رغم انها كانت تدوي على بعد سنتيمترات قليلة منه والتقى بصرانا في لحظة تحمل شحنة صدق وحقيقة انسانية عميقة .. هل حقاً ستكتب قصتي يا استاذ أحمد .

نعم يا علبة .. هل لديك مانع .

مانع .. وهل يمكن ان يكون لدي مانع وأنت الذي ستكتبها .

كل ما أرجوه منك أن تكتبها بصدق وأن تشير إلى القصة التي تعرفها .

ساشير اليها يا علبة .. سأكتب كل شيء أعرفه عنها .. لكنك لن تصبح شهيراً ولا أنا أيضاً .

اكتب .. اكتب فقط هذا كل ما يهمني .. وضع علبة صندوق الأحذية على الأرض كأنه القى بكل همومه من فوق كاهله وجلس الى جوار الصندوق وطبقة لامعة من دموع شفافة لا تكاد ترى تغطي مقلتيه الحزينتين .. قصتي تستحق ان تروى يا استاذ أحمد وهذا الكلام موجه لكم يا بهوات .. خمسون عاماً اعمل ماسح أحذية في هذا المقهى .. ابتدأت في سن العاشرة .. كفاح يوم بيوم .. إذا لم أعمل أجوع وتجوع معي زوجتي وأولادي .. تحملت رذائل زبائن المقهى والبار وطلباتهم التي لا تنتهي وأحياناً نزواتهم .. عرفت طباعهم ..

أخلاقهم .. الوضيع والشهم والشجاع .. اكتب قصتي وسأقول لـك عن كل شيء تطلبه مني بصدق وصراحة .

خيم جو صامت حزين على ارجاء البار وعلبة يقوم ويحمـل صندوق الأحذية ويغادر البار والكل يشيعونه بأبصارهم في وجوم .

قال مدحت وهو يتنهد في راحة شديدة إثر خروج علبة من البار .. قلبها بغم المغفل ده .. لكن مسكين على أي حـال اكتب عنه يا احمد فأنا اعتقد ان في حياته ما يستحق ان تكتب عنه .

هل رأيتم بأنفسكم .. اين يمكنني ان اجد شخصية غنية .. انسانية الملامح استطيع ان اكتب عنها بصدق لأني اعرفها جيداً كعلبة المسكين .. ان علبة من وجهة نظري ككاتب اهم من نابليون بونابرت او آينشتاين قال سمير ضاحكاً بعد ان افرغ باقي الكأس في جوفه .. المهم ان تكتب وتخلصنا .

سأبدأ الكتابة الليلة فور عودتي الى البيت .

تمسح يا بيه .. وتطلعت الى وجه عاش قسوة الكفاح اليومي من اجـل الرزق بفظاعة متوحشة .. بصبر عميق مؤلم يطل من عينيه الداكنتين الخاليتين من البريق .. وجه برونزي محروق يرتكز فوق اوتاد من عظام ونتوآت بارزة تخترقه تجاعيد طولية وعرضية عميقة حفرتها سنواته الخمسون .. نحيل .. قوي .. اشبه بجذع نخلة عتيقة ما تزال راسخة في الأرض رغم سنوات عمرها الطويلة .. جلباب باهت ممزق مرصع بدوائر الوان الورنيش المختلفة .. حذاء ممزق عتيق تكاد تظهر منه صوابعه الضخمة الشبيهة بصوابع فيل كبير الحجم .. جاكته بالية مرتقة يرتديها فوق الجلباب .. انحناءة خفيفة من كتفيه المقوستين الى الأمام وهو واقف امـامي ينتظر اشارة واحدة مني ليسرع بالجلوس على الأرض والبدء في مسح الحذاء .. اعتزاز شديد بالنفس مع تواضع غير مصطنع .. صندوق الورنيش في يد والفرشاة وقطع القماش في اليد الاخرى .. ابتهال صامت حزين في عينيه يقاومه ذلك البريق لكبرياء عنيدة يطل منهما .

كانت المرة الأولى التي أراه فيهـــا .. شيء ما شدني اليه .. إلى الوجه الصارم المتألم .. إلى الدعوة الصامتة في عينيه .. دعوته لمسح حذائي .. تبدد ذلـك التوتر في قسمات وجهه على الفور وارتخت أعصابه المشدودة .. جلس القرفصاء أمامي ثم وضع صندوق الأحذية على الأرض طالبـــاً مني أن أضع حذائي فوقه ثم انهمك في مسح الحذاء بعناية شديدة .

حذاء لميع جميل يا بيه .. عندك ذوق بصحيح .

دائماً أحب الأحذية اللميع .

لكنها تكلفك كثيراً يا بيه .

نعم ولكن النقود ليست هامة في شيء إذا أراد الإنسان أن يستمتع بالحياة .

معك حق يا بيه .. عندي سؤال يا بيه .. البيه أول مرة يشرّف فيهـــا القهوة .

نعم أول مرة .

وهل تسكن مصر الجديدة أيضاً يا بيه ؟

نعم بالقرب من القهوة .

والبيه لا مؤاخذة عازب أم متزوج ؟

عازب وأقيم مع عائلتي .

لا مؤاخذة يا بيه من كثرة الأسئـــلة لكن أنا الزبون الذي أرتاح له هو وحده الذي أوجه له أسئلة كثيرة .

خذ راحتك .. انك لا تضايقني البتة .

والبيه لا مؤاخذة بيشتغل والا لسه تلميذ .

طالب بكلية الآداب .

وفكر علبه طويلا ثم قال..ودى يعني بطلّع مهندسين والا دكاتره يا بيه .

ضحك من جانبي .. لا مهندسين ولا دكاتره .

أمال بطلّع ايه لا مؤاخذة .

على حسب ممكن تطلّع مدرسين أو موظفين في مصالح الحكومة جالسين على مكاتب وبيمضوا أوراق وفي القليل جداً تطلّع كتّاب حقيقيين .

قصدك كتاب مانيفاتوره يعني .

ضحك أعلى من جانبي .. لا .. كتّاب يعني بيكتبوا كتب .. قصص .. مسرحيات .. تمثيليات .

آه فهمت .. وحضرتك بقى ناوي تطلع كاتب مثل هؤلاء .

ناوي ومش ناوي .

إيه دي بقى فذوره ولا أيه يا بيه .

لا فذوره ولا حاجه .. الكتابة فن والإنسان لا يستطيع أن يقول انه ناوي في الفن .. يستطيع أن يقول إنه ناوي في أي شيء آخر إلا الفن .

وإذا أصبحت كاتباً ناوي تكتب عن أيه ان شاء الله .

وفكرت قليلا وعيناي تختلسان نظرة متفحصة عميقة الى وجه ماسح الأحذية المكدود في الوقت الذي بدا فيه منهمكاً في مسح الحذاء .. سأكتب عن الناس الذين أعرفهم عن قرب .. ناس مثلك تماماً .

مثلي أنا .. ربنا يخليك يا بيه .. والله أنا قلبي انفتح لك وان شاء الله ربنا حيوفقك وستصبح كاتب كبير قد الدنيا بس ساعتها ابقى افتكرني .

واسم الكريم ايه ان شاء الله .

احمد .

عاشت الأسامي يا سي احمد .. وأنا محسوبك علبه .. وعلى الفور اختلس نظرة سريعة متوجسة الى وجهي بعد أن نطق اسمه الغريب المضحك كأنه كان يتوقع ما سيحدث بعد ذلك .. وكدت انفجر بالضحك لكني بذلت مجهوداً كبيراً لأمنع فقاعات الضحك التي تنفخ أوداجي من أن تنطلق في الهواء .

علبه .. اسمك علبه .

نعم علبه .. هل هذا أمر غريب ان اسمي علبه .

وضحكت قائلا كلا.. كلا.. وحتى إذا سموك تراموای أو موسى حلاقة أو فردة كاوتشوك ليس في هذا أية غرابة على الاطلاق .

هل تسخر مني يا استاذ وأنا الذي أقول عنك انك ابن ناس ومتربي .

كلا انني لا أسخر منك كل ما في الأمر انك فاجأتني باسمك الغريب وأظنك توافقني على أنه اسم غريب ومضحك أيضاً .

معك حق يا استاذ ولكني لا اسمح لأحد ان يضحك على اسمي أبداً .. ألم تسمع من قبل عن رجل اسمه فار او كشك او ملوخية إذن ما وجه الغرابة في ان يسمونني علبة .. على أي الأحوال انه ليس اسمي الحقيقي ولكن اسم الشهرة..اسمي الحقيقي عبد القوي من مديرية أسيوط..صعيدي جواني يعني .

إذن من أين جاءك اسم علبة هذا ؟

الناس الله يلعنهم هم الذين سموني علبة .. اذكر واحداً منهم هو اول من ناداني بهذا الاسم .. معلم في قهوة بلدي عملت فيها مع والدي .. كان ايضاً ماسح احذية..هذا المعلم رآني يوماً وانا امسك صندوق الأحذية بيدي الصغيرة وأدور به على رواد المقهى .. الصندوق يجي نصف جسمي .. كان عمري وقتها اقل من عشر سنوات وكانت علب الورنيش اكبر من اصابع يدي

الصغيرة وانا احاول بصعوبة ان افتحهـا .. نادى علي قائـلا .. تعالى هنا يا واد يا علبة.. قالها وهو يضحك ومنذ ذلك اليوم اصبحت علبة .. كل الناس ينادونني بهذا الاسم حتى نسوا ونسيت معهم اسمي الحقيقي..عبد القوي حق أبويا اللي مخلفني نسي اسمي ايضاً واصبح يناديني كسائر الناس علبة.. وصمت قليلا قبل أن يتابع وقد تهللت أساريره و كأنه استرجع ذكريات قديمة عزيزة عليه .. وانت بقى يا استاذ لما تكتب ان شاء الله حيسموك ايه بقى قلم والا دوايه وضحك من قلبه لكنه اسرع قائلا .. أرجو ألا تغضب مني يا استاذ أصل النكتة حبكت .. والله دمك خفيف يا علبة وبتعرف تنكت .. خذ سيجارة .

تشكر يا أمير .

هكذا بدأت صداقتي ومعرفتي لعلبة .. صداقـة امتدت لأكثر من عشر سنوات كنت أرى فيهـا علبة كل يوم واضع حذائي فوق صندوقه الصغير وأسمع منه ويستمع إليّ وأعطيه السجائر ويقوم لي ببعض الخدمات الصغيرة فعلبة ليس فقط ماسح أحذية ولكنه على استعداد للقيام بكل المهام التي توكل اليه بشرط واحد هو لا تمس كرامته .

في الصباح الباكر يكون علبة النشيط واقفاً مع عمال المقهى مشمراً عن جلبابه القديم يمسح ويكنس التراس العريض ويعيد وضع المقـاعد والموائد المكومة في أماكنها المعتادة ويضع فوقهـا المفارش البيضاء المكوية ومطافىء السجائر ثم تأتي عربتا الخضار واللحم فيقوم علبة بتفريغهما مع الحوذي وصبية وبعض عمال المحل ويحمل البضائع معهم إلى داخل المطبخ .. وعندمـا يبدأ زوار المقهى في القدوم اليها بعد أن تكون الشمس قد أشرقت منذ فترة طويلة يكون علبة بصندوقه الأنيق واقفاً في انتظـار الأحذية المتسخة ليعيد تلميعها من جديد .. وعندما يسقط المطر على المقهى يسرع علبة برفع تندات القماش

السميكة على الفور فوق الموائد والمقاعد ثم يبدأ في نزح المياه من التراس الفسيح بمقشة ذات يد طويلة وقد خلع جلبابه واكتفى بملابسه الداخلية الغريبة .. الصديري المخطط والسروال الطويل .

كان علبة يقوم بكل هذه الأعمال وبخدمة زبائن المقهى ومسح أحذيتهم من أجل أن يبقى في المقهى الكبير ذي الطابع الأوروبي والذي يؤمه ناس من طبقات قادرة طول اليوم وجانباً كبيراً من الليل .

أحياناً كنت أرسل علبة ليبتاع لي سندويش فول من المطعم القريب أو علبة سجائر أو بعض الفاكهة أو زجاجة نبيذ أو براندي أحملها معي وأنا عائد إلى البيت وكنت أنفحه بقشيشاً سخياً فيتفانى أكثر في خدمتي لكن علبة لم يكن يقبل على نفسه القيام بأي عمل يمس كرامته مهما كان المبلغ الذي يخسره من جراء رفضه القيام بذلك العمل .

وما زلت أذكر ذلك اليوم الذي ضرب علبة فيه صاحب أسخف وأغلس دم في المقهى كله .. « روميو » كما كنا نسميه أو « فالنتينو » .. كان علبة في ذلك اليوم يكاد يستجدي رواد المقهى القلائل كي يمسحوا أحذيتهم المتسخة .. كان اليوم مطيراً والأوحال وبرك المياه الراكدة تملأ الشوارع خارج المقهى وربما لذلك آثر معظم رواد المقهى أن تبقى أحذيتهم متسخة لأنها ستتسخ بالضرورة فور خروجهم من المقهى ولم يدر بخلدهم أنهم يحكمون بذلك على علبة المسكين وعائلته بالجوع أو ربما فكروا في ذلك ولم يبالوا فلا شيء يمنح بلا مقابل في هذا العالم واذا استمرت الأمطار يمكن أن يستمر جوع علبة وعائلته بضعة أيام اخرى .

ناديت علبة وقد أحسست بمأساته الأليمة وطلبت منه أن يمسح الحذاء وعندما انتهى من مسحه أعطيته عشرة قروش وحاول علبة الأبي النفس أن

يمتنع عن أخذ القروش العشرة التي أعطيتها له لكني أصررت على ذلك فأخذها علبة متردداً وهو يشكرني من أعماقه ويدعو لي .

كنت جالساً في البار كالعادة ذلك المساء والمدفأة الكهربائيـــة مشتعلة وصوت المطر في الخارج لذيذ ومخدر للأعصاب وكان أمامي كأس من البراندي وبضع شرائح من البطاطس الشبس أضعها في فمي وأتلذذ بسماع صوتهـا وهو يتكسر تحت أسناني وكان يمكن لكل شيء أن يمضي بهدوء كالعادة.. تنطفىء أنوار المقهى ويغادر علبة وباقي الجرسونات المقهى إلى بيوتهـم وتتكرر قصة كل يوم أو مأساة كل يوم .

فجأة دخل فالنتينو إلى البار.. كنا جميعاً نستسخفه وأكاد أقول نكرهه.. كان وسيما جداً وشاباً جداً ومغروراً جداً ولا يعترف بأي قيم على الاطلاق.. يملك سيارة سبور صغيرة ذات سرينة عالية يطلقها وهو يجري بسرعة مائة كيلو في شوارع الضاحية الهادئة .. لم توجد امرأة واحدة أو فتـاة في هذه الضاحية لم يماكسها فالنتينو هذا .

كان يأتي غالباً مع شلة من الشبـان الرقعاء من أمثاله ليقلبوا هدوء المقهى الى جحيم وكثيراً ما كنت أراه في المطعم أو التراس جالساً مع امرأة وكنت اتعجب من أين يأتي بكل هذا العدد الكبير من النساء .

كان ثقيلاً على قلوبنا وكان يأتي الى المقهى لنكرهه أكثر لكن لم يكن في مقدورنا أن نمنعه من المجيء فقط كنـــا نتمنى أن تحدث له كارثة تمنعه من الحضور إلى المقهى .

دخل الشاب الوسيم المتعجرف الى البار بطريقته المغرورة التي لا يخطئهـا احد .. جلس الى احدى الموائد .. طلب زجاجة بيره بالمـازه .. بدأ يشرب بشراهة وهو يدور بعينيه في أرجاء البار كأنه يبحث عن شيء ما .. امرأة او مشاجرة.. دخلت بعده امرأة صغيرة من النوع الذي تعودنا أن نراه كثيراً

في البار خاصة في المساء .. كانت وجهاً جديداً أتت الى البار بضعة مرات من قبل .. لم نرها مع احد لكن الذكاء لم يكن ينقصنا لندرك انها أتت الى هذا المكاد لتصطاد رجلاً ما .. كانت تجلس الى مائدة متطرفة في البـار وأمامها زجاجة بيرة وطبق من المازة المخصوص التي كان يعدها لهـا ميدو كل مساء ويبدو ان طبق المازة هذا كان هو كل عشاها .. كانت جميـلة .. رقيقة .. حزينة كأنها أتت الى هذا المكان خطأ وستغادره على الفور .. لم تكن هناك أصباغ كثيرة في وجهها ويبدو انها كانت مـا تزال واقفة في بداية الطريق الطويل الى تلك الاصباغ اللعينة..وتمنيت أن تخرج من البار وألا تعود أبداً.. وأبصرتها العينان المدربتان الوقحتان .. عينا الذئب الوسيم .. وبدأ يضايقها بحركاته المكشوفة ونظراته الجريئـة الوقحة غير عابىء بنظرات الاستنكار التي يوجهها اليه رواد البار .

فجأة نادى على علبة ماسح الأحذية الذي كان جالساً في أحد اركان البار يكاد النعاس يغلبه بعد المجهود الشاق الذي بذله طول النهار .

قام علبة متثاقلاً من فوق صندوق الأحذية الصغير وهو يحمد الله على هذا الزبون الذي جاءه على غير انتظار .

طلب منه الشاب أن يمسح له الحـذاء .. علبة منهمك في عمله .. يلاحظ بين الفينة والأخرى الحركات الوقحـة التي يقوم بهـا الشاب مستهدفاً المرأة الصغيرة الجالسة في آخر البـار .. علبة يعلو وجهه الضيق .. يظهر ذلك في الحركات العصبية التي يقوم بها وهو يمسح الحـــذاء .. فرغ بسرعة من مسح الحذاء .. رفع بصره وقال للشاب بشيء من الجفاء والقرف .. خلاص الجزمة تلمعت يا استاذ .

بسرعة كده .

هل كنت تريدني أن أمكث فيها ساعة .

تكلم بأدب هل تفهم .

يا فتاح يا عليم .. على أي الاحوال أنا لن أرد عليك .

ماذا تقول ؟

لا شيء خلصنا بقى .

قرّب .

ماذا تريد ؟

خذ خمسين قرشاً .. وتناول علبة الورقة ونظر اليها بحسرة شديدة وبنوع من الذهول الجائع .. لو انه يملكها لما انتظر اكثر من ذلك في البار ولعاد لأسرته على الفور حاملاً لها طعاماً وفيراً .. مد علبة يده الى الشاب بالورقة قائــلا .

ليس معي فكه .. شوف لنا قرشين خلينا نروح .

الخمسون قرشاً كلها لك .. قرب أذنيك .

وهمس الشاب بكلمات لم نسمعهــا في إذن علبة بان أثرهــا على الفور فوق وجهه الذي تحول فجأة الى كرة منفوخة بالدم الغاضب .. كانت فوق وجه الشاب ابتسامة غريبة وقحة وهو يشير ناحية الفتاة بيده .. ولم نكن بحاجة الى ذكاء كبير لنعرف ما الذي همس به الشاب في أذن علبة الذي قام فجأة وهو يحتقن من الغضب فقذف بالخمسين قرشاً في وجه الشاب الذي أذهلته المفاجأة فقام هو الآخر وأمسك علبة من ملابسه ودفعه دفعة قوية الى الوراء سقط بعدها على الأرض بعد أن تعثر في صندوق الأحذية .

توقعنا شراً فنظرات التحفز والكراهية تطل من عيني علبة وكل قسمة من قسمات وجهه فعلبة الجائع .. الساخط .. الغاضب ليس بالذي يعامل على هذا النحو .. ليس الآن وليس من هذا الانسان .

قام علبة من على الأرض .. نحى صندوق الأحذية بقدمه وهو يتقدم ناحية الشاب بتصميم غريب مفجع .. بنوع من الجمود الذاهل كأنه إنسان آلي لن يتراجع أبداً الى الوراء..امتدت يده الى المائدة التي يجلس اليها الشاب وقذفتها إلى الأرض بكل ما عليها .

ذهل كل من في البار وسيطر عليهم الوجوم الشديد.. أمسك علبة الشاب من قميصه بعنف.. عاجله بروسيه في أنفه أسالت دمه.. أخذ يجذبه من قميصه الذي تمزق في يده وهو يكيل له لكمات قوية مجنونة في كل وجهه الذي تغطى بالدماء الغزيرة .. علبة يصرخ في وجه الشاب بجنون وهو مـــا يزال يضربه ويهزه بعنف شديد .

انا تعرسني يا نتن .. ما شأني انا بها أو بك .. إنها أمامك لماذا لا تذهب اليها بنفسك إذا كنت تريدهـــا .. لقد جئت الى هذا المكان لآكل عيشي بشرف .. طول حياتي آكل عيشي بشرف ثم تـــأتي أنت وتريد أن توسخه على آخر الزمن .. اخص عليك رجل ما تختشيش .

قمت لأهدىء من ثائرة علبة الذي بـــدا أشبه بثور هائج متوحش يرى جدراناً حمراء تتحرك من حوله .. معليش يا علبة سامحه .. ألا تعرف انه انسان وقح بلا اخلاق .. مـــاذا كنت تنتظر منه .. ثم وجهت كلامي الى الشاب قائلا .

أما أنت فاغسل وجهك واذهب من هنا على الفور لأنك لو بقيت فليس من المستبعد أن يقضي عليك علبة .

ودخل الشاب إلى التواليت وغسل وجهـــه وخرج وهو ينظر إلى علبة نظرات غاضبة ويتوعده بالانتقام .

حاول علبة أن يهجم على الشاب من جديد لكننا حلنا بينه وبين الوصول

اليه .. وأسرع الشاب خارجاً من البار وهو يهدد بالقدوم من جديد للانتقام من علبة .

علبة .. أسرع بالخروج الآن وعد إلى منزلك .. هذا الشاب يضمر شراً لك .. سيعود من جديد ومعه شلة كبيرة .

لهذا السبب سأبقى في البار ولن أفر أبداً .

لا تكن عنيداً يا علبة .. عد إلى منزلك الآن اسرتك في انتظارك والوقت تأخر .

أنا يعرسني .. أنا .

يا علبة ما تكبرش الموضوع بقى .. ماذا طلب منك الشاب سوى مجرد توصيل رسالة لامرأة نعرف جميعاً لماذا أتت إلى هذا المكان .. ماذا كان يضيرك لو أنك أوصلت هذه الرسالة إلى المرأة وأخذت الخمسين قرشاً التي أعطاها لك الشاب وعدت سالماً لامرتك ومعك طعام وفير ألم يكن ذلك أجدى لك وللشاب الذي ضربته علقة ساخنة بلا مبرر .

لا انه ليس أنت الذي يقول هذا الكلام يا استاذ .. ليس أنت .

يا علبة .. أرجو ألا تفهمني خطأ لكن المسألة بسيطة وكانت لا تحتمل كل هذا الغضب من جانبك وانظر الآن ماذا سيحدث بعد ذلك .

ليحدث ما يحدث أنني لست خائفاً .

لم يقل أحد انك خائف لكن المسألة بسيطة وليس فيها أي شيء على الاطلاق يمس كرامتك .

بل فيها الكثير جداً يا استاذ يمس كرامتي .. فيها إني أفقد رجولتي .. احترامي لنفسي .. إن الأفندي الرقيع هذا لا يحترمني بعد ذلك .. ان انظر إلى الأرض عندما أراه أمامي.. أن الطعام الذي سآخذه إلى زوجتي وأولادي

سيتحول إلى سم في بطونهم وبطني .. هل عرفت الآن يا استـاذ فيها إيه المسألة البسيطة دي .

طيب حقك علي يا علبة والآن قم وعد إلى اسرتك ولا تكن عنيداً .

كلا لن أعود الآن وسأبقى في البار لأرى آخرتها معاه .

يا علبة لا تكن عنيداً .

لأ يعني لأ .

حسناً خذ الخمسين قرشاً التي أعطاها لك الشاب خسارة فيه .. انها ملقاة هناك على الأرض إلى جوار المائدة المقلوبة .. خذها يا علبة .

وقام علبة وأخذ الخمسين قرشاً وأمسكهـا بيده بالقرب من عينيه وأخذ يدور بها أمام وجهه ثم قام بتمزيقها قطعاً صغيرة جداً والقى بها على الأرض.

علبة .. علبة أنت لم ولن تتغير أبداً .

خذ سيجارة يا علبة .. وأشعلتها له وانا اشعر براحة عميقة .

ارجو ألا تكون غاضب مني يا علبة .. اننى اقصد مصلحتك .

ابداً يا استاذ لكن انت قلت كلام يجرح قوي .

لم اقصده على هذا النحو يا علبة واظنك تعلم ذلك .

اعلم يا استاذ ومن أجل هذا لست غاضباً منك .

دخل الشاب الوسيم فجأة ومعه احد جنود الشرطة .

ها هو الرجل الذي تشاجر معي يا شاويش اقبض عليه .

قم معي إلى القسم يا راجل انت .

وضع علبة صندوق الأحذية في احد جوانب البـار ومضى في صمت مع الشاب ورجل الشرطة . .

هل آتي معك يا علبة .

كلا يا استاذ انا سأتصرف وحدي .

كان الليل بارداً في الخارج والأرض موحلة من بقايا الأمطـار ودعا رجل الشرطة علبة للركوب معه في سيارة الشاب لكن علبة رفض ذلك بإصرار واصر على الذهاب ماشياً على قدميه إلى قسم الشرطة .

لا تتأخر اذن وإلا فلا تلومن إلا نفسك .

لن اتأخر .

في الصباح رأيت علبة ساخطاً .

كلهم كانوا معه يا استاذ .. يبدو انه يعرف احداً هناك او انه اعطـاهم رشوة .. ضربوني بالأقلام على وجهي .. تصور انا الرجـــل العجوز المكافح اضرب على وجهي ومن اجل هذا الرقيـع .. ولمحت دمعة في عيني علبة الذي ادار وجهه إلى الناحية الاخرى عندما رآني انظر إلى عينيه .. وطلبت لعلبة كوباً من الشاي واعطيته سيجارة اشعلتها له وطلبت منه ان يمسح حذائي .. دائماً كان علبة المسكين ينتهي إلى مسح احذية الآخرين حتى عندمـا يريد انسان ما ان يسترضيه .

علبة خذ جنيهاً واذهب لتبتاع لي علبــة سجائر وبعض الفاكهة .. اثناء غياب علبة طلبت غذاء من المطعم .. كنت اجلس إلى مائدة انيقة فوقهـا مفرش ابيض ناصع وفوق المفرش زجاجة بيرة مثلجة.. طبق فاخر من اللحم حوله شرائح من البطاطس الشبس وبعض الخضار السوتية.. طبق من السلاطة الخضراء ثم طبق آخر من الأرز بالكبد والكلاوي .

كنت اكل باستمتاع برجوازي شديد عندما وجدت علبــة فجأة واقفاً امامي .. بيده علبة السجائر وكيس به الفاكهة وباليد الاخرى باقي النقود.. كانت قطعة اللحم الصغيرة العالقة بالشوكة في طريقها الى فمي عندما توقفت يدي في اللحظة الأخيرة ومن ثم اعدت قطعة اللحم الصغيرة وهي ما تزال

عالقة بالشوكة الى الطبق وانا اشعر بخجل شديد من عيني علبة الشاخصتين إليّ وفوقهما تعبير صامت لا معنى له ذو شفافية حزينـــة .. تعبير اشعرني بالارتباك والخجل من علبة .. بمنتهى العار من نفسي .

كانت المرة الاولى التي يراني فيها علبة آكل في المطعم وكانت المرة الاولى التي أحس فيها بكيـــان علبة البائس .. اللحم والدم والأعصاب والكرامـة مجسدة أمامي كما لم تتجسد من قبـــل .. كان اللحم الوفير والمفرش الأنيق وزجاجـة البيرة المثلجة وعينا علبة ذاتا التعبير الصـامت الذي لا يفصح عن شيء .. كانت كلها بحراً من الفراغ يفصل بيني وبين انسان في القاع .

أنني أعلم أن علبة يحبني لكن ما الذي يجعلني متأكداً من شعور واخلاص انسان جائع محروم يرى انساناً آخر يأكل طعامـاً يكفي اسرة بأكملهـا .. طعاماً فاخراً لا يطمع علبة بأن يأكله حتى في الحلم .

ولم أقوى على رفع بصري إلى عيني علبة الشاخصتين إليّ .. أخذت منه باقي النقود وطلبت منه أن يضع الأشياء التي ابتاعهـــا فوق مقعد خالٍ إلى جوار المائدة ونفحته بقشيشاً سخياً وأنا احاول ايهام نفسي بأن هذه المنحة السخية ستعيد الهدوء إلى ضميري الذي تحرك في مكانه .. الهدوء إلى أعصابي المضطربة التي تشعر بمنتهى العار والارتباك ولم استرح إلا بعد أن خرج علبة من المطعم وامتدت يدي في تلك اللحظة الى الشوكة العالقـة بها قطعة اللحم الصغيرة ورفعتها الى فمي وشعرت بمرارة اللحم لأول مرة في حياتي .. بأنني ألوك قطعة صغيرة من الكاوتشوك في فمي ثم أدفع بها الى معدتي وأطلب منها في استحالة كاملة أن تهضمها .

وتخيلت علبة في طريقه الى البيت بعد يوم عمل طويل مرهق في المقهى .. سائراً في تلك الشوارع الموحلة الضيقة على حافـة المدينة حيث تفوح رائحة الزرع الأخضر والأرض المروية الخصبة وروث البهائم وافران الخبز وتدوي

أصوات الضفادع وطلقات رصاص الخفراء وأصوات الظلام الدامس.. في يده بضعة أرغفة صغيرة من الخبز الأسود .. قرطاس من الطعمية .. حزمة من الفجل وبعض ثمرات من الطماطم ليتناول عشائه مع زوجته وأولاده القابعين في انتظاره داخل الحجرة الصغيرة التي يسكنونها .. وأحسست أن كل الطعام الموجود أمامي تحول الى كاوتشوك وأنني لا أتذوقه على الاطلاق وان معدتي ستعجز للمرة الاولى عن هضمه .

وقررت أن أتجنب في المستقبل تلك النظرة في عيني علبة وألا أتناول أي طعام أمامه .. ان علبة ليس مجرد ماسح أحذية بالنسبة لي لكنه صديق أحترمه ولا يمكن أن أضع نفسي أو أضعه في مثل هذا الموقف الحرج مرة اخرى .

خبط علبة بفرشاة الأحذية على أحد جوانب الصندوق كاشارة منه كي ابدل من وضع القدمين فوقه .. فعلت ذلك بحركة تلقائية كحركة علبة عندما خبط على الصندوق .

لاحظت ان علبة يبدو مهموماً بصورة غير عادية .. لا يضحك أو يتبادل معي سوى القدر الضروري من الكلمات .

ما لك يا علبة .. هل حدث شيء لك .

بنتي يا استاذ احمد .. نقلناها الى المستشفى بالليل .. عملوا لها عملية فتح بطن .. خايف عليها قوي يا استاذ .

شد حيلك يا علبة .. ربنا معاها .. خذ هذا الجنيه وابتاع لها بعض الفاكهة وأنت ذاهب إلى المستشفى .

هذا كثير جداً يا استاذ لكن كتر خيرك على كل حال .

ونظر علبة إلى الجنيه وقال بأسى..لكن ده حيعمل ايه والا ايه يا رب..

المصاريف كثيرة قوي يا استاذ .. ست أولاد وأمهم والآن هذه المصيبة .. مش عارف اعمل ايه .

لا تهتم كثيراً يا علبة ومن ناحيتي سأحاول أن أجمع لك ما أقدر عليه من الاخوان عندما أراهم في المساء .

أشكرك يا استاذ .

انتهى علبة من مسح الحذاء وحاولت أن أعطيه القرشين ثمن عمليـة المسح لكنه رفض بإباء قائلا بعتاب شديد .

بقى تبقى لسه مديني جنيه وتريدني أن آخذ منك قرشين ثمن المسحة .. لا هذا كثير جداً يا استاذ .. عيب والله .

وصمت قليلا قبل أن يتـــابع وقد امتلأت عيناه بالدموع فمسحها بكوم جاكتته .

تعرف يا استاذ ماذا أريد الآن .. أن تخرج ابنتي بالسلامة من المستشفى ولا تموت وبعدهـــا أنا مستعد أن اموت بدلاً منهـــا .. الضنى غالي قوي يا استاذ .

ابنتك ستعيش يا علبة وأنت ايضاً ستعيش .. انت تستحق أن تعيش .

جمع علبة علب الورنيش وقطـــع القماش التي يستعملها في عملية المسح ووضعها داخل الصندوق الصغير ثم وقف على قدميه ودار ببصره في أرجـاء المقهى وفي تلك اللحظة نادى عليه زبون فتنبه علبة على الفور كأنه صقر لمح حمامة تطير الى جانبه وذهب إلى الزبون ووضع صندوق الأحذية من جـديد على الأرض وأخرج منه علب الورنيش وقطع القماش وأخذ يمارس نفس العمل الروتيني الذي سبق له أن مارسه آلاف المرات من قبل دون أن يحس بالملل .

أخذت أفكر في علبة كنموذج انساني غريب وفـــذ .. كرمز لآلاف المطحونين مثله في هذا العالم هل هو انسان سعيد .. هل هو تعيس .. ومن منا

السعيد في هذا العالم .. هل الرجل الذي يجلس علبة الآن ليمسح له الحذاء سعيد .. هل المرأة الجالسة في البار سعيدة .. هل ميدو سعيد .. هل أنا أو أي جرسون في المقهى سعداء .

إن مأساة علبة ان الظروف الأقوى منه فرضت عليه أن يكسب معاشه من مسح احذية الآخرين .. واحدة من المهن الأكثر انحطاطاً ومشقة في العالم لكنها ضرورية كمهنة عالم الذرة تماماً .. فماذا يحدث للعالم لو اتسخت أحذية الناس ثم وجوههم ثم اخلاقهم . الظروف فرضت عليه ان تنحصر كل حياته في صندوق صغير من الخشب به علب صغيرة لامعة من الصفيح وقطع القماش الملوثة بعشرات من بقع الورنيش.. أن يضع فمه أو جيبه تحت صنبور شحيح يعطيه قطرة قطرة .. لو ان علبة ملك مالاً وفيراً لما اضطر الى مسح أحذية الآخرين ولأنف من ذلك ولوجد من يمسح له حذائه .. لكان الآن يأكل حتى يشبع.. يرتدي ملابس نظيفة أنيقة ويسكن بيتاً مناسباً ولكانت ابنته تلقى معاملة لائقة في مستشفى خاص ولا ما خشي عليها من الموت .

كان علبه يتأمل حذائي اللميع يوماً ما .. كان يبدو أقل هماً وأكثر استعداداً للمرح والثرثرة .. سألته لماذا ينظر إلى الحذاء هذه النظرة الغريبة أجاب قائلا .

طول عمري انظر الى أحذية الناس .. أنني لا أنظر كثيراً الى وجوههم.. دائماً الى أحذيتهم .. اعرف جميع الوانها وأنواعها وطرق صناعتها بل انني اسمي زبائن المقهى بيني وبين نفسي بأسماء وألوان احذيتهم .

انا مثلاً ماذا تسميني يا علبة .

ولا تغضب مني يا استاذ .

لن اغضب منك يا علبة .

ضحك وهو يقول .. اسميك الاستاذ اللميع .. اصلك لا مؤاخذة دائماً لابس لميع والاستاذ مدحت الاستاذ الكريب والاستاذ سمير نصف نعل .. وهناك الاستاذ الشمواه وابو كعب والبني والأسود والمخطط والعالي والواطي وأبو رقبة .

عالم يا استاذ عالم .. بذمتي الجزم دي عالم .. هل تستطيع أن تقول لي ماذا يحدث لك لو لم امسح لك الحذاء يومين على بعض بماذا تحس .

وأنا أضحك بشدة .

أحس بجسمي يأكلني واريد ان استحم .

وضحك علبة من قلبه وظهرت نصف أسنانه الباقية في فمه وأسرع قائلاً.. ألم أقل لك .

كان أمر تلك الجريمة البشعة قد ذاع في المقهى وفي الشوارع القريبة .. جريمة قتل السيدة العجوز التي تعيش بمفردها في الشقة الصغيرة المطلة على تراس المقهى حيث أشيع أنهم قتلوها من أجل نقود كثيرة تخفيها في خزانة ملابسها .

كنت أرى السيدة العجوز المريضة تخرج أحياناً الى الشرفة الصغيرة المطلة على المقهى لتستمتع بدفء الشمس في الصباح وكنت أرى احياناً أخرى شابة صغيرة تجلس معها وعلمت من علبة انها ابنتها المتزوجة وانها تأتي لرعاية أمها والقيام على شؤونها ثم تذهب بعد ذلك إلى منزلها .

قتل مجهولون تلك المرأة المسكينة من أجل السطو على نقودها ونشط البوليس لجمع التحريات من أجل ضبط القاتل أو القتلة المجهولين .. وبدأوا بسؤال بواب العمارة التي تسكن بها القتيلة وبوابوا العمارات المجاورة ثم جرسونات المقهى ومن بينهم علبة وعمال المحال التجارية دون أن يعثروا على القاتل .. وعلمت من علبة بعد أن عاد يوماً من النيابة حيث استجوبوه هناك

انهم عثروا على بضعة بصمات قليلة لم تتفق واحدة منهـا مع بصمات واحد من الذين استجوبوهم حتى الآن وانهم لذلك متأكدون ان القاتـل غريب عن الحي وانه ربمـا استعان بواحد من الذين يعرفون حياة القتيلة عن قرب وانهم سيستمرون في البحث والتحري حتى يعثروا على القاتل .

ومن في رأيك يمكن أن يكون قد ارتكب الجريمة يا علبة ؟

إنني أشك في رجل جاء إلى هنا يوم الحادث.. كان يجلس بالتراس وطلب مني مسح حذائه .. كان حذاءاً غريبـاً من الشمواه الأسود ذا نعل كريب أبيض متآكل ومتسخ .. وكان الشمواه قد نامت فروته وأصبح كالجـلد .. أصبح شبه أملس حتى انني نصحته بأن يقلب الحذاء الى جلد ليستريح وسألني عما إذا كان ذلك ممكنـاً فأجبته بأنني اعرف اسكافياً قريبـاً يمكنه أن يقوم بهذا العمل فقـال انه سيفكر في الأمر وربمـا ينفذه عندما يأتي الى المقهى في المرة القادمة .. إنه حذاء استطيع أن أميزه من بين ألف حذاء .

لكنك لا تتذكر وجه الرجل يا علبة فما فائدة ان تتذكر الحذاء .

ولكنني عندمـا اتذكر الحـذاء استطيع أن أتعرف عليه وبالتـالي على الرجل .

ومن يضمن لك انه سيظل مرتدياً نفس الحذاء عندما يأتي الى المقهى .

أدعو الله ان يفعل ذلك لأنني حينئذ سأقبض عليه .

لكن ما الذي يجعلك تشك في هذا الرجل بالذات يا علبة .

أولاً كان يشعر باضطراب واضح.. ينظر كثيراً الى الشرفة الصغيرة المطلة على التراس وعندما أحس بأنني لاحظت ذلك أسرع قائلا بأنه سمع عن شقة مفروشة للايجار في العمارة .. وعندما سألته عمن أخبره بذلك زاد اضطرابه وقال بأنه نسي اسم الشخص الذي اخبره بذلـك .. كان يدخن بشراهة

واضحة ويشعل سيجارة من سيجاره .. وعندما فرغت من مسح حذائه قــام بمغادرة المقهى على الفور لكنني لم أره يسير في الشارع إذن لا بد ان يكون قد أسرع بدخول العمارة فور خروجه من المقهى منتهزاً عدم وجود البواب أمام المدخل فالعمارة قديمة وبوابها النوبي العجوز نائم طول الوقت في حجرته بسطح العمارة .

لو استطعت أن تتعرف عليه يا علبة ستنال المكافــأة التي أعلن عنها البوليس لمن يساعد في القبض على القاتل .

لكن هل تظن انه سيأتي الى المقهى .

لست أدري لكن المجرم عــادة يتنازعه عاملان عامل الرغبة القوية في زيارة مكان جريمته على الأقل ليعرف ماذا حدث وهل اكتشفوا أمره أم لا ؟ وعامل الخوف من اكتشاف أمره لو انه تجرأ وقدم الى مكان جريمته وبالتالي يحاول الابتعاد عن مكان الجريمة بأقصى ما يمكنه ذلك .. الأمر يتوقف على الصدفة المحضة فأدعو الله يا علبة أن يستقر رأي المجرم على الأمر الأول ويأتي لزيارة المقهى .

سيكون هذا من سوء حظه .

ومرت اسابيع كثيرة وكنت اجلس في تراس المقهى كالعادة عندما سمعت جلبة شديدة والتفت ناحية الأصوات المرتفعة لأجد علبة ممسكاً بتلابيب رجل يحاول الفرار بكل قوته وهو يضرب علبــة على وجهه بقسوة شديدة لكن علبة متشبث به يرفض ان يطلق سراحه .

علبة يصيح .. إنه القاتل الذي يبحث عنه البوليس انا اعرفه من حذائه والرجل يرد عليه قائلا .

انت مجنون .. ماسح احذية وقح ومجنون .

قمت لاستطلع الأمر .. كان علبة يصيح في الواقفين حوله .. لا تدعوه يهرب إنه القاتل اقول لكم .. استطيع ان أميز حذائه من بين الف حذاء .. استدعوا له البوليس .. والرجل يرد عليه قائلا مخاطباً الجمع الملتف حولهما كيف يمكن ان تصدقوا انه تعرّف عليّ من حذائي فقط .. إن هذا قول إنسان مجنون .. صدقوني انها أول مرة آتي فيها الى هذا المكان .

وهنا صاح علبة في الرجل يجنون .

ألم أمسح لك هذا الحذاء من قبل ايها الكاذب اللعين .. ألم أنصحك بتحويل الشمواه النائم الى جلد .

اقتربت من علبة قائلا .. هل انت متأكد من انه نفس الرجل يا علبة .

متأكد جداً يا استاذ .

حسناً سأستدعي البوليس على الفور .

وأسرعت الى تليفون المحل وطلبت ضابط المباحث المكلف بالقضية .

علبة في عينيه دموع متحجرة لامعة كالزجاج .. لا يضحك او يتكلم كما كان يفعل من قبل .. صامت حزين مهموم .. كبر عشر سنوات على الأقل .. ملأ الشعر الأبيض رأسه بغزارة متوحشة كأنه شوك بري يملأ مساحة من الأرض الخراب .

سألته بعد ان قبض المكافأة من البوليس .

هل ستترك المقهى وتخلد الى الراحة يا علبة خصوصاً بعد ان ماتت ابنتك.

اموت لو افعل ذلك .

لكنك غني ويمكنك ان تفتح كشكاً للسجائر أو محلا للبقالة .. لماذا لا تفعل ذلك .

ارتسمت ابتسامة حزينة مرة على شفتي علبة وقال لا يمكنني ان استغني عن مهنة مسح الاحذية .

إنها كل ما اعرف في حيـاتي .. وزادت الابتسامة مرارة على شفتي علبة وهو يقول .

هل يمكنك ان تتصور الحانوتي في أي مهنة أخرى يا استاذ ثم ضحك .. ضحك ضحكة عاليه مرة من قلبه .

لقد توقفت الآمال عن أن تعيش في قلب علبة المسكين بعد ان ماتت ابنته في عملية الولادة العسرة ماتت قبل ان تلحقها المكافأة التي حصل عليها والدها من البوليس .. ماتت كأي ثرية، فقيرة، تعيسة، تموت .. كأي انسان ابيض اسود، متحضر، همجي، عجوز، شاب، طفل، رضيع، يموت.. كأي حجر أو نبات او سحاب او شيء يموت .. كأي أغنية عذاب او حب او كراهية تموت .

لكن علبة استمر رغم ذلك في مسح أحذية الآخرين ولم يتوقف عن الحياة فهو يعلم أنه سيتوقف ذات يوم .. العالم كله سيتوقف بارادة قوى مجهولة ذات يوم فلماذا لا ينتظر .. حياته كما هي منحصرة في صندوق مسح الأحذية الصغير وفي النظر إلى نعال الآخرين وترميمهـا لكن الابتسامة المرحة فارقت شفتيه إلى الأبد والحزن الدفين أطل من قلبه كأنـه قطن يخرج من حشية قديمة .. حشية بليت ولن تعود أبداً إلى سابق عهدها .

كتبت قصة علبة كما عرفتهـا بلا خيال أو رتوش .. بكل العرق والدم والنبض الموجود بها .. حملتها إلى الورق ساخنة لم تبرد بعد .. درت بها على دور النشر التي أعرفها .. الجواب كان دائماً واحداً .. الرفض فأنا اسم مجهول لديهم ولا يهم بعد ماذا كتبت ومدى الصدق فيه المهم أن تلمع أولاً ثم تكتب بعد ذلك ما تريد وستجد انساناً ينشر لك حتى لو كتبت أتفه وأحقر أنواع الأدب .

لم أجد بداً من طبع الكتاب على نفقتي الخاصة مغامراً بالنقود التي أدخرتها للأيام السوداء لكن أملي أن عملي الجيد سيفرض نفسه آخر الأمر وسيلمع اسمي وسأبحث عن شخصيات اخرى حقيقية ودافئة كشخصية علبة لأضعها ساخنة وبلا رتوش على الورق .

أحسست بسعادة غامرة وأنا امسك نسخة الكتاب الاولى بين يدي" .. أخيراً سأوقف سخرية صديقي اللدودين التي تدور حول هذا الموضوع .. ساقدم لهما الكتاب بفخر وأعلن لهما أنني سأضربهما لو قالا لي يوماً ما ولو على سبيل الضحك بأنني ما زلت مشروع كاتب تحت التنفيذ كما كان يحلو لهما أن يلقباني في الماضي .. لكن الأهم عندي هو أن أحمل نسخة الكتاب الاولى وأن اقدمها هدية إلى علبة فهو صاحب الحق الأول فيها .

ذهبت إلى المقهى والفرحة لا تسعني .. سألت بلهفة عن علبة .. عينان حزينتان متحجرتان فيهما الجواب على سؤالي .

ماذا جرى .. تكلم هل حدث شيء لعلبة .

علبة مات .

مات .. لا يمكن .. كيف .

وانهمرت الدموع من العينين المتحجرتين .. بالأمس مساء دق جرس التليفون في المقهى .. كانوا يسألون عن علبة .. أخبروه أن زوجته كانت تعد له طعام العشاء ليتناولاه سوياً بعد أن يعود من المقهى .. انفجر موقد الجاز فيها .. شبت النار في ملابسها .. نقلوها بين الحياة والموت الى المستشفى .

علبة ذاهل .. متحجر العينين والوجه .. يدع صندوق الأحذية للمرة الأولى في مكانه دون أن يوصي أحداً أن يأخذ باله منه .. ينصرف في ذهول ليسرع الى زوجته التي تصور أنها ماتت.. يعبر الطريق وهو ما زال ذاهلاً.. سيارة مسرعة تصدمه .. علبة مات .

جلست ممدوداً على كرسي في التراس .. طلبت كأساً مزدوجاً من البراندي بلا ثلج .. جلست أشرب بشراهة وأنا لا أرى شيئاً أمامي .. لا أريد أن أفكر في شيء .. لا أريد أن أبكي أو أتذكر علبة أو الكتاب .

ستون عاماً ملقاة أمامي الآن بلا فائدة.. العالم كله بلا فائدة بلا حنان.. من سيبكي علبة المسكين .. من سيبكي العالم عندما يموت .

مر صديقي مدحت وهو في طريقه الى البار توقف مدهوشاً عندما رآني أشرب في التراس وفي ضوء النهار وبلا ثلج .

ماذا تفعل هنا أيها الأحمق اللعين.. لماذا لا تدخل الى البار وتشرب هناك.

ولم أرد عليه .. ولمح الكتاب على المائدة فتهللت أساريره .

مبروك أخيراً أصبح لك كتاب ولن نعود نسخر منك بعد الآن فقط لا تنساني .. أريد نسخة هدية هل تفهم .

هل علمت ما حدث لعلبة .

نعم مسكين كان لا بد أن يموت.. كلنا سنموت ذات يوم .. قالها ببرود حاد كسكين قاطعة ثم دخل الى البار .



٨ الكتكوت العاري

كان دائماً قادراً على لفت نظري اليه بصورة تدعو الى الرثاء والضحك معاً.. لم يكن يحتاج في ذلك إلا الى مجرد التواجد أمامي دون عمل أي شيء آخر .. انه الكتكوت العاري الذي يوجد دائماً في كل حظيرة أفراخ في أي مكان في العالم وأي زمان القادر بشكله الغريب المضحك على لفت الأنظار اليه .. ليس فقط أنظار الغرباء من أمثاله ولكن أيضاً وبصفة خاصة أنظار زملائه في حظيرة الأفراخ الذين يناصبونه العداء الشديد بلا سبب واضح مفهوم على الأقل من ناحيته هو .

عندما تنظر الى ذلك الكائن الغريب يخيل اليك أنه بيضة عيد فصح حمراء موضوعة في المكان الخطأ أو أنه مشروع فرخ صغير لم يكتمل نموه بعد .. أنه كائن مختلف تماماً .. لامع .. أملس .. شفاف .. دامي .. عندما تسقط فوقه كمية من أشعة الشمس يخيل اليك أنه يشع بالضوء من داخله كأن داخله مصباح قوي يبعث بإشعاعات كثيفة نقية الى كل أجزاء جسمه الشفافة الدامية .. جلده الأحمر الرقيق الذي لا تملوه شعرة واحدة فقط من ذلك الشعر الغزير الذي يكسو ظهور باقي زملائه في الحظيرة يشبه ورقة السيجارة التي تكاد تكشف عما في داخل تجويف بطنه الصغير .. انك تحس بالرعب

والاندهاش والرثاء والغرابة والرغبة الشديدة في الضحك مع إحساس عميق بالتعاطف عندما تنظر الى ذلك الكائن الغريب المتهالك على نفسه في إعياء شديد كأنه جزء لا يتجزأ من أرض الحظيرة الترابية والذي لا يكاد يتحرك طول الوقت كباقي زملائه الصغار الدائبوا الحركة كأنهم خلية من النحل . انه على العكس منهم في حالة ركود دائم .. لاهث .. عنيف كأنه يحتضر.. يحتضر طول الوقت .. طول حياته .. عيناه مغلقتان على الدوام كأنه لا يريد أن يبصر العالم العنيف الدامي الذي يناصبه العداء الشديد أو كأنهم يجبرونه على عدم الرؤية .. ساقـــاه المقروحتان من جراء عدوان زملائه الدائم عليه لا تقويان على حمله أكثر من بضعة خطوات يتهالك بعدهـا من جديـد على الأرض .. يلهث بشدة .. يرتعش من البرد .. يتعثر عندما يحاول أن يقوم للمرة الثانية .. يستسلم لحالة الإعياء الشديدة التي تلازمه طول الوقت .. دم غزير يغطي جسمه الأملس الصغير من جراء الجروح الكثيرة التي أحدثها به زملائه الغاضبون .. خيوط الدم الرفيعة المنسحبة من منقاره الصغير الى أرض الحظيرة الترابية تحدد مساره بسهولة أمـام قصاصي الأثر الذين يعثرون عليه بسهولة كبيرة كلما عنّ لهم أن يفعلوا ذلك وهم يريدون ذلك لأسباب لا تنتهي.

يعود من جديد وبعد محاولات يائسة فيتهالك في ركنه البعيد اتقاء لضربات جديدة موجعة يوجهها اليه زملاؤه الصغار المتوحشون.. صدره يرتفع وينخفض في لهاث عجيب .. يشعر بمزيد من البرد .. عيناه تزدادان انغلاقاً مع الوقت كأنه سيموت بين لحظة واخرى .. طبقة كثيفـة من عرق لزج تغطي جسمه الأملس الناعم مختلطة بطبقة الدم المتفجرة من جروحه الكثيرة صانعة مزيجاً له رائحة نفاذة غريبـة قادرة على جذب باقي الافراخ الصغيرة اليه .. جذبهم من انوفهم الحادة الشم .

المتوحشون الصغار يعاملون الفرخ الغريب كنفاية .. كهدف يفرغون فيه كل طاقة الحقد المجنونة في داخلهم كأن هذا العمل هو الوحيد الذي خلقوا من

أجله .. أنهم ينقضّون عليه بوحشية بالغة وفي وقت لا يتوقعـه على الاطلاق لينقروه فوق كل مكان من جسمه الأملس الناعم وليغطوه بمزيد من الدمـــاء وليبعثوا فيه مزيداً من الاعيـاء وعدم القدرة على الحركة أو المشاركة في عالم مفروض فيه أنه ينتمي اليه .

أنه غريب تماماً عن هذا العالم المتعجرف الذي يموج من حوله .. العالم الذي يرفضه بصلف ووقاحة بالغة .. يبدو بلا حمـاية على الاطلاق اذاء زملائـه المغطون بالريش الناعم الغزير الذي يعطيهم الحماية الكافية أزاء بعضهم البعض.

اندماجه في العالم الذي يرفضه يبدو أحد المشاكل العنصرية المعلقة في عالمنا المعاصر .. يدور في حلقة مفرغـة لانهاية من العنف والدم المأساة تولد في الصباح .. تتصاعد أثناء النهار .. تهدأ قليلاً في الليـل .. تستيقظ في صباح اليوم التالي أكثر ضراوة وعنفاً من اليوم السابق .

الصغار المتوحشون في حالة صراع دائم معه .. كلهم في جانب وهو وحده في الجانب الآخر .. القوة ضد الضعف .. التماثل الذي يصل إلى درجة الغباء ضد الاختلاف .. حرب لا يوجد أدنى أمل في أن تنتهي لصالحـه أو تنتهي على الاطلاق يحكمها قانون البقاء الصارم المخيف .

كان ينتابني احساس حقيقي بأن ظلمـاً فادحاً وقع على الفرخ العاري عن الريش لأن الطبيعة خلقته مختلفاً عن الآخرين الذين يناصبونه العداء لمجرد أنه مختلف عنهم ومنذ اللحظة الاولى لوجوده بينهم وحتى اللحظـة الأخيرة التي يغادرهم فيها .

كنت أحس بالمشكلة بصورة أكثر حدة وايلاماً عندما أنظر إلى عيني الفرخ المسكين في اللحظات القليلة التي كان يتسنى لي فيها أن اشاهد عينيه الصغيرتين الدامعتين .. كنت اشاهد كمية هائلة من الرعب والانطوائية الشديدة واحساس بالغرابة تملأ ذلك التكوين الزجاجي الشفاف المسمى عينيه .. طبقة شفافة من

دموع حقيقية تغطي مقلتيه كأنه يبكي على الدوام وهو بالتأكيد يملك سبباً حقيقياً للبكاء من العالم الذي يعيش فيه ويناصبه العداء إلى درجة المرض والوقاحة والجريمة .

كان يكور أعضاء جسمه الملساء المغطاة بالدم ليبعث فيها شيئاً من الدفء يعطيه القدرة على المقاومة والوقوف في وجه أعدائه الصغار المتربصين به طول الوقت.. يغلق عينيه الصغيرتين ثم يروح في سبات عميق لا يفيق منه إلا عندما يأتي فرخ عصبي المزاج مشحون بطاقة غضب مفاجئة فيماجله بنقرة حادة فوق رأسه الصلعاء أو في احدى عينيه أو عندما يقرصه الجوع فيغامر بالوقوف على قدميه والتقدم صوب أنائي الفخار الموضوعين وسط الحظيرة ليبتلع شيئاً مما يحويه الإناءان .. حينئذ كانت تتقمص جماعة المشاغبين الصغار حالة جنون مفاجئة .. ينقضون على الفرخ المسكين بمناقيرهم الحادة التي تشبه مناجل القمح فيمزقون جسده الصغير ويملئونه بالجروح العميقة التي ينبثق منها الدم .. هذه المناقير الصغيرة التي خلقت لالتقاط الحب وقطرات الماء تتحول في لحظات الجنون الغاضبة إلى آلات حصاد رهيبة تفتك بجسد مخلوق صغير مسالم كل جريمته أنه ولد مختلفاً عن الآخرين .

يسارع بالعودة الى ركنه البعيد كأنه يفر من جحيم مخيف يفتح ألسنته عليه ومن ثم التهالك من جديد على الأرض .

كنت أحس وأنا اشاهد هذه المخلوقات المتوحشة تمارس العدوان المجنون ضد زميلها الغريب أن شيئاً أقوى كثيراً من ارادتها .. أقوى من سيطرتها على مشاعرها يدفعها إلى ذلك.. شيئاً يسبح مع الدم.. يتكثف عند منحنيات العظام البارزة .. يعطيها صلابة حديدية .. قدرة أكبر على ممارسة العدوان والشراهة .. يتجمع كبرادة الحديد في المناقير الصغيرة الحادة ليشحنها بطاقة غضب مفاجئة لا تجد لها متنفساً إلا عندما تغوص في جسد الفرخ المسكين

العاجز عن الدفاع عن نفسه .. كان يخيل إليّ أنهم يفعلون ذلك ليشعروا الفرخ العاري عن الريش أنه منبوذ بينهم وأنــه ليس له حق الوجود في عالمهم المتوحش وإذا بقي فإن بقاؤه معلق بارادتهم وحدهـا .. لكن كانت هناك لحظات قليـلة تهدأ فيها الوحوش الصغيرة فيسود سلام مزيف ارجاء الحظيرة ويتناثر الصغار كمجموعة من الأحجار فوق أرض الحظيرة الترابية حينئذ كان يشعر الفرخ المسكين أن الفرصة قد أصبحت سانحة له ليقوم فيبتلع شيئاً من الطعام والماء الموجودين باناني الفخار وسط الحظيرة .

يتحامل على نفسه ويقوم بصعوبة بالغة متقدماً صوب الأنائين لكن ما أن يبدأ يضع منقاره الصغير في واحد منهما حتى يكون الصغار الراقدون على الأرض قد تنبهوا له .. تتقمصهم روح الشر المعتادة .. يندفعون ناحيته بعنف بالغ .. يضعون حرابهم المسمومة في قلبه .. يمزقون جسده المتهالك في اعياء شديد بمناجل القمح التي يحملونها في مقدمة رؤوسهم الصغيرة .. يفعلون ذلك بتلذذ دموي غريب كأنهم يتناولون الطعام أو الشراب أو يمارسون الجنس .. يزداد جسمه الصغير اعياءاً ويتفجّر بمزيد من الجروح التي ينبثق منهـا الدم والعرق .. يحاول الهروب داخل إناء الفخار الذي يوجد إلى جواره هرباً من هجمات الصغار المتوحشين عليه .. يغرق من فتـات من الخبز البائش والماء وبقايا المائدة يغطي جسمه الصغير الذي يرتعش من البرد في الوقت التي تلاحقه فيه هجمات الصغار عليه فيندفع أكثر داخـــل الأناء ليتفادى مزيداً من الضربات .. يهز جسمه هزاً عنيفاً ليخلع عن نفسه هذا الرداء الكريه الذي يمقته والذي يجعله يحس اكثر بالغرابة .. هجمات الصغار المتلاحقة عليه تدفعه اكثر الى الهروب داخل اناء الفخـار فيتغطى جسمه من جديد بذلـك الفراء الغريب الذي يريد أن يخلعه دون جدوى .. يجد نفسه في النهاية داخل اناء الفخار الذي يوجد به الماء او فتات الخبز البائش .. يحاول باستماتة ان يخرج من داخل الاناء دون جدوى .. مناقير الصغار الحـادة المتربصة حول حـافة الاناء المرتفعة تدفع به من جديد داخل الاناء .

الوحوش الصغار يقيمون حفلاً ترتفع فيه دمويتهم الى الذروة .. تهريجهم الرخيص يبعث بنشوة صاخبة الى قلوبهم .. يضحكون من أعماقهم على عذاب الفرخ المسكين الذي لا يجد وسيلة للدفاع عن نفسه ضد دمويتهم المتوحشة .. يرقصون بفرح غامر .. باستمتاع مدهش على ما صنعوه بغريمهم الصغير .

تصل المأساة الى نهايتها المفجعة وتتراجع شهوة الصغار كنوع غريب من الجزر الى الوراء وتمر نسمة هواء رقيقة عذبة على جسد الفرخ المسكين المثخن بالجراح والذي بلغ أقصى درجات الإعياء .. هذه النسمة الرقيقة تشبه محلولاً مطهراً يمر فوق جروحه العميقة .. يفيق قليلاً .. يشعر بشيء من الانتعاش .. ينبثق شعاع من الشجاعة في قلبه الميت الواهن .. يقرصه الجوع من جديد .. يحس أنه ينبغي أن يتناول شيئاً من الطعام والماء ليتمكن من البقاء على قيد الحياة والمقاومة من جديد .

بكل القوة القليلة الباقية فيه يمد منقارة الصغير الى فتات الخبز المبلل بالماء ويبتلع بعضاً منه ويحس بالقوة تسري في جسمه من جديد ومن ثم ينفض عن نفسه رداء الماء والخبز البائش وبقايا المائدة الذي يرتديه فوق جسمه ثم يبدأ في فتح عينيه المغلقتين ليراقب في حذر شديد رفاقه الصغار الملاعين الذين يمكن أن ينقضوا عليه في أي لحظة إذا غفل عنهم .

أخيراً يبتعد عن إنائي الفخار ليتهالك من جديد في ركن الحظيرة البعيد وهو يحس أنه نجا من الموت هذه المرة بأعجوبة .

عالم الأفراخ الصغار المغلف بشاعرية رقيقة حالمة المليء في داخله بالحزن والدم والعنف يبدو لي عالماً لا يمكن تفسيره بسهولة بل ينبغي قبوله على علاته .. إنه صورة مكثفة وضيعة لعالمنا الإنساني نفسه بكل ما فيه من متناقضات وقوانين ظالمة .

صلة قوية بدأت تربطني مع الوقت بالفرخ العاري من الريش ليست صلة

مراقب الطيور البرية أو مربي كلاب الصيد لكن صلة الاحساس المشترك بالانتماء الى عالم واحد غريب ومنبوذ من الآخرين .

كنت احس ان الجريمة التي ترتكب ضد الفرخ العاري من الريش ترتكب ضدي انا وانني اكره الافراخ الصغار بنفس القدر الذي يكرههم به وانني لا بد ان افعل شيئاً ما كي انتقم منهم وعلى الأخص من اجل إنقاذه من براثنهم .

وخطرت لي فكرة أن أضع الفرخ الصغير داخل صندوق كبير من الكرتون له حواف عالية تحول بين الافراخ الصغار والوصول اليه لكنهم وبعد مجهودات صارخة بذلوها استطاعوا الوصول اليه داخل الصندوق وتكرار جريمتهم المروعة معه من جديد وربما بوحشية اكثر من أية مرة سابقة .

كنت أصاب بدهشة شديدة وانا أرى الاصرار والمجهود الصارخ الذي يبذلونه للوصول الى غريمهم القابع في خوف شديد داخل صندوق الكرتون .. كانوا يقفزون في الهواء في جنون وهم يرفون بأجنحتهم الصغيرة بغية الوصول الى حواف الصندوق العالية ثم التشبث بها ومن ثم الانقضاض على غريمهم القابع في الداخل وقد استولت عليه حالة هيستيرية من الفزع .. كانوا لا يبالون إذا سقطوا فوق بعضهم البعض أو نقروا عيون بعضهم البعض .. كانوا يتسابقون للوصول اليه وكانوا اشبه بالشياطين .. كانوا ينزلقون من على جانبي الصندوق الورقي بسهولة شديدة لكنهم لا ييأسون بل يعاودون القفز والتشبث بحواف الصندوق العالية من جديد .. بعضهم أفلح في ذلك .. كانوا أشبه بفراشات صغيرة متعلقة بحائط ما .. السعادة تطل من حدقات عيونهم الصغيرة .. الشراهة والجوع ثم بدأوا في الانقضاض على غريمهم القابع داخل صندوق الكرتون وتمزيق جسده الصغير بمناجل القمح الحادة التي يحملونها في مقدمة رؤوسهم الصغيرة أيقنت بعد هذه التجربة الفاشلة انني لن استطيع ان أحول بين الافراخ وبين غريمهم العاري من الريش وانهم سيجدون وسيلة اليه

والفتك به مهما كانت كمية الحواجز والعقبات التي أضعها في طريقهم .

وفكرت في ذبح الفرخ الصغير لأخلصه من عـــذاب يبدو بلا نهـاية .. عرضت الفكرة على والدتي التي رفضتها للوهلة الأولى قائلة ان الفرخ الصغير لا يصلح ان يوضع على مائدة طعـــام وان من الخير له ان يترك لمصيره وعندما قلت لها ان الفرخ الصغير يتعذب مثلنا تمامـــاً نحن الآدميين عندما نتعرض لعدوان ظالم علينا وانه يمكن أن يموت اذا استمر هذا العدوان الصارخ عليه ضحكت قائلة أنني مثالي أكبر من اللازم وان العالم الذي نعيش فيه مليء بشرور وآثام أضعاف ما يحدث للفرخ المسكين ثم نصحتني أن أنسى المسألة برمتهـا لأن هذا أريـح لي وللفرخ الصغير نفسه لكني لم أستطع نسيـان المشكلة التي ظلت تؤرقني تماماً لأنني اعتبرت نفسي مسؤولاً عن وضع حد لهـا لكن لم يكن في مقدوري أن أفعل شيئاً سوى مجرد الاستنكار الحقيقي لها بيني وبين نفسي ثم عندما كنت اشاهد الأفراخ الصغيرة تتكاثر على الفرخ العـاري عن الريش كنت احاول ابعادهم عنه وأنا أعلم أنه في نفس اللحظة التي سادير لهم فيها ظهري سيعودون للتكاثر عليه من جديد .

مملكة الأفراخ الصغيرة لم تكن تضم بين جنباتهـا ذلك الفرخ العاري عن الريش فحسب كاستثناء صارخ من القاعدة وباقي الأفراخ الاخرى لكن كانت تضم كذلك نوعاً آخر من الأفراخ هو النقيض الصارخ للفرخ العاري من الريش.

كان يمكن للعين أن تلتقطـه بسهولة كبيرة كما تلتقط الفرخ العاري عن الريش تماماً .. أنه اضخم الأفراخ جميعـاً وأجملهم شكلاً وأغزرهم ريشاً .. يتحرك بين الصغار باحساس صارخ بالزهو كأنه طاوس يتحرك بين مجموعة من البط أو الغربان .. هوايته الاعتداء على زملائه الصغار في حظيرة الأفراخ .. ينقرهم بوحشية بالغة فوق أجسامهم الصغيرة الهشة .. يفتت عظامهم الرقيقة عندما يركب بجسمه الضخم فوق أجسامهم الصغيرة .. يسيــل دماءهم .. يعذبهم بألف وسيلة ووسيلة .

عرش الحظيرة يبدو شاغراً في نفس لحظة وجود الملك بداخلها المرة الاولى .. يتقدم بثقة كبيرة في أن أحداً لن يعارض مشيئته فيضع التاج الملقى على الأرض فوق رأسه .

الجميع يشعرون في قرارة نفوسهم ان ما فعله الفرخ الكبير القوي عمل مشروع تماماً وان ليس في مقدورهم الاعتراض على مشيئته التي تبدو وكأنها نوع من القدر أو الظواهر الطبيعية التي لا يمكن الوقوف في وجهها .

منذ تلك اللحظة يبدأ الملك الجديد في ممارسة سلطاته المشروعة وغير المحدودة على رعاياه الجدد .. أحياناً كانت تتقمص الملك القوي المتعجرف رغبة شريرة في أن يلهو كأي ملك آخر في العالم.. غالباً كان يحدث ذلك بعد أن يملأ معدته الصغيرة بالطعام والشراب ولما لم يكن هناك مهرجون أو راقصات أو موسيقى حيث يعيش الملك فقد كان الملك يهرج بنفسه .. كان ينزل إلى ساحة القصر حيث يتحرك رعاياه الصغار في استسلام يائس .. يقف بينهم منتفخاً مغروراً كأي ملك يقف بين رعاياه .. يصادف فرخاً صغيراً يمر بالقرب منه .. ينقره بوحشية بالغة فوق ظهره أو في إحدى عينيه .. الفرخ المسكين يسارع بالفرار من وجه الملك الشرير .. الملك يضحك من قلبه .. ينتشي تماماً .. يتصاعد جنونه إلى الذروة .. فرخ آخر يقترب من الملك .. حسن النية تماماً .. الملك يضع حربته القوية المدببة في جسم الفرخ المسكين الذي يهوي ساقطاً على الأرض في اعياء شديد وهو يكاد يلفظ أنفاسه .. الملك يصعد فوقه .. يدبدب بقدميه في نشوة شريرة .. يضحك من أعماقه .. يتصاعد جنونه أكثر وأكثر حتى يصل الذروة وهو يفتقد أي قوة حقيقية تقف أمامه.. يتحول إلى خرتيت صغير له حربة قوية مدببة في مقدمة رأسه.. يندفع بأقصى قوة إلى الأمام .. يتعمد الاصطدام بكل ما يوجد أمامه من كائنات وأشياء .. الأفراخ الصغار يصرخون من الرعب والألم وهم يبتعدون بسرعة من وجه الملك المندفع بأقصى قوة إلى الأمام .. تحدث بينهم حالة

اضطراب فظيعة .. يمارس الملك هوايته الحميمة في التنكيل بهم وتعذيبهم .

الملك أسال كمية كبيرة من الدم .. حطم عديداً من ضلوع رعاياه .. حطم على الأخص مقاومتهم .. كرامتهم .. حقهم المشروع في الحياة .. انتشى تماماً بعد حفلة التهريج الرخيصة التي أقامها لنفسه .

أحياناً كان تهريج الملك يصل إلى درجة حرمان رعاياه من الطعام والشراب أي حرمانهم من الحياة نفسها .. كان يكفي أن يقف بجانب اناثي الفخار الممتلئين بالطعام والماء وهو ينظر في تحذير واضح إلى رعـــاياه حتى لا يجرؤ واحد منهم على الاقتراب من الانائين وإذا تجاسر واحد واقترب فان حربـة الملك القوية المدببة التي توضع على الفور في جسمه أو احدى عينيه كفيلة بجعله يتراجع بسرعة إلى الوراء وهو يصرخ من الرعب والألم .. الملك يتناول طعامه أولاً إلى درجـة الامتلاء ثم يأتي دور رعاياه بعد ذلـك .. ارادة الملك هي القـانون الوحيد المعترف به في المملكة الصغيرة .. الجميـع يقفون رهن اشارة مليكهم المتعجرف القوي .. يأمرهم بالاقتراب فيقتربون .. يأمرهم بالابتعـاد فيبتعدون .. يأمرهم أن يأكلوا فيأكلون .. يأمرهم أن يجوعوا فيجوعون .

كان من الطبيعي أن يلفت الفرخ العاري عن الريش بتخاذله وتهالكه على نفسه .. بكل نعومته الغريبة الفذة .. بكل دمويته الشفافة العجيبة .. بلونه الارجواني المتوهج تحت أشعة الشمس الساقطة فوقه .. لكن من الطبيعي أن يلفت هذا الفرخ الأملس .. الغريب .. الناعم أنظـــار الملك المتعطش إلى العدوان اليه .

الملك يتقدم ناحية الفرخ الغريب ويدور حوله كأنه يستكشفه .. يستكشف شيئاً غريباً تماماً .. الملك بكل ما يملك من قوة ورغبة في ممارسة العدوان يضع حربته المسمومة الحادة في جسم الفرخ البالغ النعومة أو في احدى عينيه أو فوق رأسه الملساء .. الفرخ الصغير يصرخ من الألم والرعب .. يسقط على الأرض .. يزداد انكماشاً على نفسه اتقـاءاً لمزيد من ضربات الملـك .. الملك

يصعد فوقه .. يضغط بكل ثقل جسمه الضخم فوق جسمه الضعيف حتى يكاد يزهق أنفاسه .. يعاجله بنقرات اخرى حادة تزيد من احساسه الفظيع بالألم والمهانة .. تزيد من سمك طبقة الدم والعرق التي تغطي جسمه العاري الصغير الذي ينتفض من البرد .

أجراس كنائس حزينة تدوي في ارجاء المملكة الصغيرة بمناسبة اعدام كائن ما .. لا يقوم الملك الشرير من فوق جسم غريمه الصغير إلا بعد أن يشعر بالانتشاء تماماً .. الانتشاء المصحوب بالاعياء والقرف كأنه رجل يقوم من فوق امرأة بعد أن يعاشرها جنسياً .

الملك يشعر بأنه أشبع حاجته الجسمانية الشريرة وأنه هرج بما فيه الكفاية.. يقوم من فوق جسم الفرخ المسكين المتهالك على الأرض في اعياء شديد والذي يبدأ في اغلاق عينيه الصغيرتين ويروح في سبات عميق .. لا أحد يدري متى تبدأ المأساة من جديد .. هذا كله متوقف على ارادة الملك ورغبته الشريرة في التهريج الرخيص الذي قد يبدأ بعد لحظة واحدة أو قد يستغرق فترة أطول من الوقت .

احساسي يؤكد لي ان ما يمارسه الملك الشرير ضد الفرخ العاري عن الريش ليس نزوة طارئة تستبد به بل هو جزء لا يتجزأ من نظام وحشي يسود العالم الصغير الذي يعيشان فيه والذي هو التكشيف الصارخ لعالمنا الكبير نفسه.. أنه شيء لا يمكن الوقوف في وجهه كبزوغ الشمس في الصباح .. كإنصهار الحديد في درجة مائة هو الذي يدفع الملك الشرير إلى ممارسة العدوان على الفرخ العاري عن الريش وزملائه الصغار .. شيء يدعو إلى اليأس والمهانه البالغة .

كراهيتي تتحول بسرعة من الأفراخ الصغار إلى الملك الشرير المتعجرف.. تقمصتني رغبة عارمة في الايقاع به وتدمير عالمه القائم على أقصى درجات

الوحشية والقسوة .. فكرت ان انتقامي من الملك لا بد أن يكون مبتكراً وبالغ العنف .. انتقامي من الملك لن يكون موجهـاً له بصفة شخصية بل باعتباره رمزاً لعالم أرفضه .. عالم أكرهه من أعماقي وازدريه تماماً فأنا أحس أيضـاً أنني كتكوت عـاري عن الريش وأن الجميع ينقرونني فوق ظهري الأملس الناعم المخضب بالدم وان هناك مئات من الناس الأقوياء المتعجرفين في هذا العالم يتصورون أنهم ملوك وان من حقهم تحطيم حياتي وسحق كرامتي .

كنت واقفاً في شرفـة حجرتي بالطابق الثاني من الفيللا التي أسكنهـا باحدى الضواحي البعيدة .. الوقت مساء يوم من أيام الخريف الباردة الممتلئة بزوابع الهواء .. كنت ممتلئاً بحزن شفاف غريب وأنا أتأمل فروع الأشجار الضخمة التي تتمايل أمامي محدثة نوعاً غريباً من الفحيح وأنا أشم رائحة الورود النائمة والأرض المروية وأشعـة القمر وهي تتسلل من بين الأوراق السوداء الصغيرة فتكسبها لمعاناً غريبـاً .. كنت في عالم غريب مسحور حزين وكان شريط حياتي الداكن الأسود يلتف حول رقبتي كحبل مشنقة أو ربطة عنق سوداء حزينة تنعي حظي الميت وكانت الرغبـة في سحق العالم الذي انتمى اليه .. عالم الأفراخ التي لا ترحم والملوك الأقوياء المتعجرفين تقوى في نفسي مع الوقت حتى أحسست بها تملأ كياني كله .. رغبة قوية .. عارمة .. شريرة لا تعبأ بشيء .. تحطم كل ما يعترض طريقها كأنها سيـــل عرم متدفق .. وأصبح كل شيء واضحاً أمامي .. الخطـة وطريقة التنفيذ .. عليّ فقط أن أستجمع شجاعتي وأبدأ التنفيذ على الفور .

دخلت بسرعة إلى حجرة النوم.. تناولت مصباحاً يضاء ببطارية صغيرة.. أغلقت نور الحجرة فساد الظلام الدامس إلا من شعاع خافت من أشعة القمر تسلل إلى الحجرة .. أسرعت أعدو إلى الطابق الأول .. فتحت الباب المؤدي إلى الحديقة الواسعة المليئة بالأشجار الضخمة العملاقة .. أغلقته بحذر شديد ورائي حتى لا أوقظ أحداً في المنزل .. اتجهت صوب حظيرة الأفراخ المقامة

على النجيل بالقرب من سور الفيللا .. كان الظلام شديداً وضوء القمر يتسلل من بين فروع الأشجار العملاقة التي يتلاعب الهواء الخريفي البارد بقممها الشاهقة .

ملأني الجو والظلام وما أنوي ارتكابه ضد الملك بمزيج من الاثارة والخوف.. دخلت حظيرة الأفراخ بحذر شديد .. الأفراخ الصغار مبعثرون في أرجاءها الواسعة كأنهم أحجار صغيرة متناثرة هنا وهناك .. أحجار ميتة .. أضأت المصباح الصغير .. سلطت شعاع الضوء القوي فوق رؤوس الأفراخ الصغار الراقدين على الأرض في حالة نوم عميقة .. هبوا فزعين عندما أحسوا بلسعة الضوء فوق رؤوسهم .. بدأوا يتحركون في اضطراب واضح وقد سيطر عليهم خوف شديد وعدم معرفة ما حدث لهم .. بدأت أبحث عن الملك بينهم بإصرار من يعرف ماذا يريد تماماً .. لم يكن من الصعب العثور على الملك لتميزه الواضح عن الآخرين حتى في الظلام الدامس .

أخيراً عثرت على الملك وبدأت مطاردة مثيرة بينه وبين شعاع الضوء المنبعث من المصباح الذي أمسكه في يدي .. حاصرت الملك في أحد أركان الحظيرة .. سلطت شعاع الضوء القوي فوق عينيه الصغيرتين .. استسلم الملك تماماً .. أحس بالذعر .. كف عن الحركة .. مددت يدي وأطبقتها عليه .. أحسست بنشوة طاغية وأنا أفعل ذلك .. عندما أصبح الملك بين أصابعي حاول أن يقاوم لكن أصابعي ازدادت إطباقاً عليه حتى استسلم تماما لمصيره.. كان ساخناً وجسمه الصغير يرتعش بحمى غريبة يعرفها لأول مرة في حياته.. حمى اسمها الخوف .. الخوف من المجهول الذي ينتظره على يدي .. صعدت به الى حجرة النوم .. أضأت نور الحجرة .. وضعته أمام مرآة التواليت وأفلته من يدي .. مضيت أراقبه بسعادة غامرة وهو واقف أمامي في استسلام ذليل خائف .. تطلعت الى عينيه الصغيرتين .. رأيت الخوف والبؤس يطلان منهما .. نفس العينين المتعجرفتين للملك الذي أذاق رعاياه الأمرين .

أوشكت في لحظة ما أن ارجعه من جديد إلى حظيرة الأفراخ ونسيان المشكلة برمتها .. انتقامي من الملك لن يحول عالم الأفراخ الصغار إلى عالم يسوده الحب والتفاهم والرحمة ثم عندما أقتل الملك الشرير فأنا لا أضمن البتة ألا يوجد في نفس اللحظة ملك جديد يمارس نفس أعمال الملك القديم ضد رعاياه الصغار لكن فجأة تذكرت عجرفة الملك ووقاحته البالغة .. كل أعماله الشريرة البالغة القسوة .. تذكرت أني ضحية لملوك أقوى كثيراً من هذا الملك يملأون العالم من حولي .. صممت على الانتقام من الملك .. ذهبت إلى الحمام المجاور لحجرة النوم.. أحضرت آلة حلاقة صغيرة بها شفرة حادة.. أمسكت الملك بين أصابعي جيداً حتى لا يفلت منها .. مشاعري تجاهه هي خليط من الشعور بالرثاء والكراهية العنيفة .. الرغبة في تدميره واعادته في نفس الوقت إلى الحظيرة ونسيان المشكلة من أساسها .. كانت لا تزال بالملك سائر الصفات التي تجعلني أكرهه من أعماقي .. كان جميلا بصورة مروعة .. ذلك الجمال الذي لم أعرفه أبداً في حياتي.. مغرورا .. ضخم الجثة .. قوياً متعجرفاً .. كان شريراً لا يزال ملكاً بكل ما تحمل الكلمة من معنى لكنه بالطبع كان ملكاً في الأسر .

لم يطل ترددي كثيراً .. وضعت سن الشفرة الحادة فوق جسم الملك الذي استكان تماماً لأصابعي ثم بدأت احرك الشفرة فوق شعره الغزير الأصفر الذي بدأ يتساقط على الأرض عالقاً بعض الشيء بسن الشفرة الحادة الذي كنت أخرجه بين الحين والآخر من الآلة الصغيرة وانظفه من الشعر ثم اعيده إلى مكانه من جديد .. مهمتي الآن أن احول جسم الملك المغطى بالريش الغزير إلى نعومة الفرخ العاري عن الريش .. أن أفعل معه ما فعلوه مع شمشون الجبار عندما حلقوا له شعر الرأس الطويل ففقد بذلك سر قوته وأصبح ذليلا .

كنت أحس وأنا أرى الريش الناعم الغزير يعلق بحد الشفرة ويتهاوى على الأرض أنني فلاح نشيط يحصد حقلا من القمح تحت أشعة الشمس .. العمل

يمضي في سهولة مروعة كأنني أذبح انساناً في الحلم .. عمل يثير في داخلي نشوة عجيبة شريرة وإن يثير في نفسي أيضاً نوعاً من الخوف والحزن على مصير كائن أملكه تماماً في يدي.. مع مضي الوقت بدأت يدي تكتسب مزيداً من الثبات والشجاعة والريش الأصفر الغزير ينزلق بسهولة أكثر من تحتها .

أخيراً فقد الملك ريشه الغزير .. أصبح مخلوقاً بالغ النعومة يتوهج الدم القاني من تحت جلده الرقيق الأحمر الذي تتشعب فيه شرايين رفيعة كخيوط بالغة الرقة .. بدأت احرك جانب الشفرة فوق ذلك الجلد الارجواني الرقيق لينبثق منه طوفان من الدم في صورة خيوط رفيعة متشعبة كالشرايين .

بدأ الملك يكتسب رداءاً جديداً جعل يدي تمسكه بصعوبة بالغة رداءاً من الدم والعرق وبقايا الريش المقصوص .. أحسست بشعور حاد بالسخرية والانتصار وأنا أرى جسم الملك الضخم وقد تضاءل إلى نصف حجمه السابق وبدأ يرتعش من البرد ويتهالك على نفسه وهو يحاول أن يكور أعضائه الملساء اتقاءاً للسعات البرد التي تهب فوقه .. عيناه الصغيرتان تنفتحان وتنغلقان دون أن يقوى على السيطرة عليهما .. وأخيراً تهاوى الملك على الأرض .. ركع في استسلام يائس حزين .. أمسكته بين أصابعي وعدت به مرة اخرى إلى الحظيرة .

الصغار تحولوا من جديد إلى مجموعة من الأحجار المتناثرة في ارجاء الحظيرة الواسعة .. وضعت الملك بينهم دون أن يحسوا بذلك .. بدأت أحرّك شعاع الضوء القوي فوق رؤوسهم الصغيرة لاوقظهم من جديد .. عندما استيقظوا تماماً سلطت دائرة الضوء اللامعة فوق جسم الملك الصغير المتهالك على أرض الحظيرة في استسلام تام والدم ما يزال ينبثق من جروحه الغائرة العميقة ورائحة نتنة تفوح منه .

أول الأمر بدوا غير مدركين تماماً لما يوجد أمامهم تحت دائرة الضوء

لكنهم سرعان ما أدركوا أنـه فرخ غريب مختلف عنهم وعلى الفور بدأت نزعاتهم الشريرة تصحو من رقادها ومن ثم بدأو في مهاجمته .. أول الأمر كانوا حذرين بعض الشيء .. راحوا يدورون حوله في محاولة لاستكشافه .. كانوا أشبه بمجموعة من الكلاب تتشمم بأنوفها الحادة جسماً غريباً عليهـا قبل أن تنقض عليه .. كانت رائحة الدم والعرق والإعياء الشديد تجذبهم من مناقيرهم الحادة الشم التي اكتسبت فجأة صلابة غـير عادية .. تهيج وحشيتهم التي تصاعدت الى الذروة .

تشجع واحد منهم واقترب من الملك .. نقره بشدة فوق رأسه العـاري المخضب بالدم فجعله يهبط برأسه الى أسفل في محاولة لتجنب مزيد من الضربات المؤلمة التي ستنهال عليه لكن الفرخ الصغير المتوحش الذي هيجته رائحة الدم عاجله بنقرة أخرى حادة فوق جسمه العاري من الريش جعلته يترنح تماماً.. انه ملاك اصيب بضربة قاضية افقدته الوعي .. انكمش على نفسه في حـالة عجز تام عن الدفـاع عن نفسه .. تشجع واحد آخر ونقر الملك في عينه ثم كال له بضع نقرات حادة أخرى فوق جسمه العاري جعلته يتخضب بمزيد من الدم ثم اندفعوا جميعـاً ناحيته .. تكاثروا فوقه .. وضعوا حرابهم القوية المسمومة في جسمه المخضب المنهار الهزيل والذي بدأ يفقد قدرته على المقاومة بسرعة رهيبة .

رعايا الملك الصغير لم يتعرفوا على مليكهم السابق .. كنت أتوقع له هذه النهاية المفجعة .. انه في نظرهم ليس سوى فرخ غريب مختلف يستحق معاملة خاصة من جانبهم .. ان ينكلوا به ويعذبوه .

في النهاية أحسست أنني أشبعت شهوة انتقامي من الملك بعد ان تهـالك تماماً وأوشك ان يفقد الحياة نفسها .. تحول شعوري تجـاهه الى شعور عميق بالإشفاق بعد ان فقد أسباب عجرفته القديمة وأصبح ضحية لنفس أساليب الوحشية العنيفة التي كان يمارسها ضد الآخرين .

الفرخ العاري من الريش والملك ضحيتان لقانون ظـالم بالغ القسوة يحكم حياة الكائنات الحية بأسرها .. قانون يلتحم بالحيـاة التحاماً عضوياً رهيباً بحيث لا يمكن الفصل بينهما .. انت كالآخرين .. انت مقبول بيننا .. انت مختلف .. انت ملعون ومكروه .

أحسست أني لا بد أن أوقف هذه المجزرة المروعة على الفور .. بصعوبة بالغة استطعت ان أفرّق الأفراخ الصغار المتكاثرين حول مليكهم السابق وأن آخذه بين أصابعي وأخرج به من الحظير .

كان لا يزال ساخناً لزجاً مغطى بدم كثيف وكميـة كبيرة من العرق .. كان جسمه كله يرتفع وينخفض في لهاث عجيب بارد كأنه يحتضر باعثاً في أصابعي برعدة مخيفة .. بنوع مروع من البرودة الشديدة يسري الى قلبي بحيث خيل إليّ انني أمسك شيئاً مكهرباً لا ينبغي الإمساك به طويلاً .

ألقيت بالملك بعيداً بكل ما املك من قوة وأنا أعـلم انه سيموت لا محالة .. شعرت بأسف شديد لذلك وبنوع غريب من الحزن لكن أسفي الحقيقي هو تأكدي ان الجريمة المروعة ستظل ترتكب بصورة دائمة في حظيرة الأفراخ وأن ملكاً جديداً سيولد في نفس هذه اللحظة .

* * *

٩ الجـــوع

كان يشعر بانقباض شديد وبوحدة قاتـلة تجمد حواسه وهو يجلس وحيداً في ذلك الجو الرمادي القاتم الملبد برائحة دخان السجائر والضوء الخافت الذي يملأ قاعة السينما من حوله .

المكان يشبه خلية نحل كبيرة والجو مليء بطنين مزعج يشبه الكهرباء غير المرئية يثير فيه مزيداً من الشعور بالعذاب والوحدة .. مزيداً من الانقبـاض والتمزق .. فبأنه لا ينتمي لأحد في هذا المكان وبأنه لو مات في تلك اللحظة لما أثار دمعة واحدة في عين أية نحلة حقيرة من آلاف النحل الذي يملأ القاعة من حوله .

كان يحارب الصمت والانعزال والكآبة القاتـــلة التي تملأ نفسه بأن يدير حواراً مع نفسه .. بأن يشغل نفسه بأشياء صغيرة تافهة تشعره بأنه موجود وبأنه يتكلم مع شخص ما .. كان يتأمل داخله بشيء من العمق والانعزالية .. عيناه تتحركان في أرجاء القاعة الفسيحة بحثاً عن رائحة مثيرة تدغدغ حواسه .. رائحة ظل ينتظرها طول حياته .. تحرك كتلة الصمت والانعزال الضخمة في داخله .. عيناه تعودان بخيبة أمل فاضحة ممتـاذة .. بذلك الخواء الرهيب الذي يملأهما طول الوقت .. يدخن في شراهة وعصبية بالغة .. يطلق دخان

السجائر بغضب في مؤخرة رؤوس الجالسين أمامه كأنه ينتقم منهم .. من شيء لا يستطيع تحديده تماماً .. ربما من البلادة وعدم القدرة على الاحساس بمأساته الخاصة أو مشاركته فيها .

يتحرك بقلق وعصبية داخل مقعده المصنوع من الصفيح الساخن .. قطة تصرخ بأعلى صوتها دون أن تطلق صيحة واحدة .

الصالة الفسيحة المخنوقة بالدخان والهمسات وطنين النحل تتناثر رؤوس صغيرة أشبه بالكرات .. مستديرة تماماً .. ملامحها ذائبة في الظلام المخيم حولها .. متشابهة إلى حد يثير القرف وهو يراها من الخلف مجرد كرات صغيرة من المطاط عائمة فوق بركة مياه راكدة مخنوقة بضباب مبكر معتم يزيد من حدة الاحساس بالتشابه لديه .

تصور لو أنه صاح بأعلى صوته لما سمعه أقرب الجالسين اليه.. هذه الرؤوس الصغيرة المتناثرة هنا وهناك تشبه قوارب الصيد المضيئة في عرض البحر تظهر ثم تختفي .. توحي باحساس شديد بالغربة والانعزال .. بأنها شيء ضائع لا يمكن الامساك به .

وهو يطلق دخان سيجارته في مؤخرة الرؤوس الجالسة أمامه .. الرؤوس الصغيرة المليئة بالقش أحس أنه ينتقم من غباء وبلادة أصحابها وأنه يبدد الملل بطريقة مسلية تماماً وباعثة على المرح .

هذا الكائن الذي يتحرك بعصبية شديدة فوق مقعده المصنوع من الصفيح الساخن ويطلق دخان السجائر بغضب في مؤخرة رؤوس الجالسين أمامه نموذج فذ لقرد المدينة المثالي الذي لا يمكن تمييزه عن باقي أفراد عشيرته الموجودين حوله أو أفراد جبلاية القرود الكبيرة في خارج قاعة السينما .

يحمل فوق كتفيه اربعيناً من السنوات العجاف الشديدة الثقل التي اوشكت ان تدفع به الى شيخوخة مبكرة .. الشيب غزا فوديه بغزارة

مؤلمة .. جسمه مال الى الامتلاء والترهل .. عيناه منكسرتان حزينتان على الدوام يملؤهما فراغ مخيف .. لا يشكو من مشاكل الجوع والفقر المزمنة لمعظم قرود المدينة الكبيرة .. يحس ان له طابعاً يميزه عن الآخرين لا يدري ما هو على وجه التحديد .. يكره جبلاية القرود الكبيرة من أعماقه .. عندما يرتفع غضبه إلى الذروة يتخيل أنه يشعل النار في مبانيها الكبيرة الشاهقة .. يقف في مكان بعيد مرتفع يراقب القرود الفزعة الخائفة وهي تغادر أوكارها المحفورة في الصخر وهي تصرخ من الألم والرعب بينما ألسنة اللهب المرتفعة تتطاردها بفظاعة متوحشة .

أحياناً يحس أنه حيوان ذو خلية واحدة بالغة الحساسية يعيش داخل قوقعة مغمورة تحت مياه سحيقة .. يعذبه احساس الفظيع بالوحدة .. بالحنين للجنس الآخر .. لمس المرأة الناعم المثير .. لرائحة عرقها .. لفحشها .. لبذائتها.. لذلك العالم الخرافي الذي تعيش فيه والذي لم يقدرْ له رغم سنوات عمره الطويلة أن يقترب منه بالقدر الذي يريد .. لا يجد حرجاً وهو يعبر جسر الأربعين « جسر اللاعودة بين الشباب والشيخوخة » في أن يصرخ بأعلى صوته طالباً الحصول على امرأة .. امرأة واحدة فقط .. حاجته الحميمة أقوى كثيراً من كرامته .. من اعتزازه بنفسه لكن هذه المرأة الوحيدة لم توجد أبداً في حياته .

أحياناً يحس أنه قنبلة زمنية ستنفجر في وقت ما .. في مكان ما .. لا يدري متى لكنه متأكد من ذلك .. لا أحد في هذا العالم يملك أن يحرمه حقه المشروع البسيط في الانفجار .

سيارة الاوتوبيس عائدة في المساء .. تجري بسرعة رهيبة رغم زحام الشوارع من حولها .. يقودها قرد منهوك القوى من قرود المدينة الكبيرة .. عصبي المزاج إلى درجة المرض .. يتمنى لو يدخل بالعربة المزدحمة في أحد الحوائط ليستريح منها إلى الأبد .

داخل العربة ممتلىء بقرود كثيرين محشورين في فراغها الضيق الذي تملأه المقاعد والهواء الساخن المعبأ بأنفاسهم ورائحة عرقهم.. بيده سيجارة يتحرك بها في حذر شديد داخل فراغ ضيق تسنى له الحصول عليه بصعوبــة وسط طوفان الأكتاف المحيطة به.. يخشى ان تمس جمرة السيجارة واحداً من الواقفين إلى جواره فينفجر في وجهه .. كل واحد من هؤلاء القرود المخنوقين بحرارة الجو المرتفعة داخل العربة المزدحمة وارتفاع معدل الرطوبــة في الجو ودخان السجائر ورائحة العرق هو اصبع ديناميت سينفجر في وجهه لو قرب جمرة السيجارة من فتيله الخاص .

كان يطلق دخان السيجارة بعيداً عن الوجوه المكشرة عن أنيابها المحيطة به.. الهواء الداخل من نوافذ العربة المفتوحة يعيد دخان السيجارة من جديد إلى هذه الوجوه فيزيد من كمية الضيق والعصبية التى تظهر فوقهــا .. القرود يتأففون في صمت .. لا تصدر عنهم حركة تذمر واحدة .. شفــاههم جامدة مغلقة .. يشعر بسعادة بالغة لأنه يسبب لهم ازعاجاً من نوع ما .

أعصابه متوترة مشدودة نتيجة الزحام الشديد داخــل العربة والرطوبة الخانقة ودخان السجائر ورائحة العرق وضيق المكان الذي يتحرك فيه .

فجأة يحس أن الرائحة المثيرة التي ظل يبحث عنها طويلا بعينيه .. بكل خلجة في نفسه قد أصبحت في متناول حاسة الشم القوية لديه .. الرائحة التي تدغدغ حواسه بشدة .. التي تبعث بكل الأحلام الراقدة في قلبه .. الرائحة تقترب منه .. أخيراً أصبحت إلى جواره .. ويفتح عينيه ليشاهد الفتاة الجميلة الواقفة على بعد خطوات منه .. يحس براحة شديدة تنسيه كل متاعب الزحام والحرارة الخانقة .. عيناه مركزتان على جسد الفتاة الرائع المثير منذ اللحظة الاولى لرؤيتها .. أعطته الفتاة انطباعاً بأنها لم تتزوج بعد ليس لأنه لم يلمح في أصابعها ما يدل على انتمائها إلى رجل آخر لكنه تأكد من ذلك الاحساس الذي لا يخيب في داخله والذي يؤكد له ذلك وعيناه الخبيرتان المدربتان تمسحان

جسدها البكر قطعة قطعة كأنه يلتهمه .. ذلك الجسد الرائع المثير الذي يملك كل بريق الجدة والحيوية وأن سنوات طويلة ستنقضي قبل أن يشيخ ويفقد شبابه .. الجسد الذي لم تمسسه يد انسان بعد كأنه غابة عذراء في مكان بعيد لم تطأه قدم انسان من قبل .. كأنها حواء الاولى التي لم تعرف بعد لمس أصابع الانسان وعبثها وقذارتها .. المرأة غالباً ضخمة مترهلة فوق جلدها السميك الحائل اللون بصمات رجال كثيرين عبثوا بها .. في صدرها عرق وانفاس رجال كثيرين .. من عينيها يطل انكسار فاضح ذليل .. ذلك النوع من الشبع التي تحدثه سنوات طويلة من الممارسة والشعور بالارتواء .. كأنها لم تعد شيئاً لم تمسسه يد انسان بعد بل شيئاً مستهلكاً من طول العبث به وامتهانه .

الفتاة تبدو عاملة في أحد المحال الكبرى أو كاتبة على الآلة الكاتبة في أحد البنوك .. منظرها يوحي بذلك .. بساطتها .. الرداء الرخيص الأنيق الذي ترتديه فوق جسدها البكر الرائع الذي يهيج كل توحشه المحروم .. يبدو أن هذه الفتاة لم ولن تحس به على الاطلاق فهي لم تلتفت ناحيته طول فترة وقوفها إلى جانبه .. لم تلتفت ناحية أحد على الاطلاق .. التأفف الذي يظهر على جانب وجهها المواجه لعينيه المفتوحتين عليها بضراوة متوحشة يعطيها جاذبية مروعة .. بأنها المرأة الوحيدة في العالم التي يمكن أن تثيره في تلك اللحظة .

عيناه مركزتان فوق ظهرها العاري الصغير الذي يشبه ظهر دمية في أحد الفتارين .. لونها بلون الحنطة التي تثير شهيته المفتوحة للأكل .. لها نفس مذاق ورائحة الخبز الخارج لتوه من الفرن .. رائحة الفانليا والبسكويت .

ما يثيره من هذه الفتاة الجميلة أنها تبدو واثقة جداً من نفسها .. من تأثيرها المدمع على معنويات الرجال المحيطين بها .. الرجال في كل مكان .. يشك في أن هذه الفتاة تعاني من أية مشكلة على الاطلاق.. حتى الجنس يبدو مشكلة محلولة بالنسبة لها .. لا يعتقد ابداً ان هذه الفتاة تسمع عواء الذئاب

التي يسمعها هو في داخله طول الوقت .. لو انه خلق فتاة لأصبح كائناً بلا مشكلة .. سنوات الأربعين العجاف تضغط فوق قلبه بكل ثقلها البالغ .. تكاد تدفـــع به إلى الصراخ المجنون المتوحش .. يحس بشعور حزين مرهق يسري في دمه كأنه نوع من الغبار .. بأنه وحيد تماماً وان الزمن يلتهم حياته بسرعة بالغة وبأنه لن يحقق شيئاً على الاطلاق .. وتبدو له الشعيرات البيضاء الغزيرة في فوديه شيئاً مخيفاً وباعثاً على القلق كأنها دقات ساعة تنبىء بقرب انتهاء حياته.. ما يعذبه .. ما يثيره.. ما يبهجه هو سهولة وحيوية وانسياب سنوات العشرين التي تحملها هذه الفتاة فوق كتفيها الصغيرتين .. انتابته رغبة حميمة في أن يلفت نظر هذه الفتاة الجميلة اليه بأية طريقة ممكنـــة حتى لو اضطر إلى ارتكاب جريمة ما .. تمنى لو أن بقدوره أن يحصل على ساعة حب معها يقضيها في مكان بعيد يستمتع فيها بهذه الثمرة الطازجة .

رفعت الفتاة يدها وأمسكت بالقضيب الحديدي المثبت في سقف العربة.. عيناه ازدادتا اتساعاً ورغبـــة وهما تشاهدان الشعرات البنية الخفيفـة المنداة بالعرق والنابتة تحت ابطها .. الشعرات التي تثيره إلى أقصى حد .. تقتله .. رمز مجرد لعلاقة الجنس الحميمة بين الرجل والمرأة لكنه كان حذراً وهو يفعل ذلك فعشرات العيون لذئاب جائعـــين مثله تحيط به .. تتمنى لو تبعده عن مجال المنافسة حتى لو ألقت به خارج العربة .

تخلخل زحام العربة بعض الشيء .. اقتربت منه الفتاة أكثر من ذي قبل.. تضاءلت المسافة بينهما إلى سنتيمترات قليلة معبأة بأنفاس الفتاة الحارة ورائحة عرقها المثيرة .. بوجودها الحي نفسه .. هذه الفتاة التي تمثـل له كل الاغراء والحنان الموجودين في العالم .

كان يقاوم رغبة مجنونة وقحة في أن يمد يده عبر المسافة الضيقة التي تفصله عن الفتاة فيلمس جسدها المثير البكر الذي يطلق كل قوى الجنون والتوحش في داخله .

كان مدركاً لكل الأخطار المحيطة به .. يمضغ بكثير جداً من الحنان والمعاناة كمية الجوع التي وصلت إلى فمه كأنه يجترها .. كأنه ثور عجوز .. الجنس في هذه اللحظة يتحول إلى حلوى مرة مغلفة بطبقة رقيقة من السكر عندما تذوب لا توجد سوى المرارة وحدها .

لو أنهم منحوه هذه الفتاة لمدة ساعة واحدة فقط لأراهم ماذا يمكن أن يفعل بها .. أنه الوحيد القادر في هذه اللحظة على الاستمتاع الحقيقي المدهش بهذه الفتاة الرائعة .. يعرف على الأقل مائة وسيلة لذلك .. من العار والغباء أن تقع هذه الفتاة في يد فتى أحمق مغرور يدور بها في الطرقات لأنه لا يملك ثمن الجلوس في مكان عام ثم يعود بها بعد ذلك إلى البيت .

بدأ يحس مع الوقت ومع السيطرة الكاملة لهذه الفتاة على أعصابه أنه ينساق إلى شرك مخيف .. أنهم يدفعون بغاز مخدر للأعصاب من خلال فتحتي أنفه ليغيب تماماً عن الوعي وأنه يمكن أن يفعل أي شيء مخيف بعد ذلك .

زاحم الأكتاف الكثيرة التي تحيط به حتى وصل إلى باب العربة .. أستنشق كمية هواء نقية هبت عليه فجأة من الخارج .. تنهد في راحة شديدة.. السيارة تدور في أحد المنحنيات .. تهدأ من سرعتها .. اندفع يجري إلى الشارع كأنه يهرب من شيء مخيف يطارده .. ظل يتابع السيارة بنظرات حزينة تائهة حتى اختفت تماماً من أمامه .

شعوره هو شعور ثعلب سمع انطباق الفخ الحديدي في الهواء لكنه لم يشعر به فوق ساقيه .. أفلت بمعجزة حقيقية .. أشعل سيجارة .. مضى يدخن بنهم وبقرف شديد .. يحس بشعور فريسة مهزومة .. العالم هزمه .. أثخن جراحه لكن جراحه الحقيقية لا توجد إلا عندما يعود إلى البيت .. عندما يحتويه المخدع البارد الموحش الذي احتوى سنواته الأربعين العجاف .. عندما يحس أنه جثة موضوعة في كفن وان البيت تحول إلى قبر وان زهوراً حزينة تنموا فوق جثمانه الميت الذي تحول إلى تراب .

العالم كله لا يساوي لمسة حنان لم توجد قط في حياته .. امرأة يتوق لها من أعماقه امرأة من النوع الذي شاهده في سيارة الاوتوبيس .

خطواته تتباطأ إلى درجة التسكع .. لا يدري إلى أين يذهب .. سنواته الأربعين العجاف تتكاثر فوق قلبه كنوع مسموم من الفطر أو نبـــات عيش الغراب .. يحاول أن يؤجل موته إلى أطول وقت ممكن .. يقف طويلاً أمام واجهات المحل الزجاجية المضيئة يشاهد أشياء شاهدها آلاف المرات من قبل لكنه يشاهدها هذه المرة للمرة الاولى في حياته .. يلتصق بالزجاج كأنه ذبابة نائمة فوقه .. يحس بأنه يكاد يسقط على الأرض .. يملأه شعور عميق بكراهية القرود الكبيرة الحجم التي تتحرك من حوله ولا تعبأ به .. يحس أنه لا ينتمي اليهم .. إلى قيمهم ومثلهم .. يكره رائحة عرقهم .. بذائتهم .. سبابهم .. يطمع في مدينة له وحده .. مدينة نظيفة .. مدينة يستطيع فيها أن يسطو على السيارات .. أن يرتاد أماكن اللهو الفاخرة .. يتناول أفخر أنواع الأطعمة والمشروبات دون أن يدفع مليماً واحداً فهو يملك كل شيء في تلك المدينة المسحورة .. دور السينما والمسرح والحدائق العامة والخاصة والعمارات الضخمة والفيلات والقصور والشوارع الفسيحة والمتنزهات الفاخرة .. مدينة يستطيع أن يسير فيها بحرية تامة .. باستمتاع حقيقي مدهش بالهواء النقي وأشعـــة الشمس وأنوار الليل المضيئة .. مدينة ليس بها رعــاع أو مجرمون أو رجال بوليس أو فخاخ تمسكه من قدمه .. مدينة يستطيع أن يلقي فيهــا بأعقاب السجائر المشتعلة وهو جالس في ظلام دور السينما وحيداً في القاعــة الفسيحة فارداً ذراعيه إلى جواره واضعــاً ساقيه على المقعد الأمامي دون أن يعترضه أحد .. يطلق صيحات خيفة مرحة كأنه هندي أحمر مخمور .. يحس أنه اله صغير يملك عالمــه الخاص الذي يديره لحساب نفسه وليس لحساب أي انسان آخر .. يريد أن يملك القدرة التامة للسيطرة على مقدراته .. أن لا يصبــح مجرد نقطة في بحر كبير اسمه المجتمع .. هو المجتمع .. هو نفسه .

عدد المارة قليل في ذلك الوقت من المساء .. لاحظ أن الصبي الذي يسير أمامه يترنح في مشيته .. خيل اليه أنه يتصنع ذلـــك .. تعمد ألا يلتفت ناحيته .. أوشك على تجـاوزه .. سقط الصبي الصغير على الأرض .. أسرع اليه .. ربت خده برفق محاولاً افاقته .. الصبي مغشى عليه.. التفت إلى المارة يستنجد بهم .. التفوا حول الصبي الصغير في شكل دائرة .. بذلوا كل ما في طاقتهم ليستعيد الصبي رشده .. باءت كل محاولاتهم بالفشل .

واحد من الواقفين لم يبد مقتنعاً بما بذلوه لاعادة الصبي إلى رشده .. قال أنه سيستدعي له الاسعاف .. أفهموه أن الاسعـاف لا تأتي إلا المصابين في الحوادث فقط .. إذن سأذهب لأحضر له الصيـدلي القريب .. حثوه على الاسراع .

رفع الصيدلي عينيه من فوق وجه الصبي المغشى عليه.. كلماته تفيض أسى وحزناً .. الصبي جائع جداً لهذا اغمي عليه .. لحظة صمت تخيم على الرجال الذين أحسوا بمنتهى العار .. منتهى الخجل من أنفسهم .. لم يتصور واحد من الرجال المطمئنين في بلاهة قدرية مخيفة إلى عدالة عالمهم أن صبياً صغيراً يمكن أن يموت من الجوع في مدينة كبيرة مليئة بالطعام والناس الطيبين من أمثالهم.

سأل واحد منهم باحساس عميق بالخجل والاهتمام الواضح بمصير الصبي الصغير .. هل يمكن أن يموت يا دكتور .. رد عليه وهو ما يزال يمر بقطنة مبللة بمحلول النوشادر أمـــام انف الصبي الذي بدا يفيق ويحرك رأسه .. بالتأكيد إذا لم يسعف بوجبة طعام على الفور .

قال واحد آخر سأذهب لأحضر له طعاماً .. جاء ومعه لفة كبيرة .. الصبي يلتهم طعامه بشراهة بالغة وهم ينظرون اليه في حنان يشوبه شيء من الاندهاش والاستغراب كأنهم لم يروا انساناً يتناول طعاماً من قبل .. رجل منهم حاول ان يسأل الصبي عن اسمه .. عن المكان الذي يوجد فيه ذووه ..

عن آخر وجبة طعام تناولها .. اخرسه باقي الرجال على الفور وهم ينظرون اليه باستنكار شديد .

انتظروا جميعاً حتى فرغ الصبي من تناول طعامه ثم هب واقفاً على قدميه واختفى في الزحام قبل أن يتفرقوا بعد ذلك .

جذب نفساً آخر من السيجارة المشتعلة بين أصابعه .. أطلق دخانها بغضب في مؤخرة رؤوس الجالسين أمامه .. أحس باستمتاع مدهش وهو يمارس لعبته القديمة المسلية التي يبدد بها الملل الذي يخنقه .

عيناه تتحركان في ارجاء قاعة السينما الفسيحة بحثاً عن الرائحة التي تدغدغ حواسه .. الرائحة التي تحرك كتلة الصمت في داخله .. عيناه تعودان بنفس الخواء الفظيع الذي يملأهما طول الوقت .. يحس جوعاً مؤلماً يتمدد في داخله .. جوع إلى شيء لا يمكن التصريح به لأحد على الاطلاق .. لكن لماذا لا يمكنه التصريح به لأحد على الاطـلاق .. راوده خاطر غريب .. لماذا لا يقف الآن فوق مقعده ويخاطب الناس الموجودين حوله مصرحاً لهم بحقيقة ما يحس به .. لماذا يظل هذا الموضوع سراً بينه وبين نفسه .. لـماذا لا يقول لهم أن الجوع الذي يتلوى في داخله منذ أربعين من السنوات العجـاف يشبه دودة شريطية عملاقة تمتص حيويته وشبابه .. تمتص أجمل سنوات عمره .. لماذا لا يقول لهم أنه يختنق من فرط حاجته الحميمة إلى الحنان والحب .. الجوع الذي في داخله لا يقل ضراوة عن الجوع إلى الطعام لكن بينما يظل في مقدوره دائماً أن يصرح أنه جائع إلى الطعام ثم يتناول طبقاً منه في أي مكان حتى لو اضطرته الظروف إلى تسوله أو سرقته فان هذا النوع الآخر من الجوع يظل دائماً من نوع العلاقات السرية بين الانسان ونفسه لا يمكنه التصريح به لأحد على الاطلاق وبالتأكيد لا يمكن تسوله أو سرقته .

لكن لنفرض أنه واتته شجاعة مفاجئة .. نوع من الجنون المؤقت الذي

يدفعه للتصريـــح بمشاعره للناس الموجودين حوله ولنفرض أنهم جنوا أيضاً واستجابوا له في هذه الحالة سيطلب طبقاً من الحب .. امرأة جميلة من النوع الذي رآه في سيارة الاوتوبيس ملفوفـة في ورقة جرائد قديمة أو موضوعـة فوق طبق من الفضة أو الصفيح .. سيأ كلها وحده .. سيأ كلهـا كلها وحده حتى يشبع تماماً .. من حقه أن يأكل النساء كأي رجل آخر في العالم أوشك أن يعتقد أنه جن حقيقة لأن هذه الفكرة السخيفة راودته .. ستحدث ضجة في جموع الناس الذين سيصرّح لهم بهـــذا الكلام بصوت مرتفع كأنه يخطب فيهم .. سيعتقدون حقيقة أنه جن .. سينزلونـه من فوق منصته العاليـة وينهالون عليه بمطارق من حديد تحول وجهه إلى كرة منتفخة مخضبة بالدم .. سيطلبون له عربة اسعاف تحوله إلى أقرب مستشفى للأمراض العقلية .. هناك يمكنه أن يصرخ بهذا الكلام ليسمعه كل زملائه المجانين دون أن يعترضوا عليه.

بصق المرارة الهائلة التي توجد بداخله على الأرض وهو يحس أنه بصق على كل الرؤوس الغبيـة للقردة الكبار الجـالسين حوله .. على كرات القش التي تصنع مأساته الخاصة .. هواية هؤلاء القردة صنع الفخاخ لبعضهم البعض .. وضع الضعفاء منهم داخل أقفاص ثم التلذذ بتعذيبهم .. كل من يحاول الفرار من داخل القفص يقبضون عليه ويعيدونه إلى داخل القفص من جديد .

جذب نفساً آخر من السيجارة اطلقه بغضب في مؤخرة رؤوس الجالسين أمامه .. لم يشعر بنفس الاستمتاع القديم وهو يفعل ذلك .. حتى هذه اللعبة لم تعد مسليـة بدرجة كافية .. عيناه تمتلئـان بنفس الانكسار العميق الذي يملأهما طول الوقت .. بذلك الخواء .. باللافائدة من مواصلة البحث.. يحس بأنه يتقوقع داخل نفسه أكثر .. يتنبه بشدة عندمـــا يأتي رجل وامرأة فيحتلان المقعدين الموجودين أمامه مباشرة .. يحس بنفس الشعور الذي أحس به عندما دلفت امرأة شابة جميلة ذات رائحة نفاذة مخدرة إلى داخل سيارة

الاوتوبيس العـائدة في المساء . تتهيج حالة الجوع والتشوق إلى الحنـان في داخله.. يتحول إلى قنفذ ذي شوك منتصب من الداخل يشكه في كل أعصابه الحساسة .. يتحفز إلى انقضاض مفاجىء على شيء يحس حاجة حميمة اليه .

رائحة المرأة الجميلة التي ظل يبحث عنهـا طول الوقت خياشيمه المفتوحة على آخرها .. تصيبه بحالة غيبوبة رائعة .. أراح رأسها الجميـل فوق كتفيه وهو يحس حناناً لا حد له .. أصابعه المحمومة تجوس في سهولة رائعة داخـل شعر المرأة الأسود الفاحم .. تهبط إلى عنق المرأة الناعم الأبيض وتتحسسه في عذوبة رائعة .. انقض بشفتيه كمصاص دماء عريق على عنق المرأة الناعم الأبيض وغرس فيه أنيابـه .. ضم جسد المرأة الذي يثير شهيته المفتوحة إلى صدره .. أحس بسخونة جسدها الممطرة تسري إلى قلبه .. تحسس ذراعها العاري الأبيض وهو يغلق عينيه .. أعصابـــه بدأت تنتفض تحت ركامات الثلج الذي بدأ يذوب بعد أن اشرقت فوقه شمس مفاجئة .

بدأ يتنبه الى خطورة هذا النوع من أحلام اليقظة .. لم يكن في مقدوره كالمرة السابقة ان يقفز هارباً من سيارة اوتوبيس تهدىء من سرعتها في أحد المنحنيات لينجو بحياته.. عاطفته تنحسر ويحل محلها شعور سريع بالاحباط.. شعور بالتمرد والثورة .. المرأة الجالسة على بعد سنتيمترات قليـلة منه نجمة بعيدة لن يطولها أبداً بأصابعه .. ينظر اليهـا فقط ويشعر بالحسرة .. بدأ يتنبه لأول مرة الى رأس الرجل الجالس الى جوارهـــا .. مصنوعة بعناية شديدة مقززة .. مستديرة كأنها كرة شراب مليئة بالقش .. لا تختلف كثيراً عن الرؤوس الغبية الموجودة حولها .. صلع خفيف يشوبهـا من الخلف .. كراهيته تزداد لهذه الرأس الحمقاء عندما يفكر بأن صاحبهـــا يستمتع بما لا يستطيع هو الاستمتاع به.. غاظه من الرجل على وجه الخصوص انه يبدو غير مقدر للشيء الثمين الذي يوجد بين اصابعه .. شدة وثوق الرجل من

نفسه .. من حظه في الحياة .. ان امرأة جميلة تحبه وتمنحه حناناً بلا حدود هو أقل ما يقنع به من الحياة .. تمنى الشر لهذا الرجل الأحمق .. تمنى الشر لرجل لا يعرفـــه لمجرد انه يملك امرأة جميلة وكانت تلك هي قمة المأساة بالنسبة له .

اطفئت أنوار القاعة .. حاول عبثاً ان يركز بصره على الصور الملونة التي تتحرك على الشاشة عيناه تعودان لتستقر من جديد فوق رأسي الرجل والمرأة اللذين تقاربا بشكل أصبح يمثل نقطة جذب بالنسبة له .. بدا وكأنـه الوحيد في الصالة الفسيحة المليئة بالناس الذي يراقبهما .. المرأة انكمشت في أحضان رفيقها الذي ضمها بشدة اليه فاستكانت له.. كان يميل برأسه بين الحين والآخر ويهمس في اذنها بكلام غير مسموع فتزداد انكماشاً بـين أحضانه .. يقبلها في شعرها الأسود الفاحم المضمخ بالعطر .. يده المحمومة تتحسس ذراعها العاري الأبيض في نهم واضح .. يشم كل شيء فيها خصوصاً دفئها الأنثوي المثير .. هذا الدفء له وحده لا يشاركه فيه انسان آخر .

المرأة الغائبة عن الوعي لا تحس بالرجل الذي يراقبهـا من الخلف كما لو كانت الشيء الوحيد الذي يثير اهتمامه في تلك اللحظة .. لا يمكنها ان تتصور مدى المرارة التي يحسها .. لا تتخيل ان رجلاً مثله يشعر بكل هـذا الجوع الذي يمكن ان يوجد في الحياة.. كراهيته تنتقل فجأة الى المرأة نفسها.. لكنه كان يعود فيحلم بهـــا من جديد .. يتصور نفسه في مكان الرجل الجالس الى جوارها مستمتعاً بكل الحب والدفء بدلاً منه .

ثم يعود ليكرهها من جديد ثم يحبها من جديد .

السيجارة تحولت الى عقب صغير يوشك ان يحرق اصابعه .. مال بجسمه الى الأمــام ليضع عقب السيجارة في مطفأة السجائر الموجودة بظهر المقعد

الذي تجلس فوقه المرأة .. ضاقت المسافة بينه وبين مصدر الجوع والحلم الى بضعة سنتيمترات قليلة مشحونة بكل طاقة المرأة الدافئة المثيرة التي تهيج من ثائرة حواسه المجنونة الجائعة .

انطلقت طيور من نار أخذت تتلاطم في صدره .. تحوم في أفق دام ملتهب.. ريشاتها المحترقة تتساقط علىالأرض فتحرقه وتزيد من تهيج حواسه.

أصبح قريباً جداً من المرأة .. رائحة شعرهـــا المثيرة تملأ خياشيمه .. تصيبه بتلك الغيبوبة التي يحبها ويخشاها في نفس الوقت .. تنبه فجأة على ان شيئاً خطيراً حدث أثناء الفترة القصيرة التي غابها عن الوعي.. الحقيقة تقترب منه محملة بأمطار سوداء تساقطت على نيرانه فأطفأتها .. تحول فجأة الى تمثال بارد يفكر بعقله .

بدأ يعي أحداث اللحظات القليلة التي انقضت .. شفتاه اقتربتا كثيراً من رأس المرأة ثم لم يدر ما حدث بعدهــا لكن الرجل الجالس الى جوار المرأة والذي بدأ في حالة ثورة شديدة يدري ما حدث بالتأكيد .. الرجل يمسكه بشدة من ملابسه يحـاول أن يخرجه من المقعد الذي يجلس فوقه ومن الصف كله .. بتلقائية يقاوم الرجل دفاعاً عن نفسه .. ما يزال يشعر بأنــه نصف غائب عن الوعي .. يتراجع بجسمه الى الوراء فيصطدم بالجالسين الى جواره.. يدفعونه بأيديهم في ضيق وغضب طالبين منه ومن الرجل الآخر أن يبادرا بالخروج من القاعة .. الرجل يكيل له سباباً فاحشاً لم يسمعه طول حياته .. يسدد له بضع لكمات قوية ومفاجئة فوق وجهه .. لكمات الرجل تصيبه بألم فظيع .. تدمي وجهه .. ما يزال يشعر بأنه نصف غائب عن الوعي .

خرج هو والرجل الى الممشى الطويل المؤدي الى باب الخروج .. الرجل ما يزال يمسكه بشدة من ملابسه التي أوشكت أن تتمزق بين اصابعه ..

ما يزال يكيل له الضربـات فوق وجهه الذي تحول الى كرة منتفخة مليئة بالجروح العميقة والكدمات المتقيحة .. ما يزال ينهمر من فمه ذلك السيل من السباب الفاحش الذي لا يدري كيف يرد عليه .

صفان من العيون الجائعة تفترسه بوحشية بالغـــة .. صيحات استهزاء وصفير حاد يدويان بشدة في اذنيه .. انضم اليهما بعض موظفي السينما الواقفين بالقرب منهما .. مضوا جميعاً في الطريق الى خارج القـاعة .. بدأ يتنبه مع الوقت الى فظاعة الجرم الذي ارتكبه وبدأ يدرك انه سيدفع ثمناً باهظاً له .. ملابسه تمزقت تماماً بين يدي الرجل وهو يجذبـه منها .. قميصه تخضب ببقع من الدم وكذا ملابسه الداخلية الممزقة التي ظهرت من تحت القميص .. تحسس وجهه بأصابعه .. شعر بملمس سائل لزج ذي رائحة كريهة يغطي وجهه .

أحس أنه عجل سقط على الأرض وان كل من بالقاعة سيذبحه .. كل منهم سيذبحه لسبب خاص به وحده .. أنه مسيح سيتحمـــل خطايا كل الناس الموجودين بالقاعة .

بدا مستسلماً في استكانة بالغة لضربات الرجل وسبابه المقذع الذي يوجهه له وجذبه له من ملابسه التي تمزقت تماماً وتهدلت خارج سرواله .. مستسلماً وعاجزاً في نفس الوقت عن الرد للمرة الاولى في حياتـــه .. ماذا يمكن أن يحدث له أكثر من ذلك .. لقد ضاعت كرامته إلى الأبد .

بد يمارس محاولة يائسة لاستعادة شيء من كرامته الضائعـة .. بدأ يقول للرجل في استسلام مهين .. سأذهب معك إلى قسم الشرطة أو إلى أي مكان آخر تريده لكن دعني قلت لك .. ليس من حقك أن تجذبني بهـذه الطريقة أو أن تسبني ثم بدأ يخاطب الآخرين قائلا .. صدقوني أنني لم أفعـل شيئاً مما يقوله هذا الرجـل .. أنني لا أدري ما الذي حدث تمامـاً .. لقد غبت عن

الوعي ثم أفقت فجأة على هذا الرجل يكيل لي اللكمات ويجذبني من ملابسي.. صدقوني أنني لا أدري ما حدث .

كان واثقاً أن أحداً لن يصدق حرفاً واحداً مما قال ليس هنا أو في أي مكان آخر خارج هذه القاعة .. ملابسه الممزقة المخضبة بالدم المتهدلة خارج سرواله .. الكرة المنتفخة بالدم التي توجد بها عيناه .. استسلامه لهجوم الرجل الضاري عليه .. عجزه عن الدفاع عن نفسه بصورة مشينة .. فعلته النكراء كما صورها الرجل الآخر كلها وسائل خذلانه وعدم تصديقه من جانب الناس المحيطين به .

وصلوا إلى مدخل السينما المغمور بالأضواء .. انضم اليهم مزيد من موظف السينما الواقفين هناك .. تدريجياً بدأ تحول مفاجىء يطرأ على الموقف لصالحه.. تبين الرجال الواقفون حولهما مدى صلافة وتعنت الرجل الآخر الذي أصبح واضحاً تماماً أنه أخذ أكثر من حقه وأن ما يفعله الآن هو نوع من التشدد الزائد عن الحد .. حاولوا اقناع الرجل الآخر بتركه يذهب إلى حال سبيله لكنه رفض وأصر على اصطحابه إلى قسم الشرطة .. وأخيراً رضخ الرجل لتوسلات الرجال الواقفين حوله بعد أن تبين له أن تشدده الزائد ليس في صالحه وأن توجهه إلى قسم الشرطة ليس أكثر من مضيعه للوقت سيكون هو الخاسر الوحيد فيها لأن ذلك على الأقل سيحرمه من مشاهدة الفيلم الممتع في داخل قاعة السينما .

كان هذا هو اقتناع الرجل الحقيقي لكنه ظل يتظاهر بعكسه تماماً أمام الرجال الواقفين حوله حتى إذا ما أفرج عن ضحيته المسكينة بدا وكأنه يقدم تنازلاً كبيراً من جانبه .. أخيراً دفعه في صدره بقوة وهو يوجه له آخر دفعة من السباب الفاحش خرجت من فمه ثم توجه إلى داخل قاعة السينما .

العيون من حوله تتفرس فيه باستهجان شديد كأنه أغرب شيء في العالم..

عيون ان لم تبادله العداء الصريح فهي لا ترتاح لوجوده على الأقـــل .. اتهام صريح يطل من حدقات تلك العيون المفترسة فيه لا يدع أمامه مجالاً للشرح أو الدفاع عن نفسه .. اكتفى بأن خفض بصره أمـام تلك العيون المتوحشة مؤكداً بذلك صحة الاتهام الموجه له .

امتدت يد واحد من الواقفين حوله وانتشلته من ورطته .. سار وراء اليد الممدودة له في استسلام يائس حزين حتى دورة الميـاه القريبة وبشعور عظيم بالامتنان لليد التي امتدت له .

نظر إلى مرآة حوض الغسيل الصغيرة وأحس انه يريد أن يجهش بالبكاء.. كان قد بلغ أقصى درجات المهانة والسوء .. يشبه انساناً ضرب بقنبلة نابالم.. انساناً لا يمكن اعادته إلى أصـله من جديد .. أفظع ما تطلع اليه في المرآة كان هو عيناه .. كان فيهما احساس عميق بالمهانـــة واليأس .. لم يتصور أنه يمكن أن يعود لهاتين العينين المضروبتين احساسهما السابق بالكرامة .. اسال الماء فوق وجهه .. الماء يتحول وهو ينزلق فوق وجهه إلى لون أحمر باهت مشوب بصفرة مقززة بينما هو يزيل بأصابعه كل الكدمات والقشور التي تجلطت فوق وجهه الدامي المنتفخ .

فكر في موقف الرجال منه .. لم يعجبه تخاذلهم أمام تعنت وصلافـــة الرجل الآخر .. إذا كانوا مقتنعين بعدالة موقفه فلماذا لم يقفوا معه بوضوح وصراحة بدلاً من التوسل المهين للرجل الآخر ومحاولة استرضائه على حسابه.. ثم هل فهموه .. هل تعرفوا على دوافعه الحقيقية .. يشك كثيراً في ذلك .. وأحس أنه يكرههم جميعاً ويكن لهم احتقاراً عظيماً .

الاحتقار يشمل حتى الرجل الطيب الذي أخذ بيده إلى دورة المياه والذي بدا من كلماته متعاطفاً فاهماً بصورة أوضح من الآخرين .. هذا الرجل أيضاً

لم يأخذ ذلك الموقف الذي كان يحتم عليه واجبه أن يأخذه من البداية .. تردد .. تخاذل .. توسل كالآخرين .

وجهه أصبح نظيفاً بعد أن امال فوقه تلك الكمية الهائلة من المياه .. اخرج منديله الأبيض من جيبه وبدأ يجفف به وجهه المبتل .. المنديل الذي تشبع تماماً بالماء المائل إلى الصفرة تحول إلى ما يشبه مناشف المطبخ الباهتة اللون والمبتلة دائماً .. ساوى الشعرات الخفيفة في رأسه الصلعاء .. حاول بقدر الامكان ان يصلح من شأن ملابسه المتهدلة خارج سرواله الذي تمزق هو الآخر وتخضب بالدم .. كيف سيخرج بهيئته المخيفة هذه ليقابل من جديد كل العيون المتربصة به في مدخل السينما المغمور بالأضواء .

في صمت صافح الرجل الواقف الى جواره وغادر دورة المياه .. وجد نفسه من جديد امام العدسات المكبرة للعيون المفتوحة عليه بضراوة متوحشة .. عارياً كما ولدته أمه .. عبر بسرعة أمام تلك العيون المتفرسة فيه وكأنه يخشى ان تقتنصه .. سمع بضعة تعليقات مهينة زادت من حدة الألم والعذاب في نفسه .

وجد نفسه أخيراً في الشارع المليء بالناس والعربات ومئات من العيون التي تنظر اليه باستهجان شديد .. ما زال عارياً كما ولدته أمه .. نادى إحدى سيارات الأجرة .. أحس براحة عميقة وهو يريح جسده المتعب فوق مقعدها الوثير .. تحركت به السيارة بسرعة عن مدخل السينما المزدحم بآلاف العيون التي تريد اقتناصه .. أحس أنه أفلت من شرك مخيف أعد لإمساكه من قدمه ببراعة متناهية .

شريط من الصور السريعة المتلاحقة التي تشبه فلاشات عدسات التصوير تبرق بشدة أمام عينيه المتعبتين .. حزن شفاف يسري في خلايا أعصابه التي

انتباها استرخاء مفاجىء .. يجعله أكثر قدرة على الحلم والتفكير المنطقي الهادىء وفلسفة الأمور .

صور كثيرة تتزاحم للخروج من فتحة صغيرة في مؤخرة رأسه واحدة منها تستحوذ على كل تفكيره وانتباهه .. صورة صبي صغير جالس فوق الطوار في مكان ما بالمدينة الكبيرة يتناول طعامه بشهية بالغة وقد التف حوله أناس طيبون بسطاء من أهل المدينة الكبيرة يشاهدونه بطيبة وحنان هو يمارس هذا العمل المشروع تماماً .. نفس الناس الطيبين الموجودين الآن داخل قاعة السينما والذين ارتدوا جلود الذئاب الجائعة والذين لم يفعلوا شيئاً سوى مجرد تمزيق كرامته وامتهانها .



١٠ الكلب يعرف أكثر

أنا وزوجتي وأمها نكون الأضلاع الثلاثة في مثلث زواج فاشل .. زوجتي صغيرة مدللة .. جميلة إلى حد يثير شهيتي المفتوحة دائماً وأنا راض عن هذا بالتأكيد لكن هناك شيء واحد يعيبها في رأيي .. أعني زوجتي .. انها ما تزال تتصرف بطريقة طفولية محضة.. تتصرف كما لو أنها ما زالت تعيش فوق حجر أمها وأن هذا يفرض عليها واجباً مقدساً حيال هذه المتسلطة العنيدة.. أن تستطلع رأيها في كل كبيرة وصغيرة تتعلق بحياتنا الزوجية حتى أدق ما يدور بيننا داخل حجرة النوم .

فعندما تختار زوجتي مثلاً أي أصناف الطعام تطبخ اليوم أو بالأحرى تأمر الطباخ بإعدادها حيث أنها لا تعرف شيئاً على الاطلاق عن كيفية طهو الطعام فانها ترفع سماعة التليفون وتطلب من أمها أن تحدد لها هذه الأصناف وعلى الفور يأتي صوت الام محدداً إياها وعليّ دائماً أن أخضع للذوق الفج العنيد لهذه الأم المتسلطة التي استطاعت بالخبرة أن تحدد الأصناف التي أحبها وتلك التي لا احبها وهي توحي دائماً لابنتها المنقادة لها باعداد الأصناف التي لا احبها بل أن زوجتي لا يمكنها حتى اختيار ثيابها بنفسها .. امها تحدد لها نوع القماش والتفصيلة بل أن زوجتي لا تستطيع اختيار ثوب من دولاب ملابسها لمناسبة

ما .. أمها تنوب عنها في هذا العمل والاتصال بينهما مستمر دائماً عبر خط التليفون .. تحدد لها شخصيتها نفسها كل ذلك يبدو شيئاً لا يقارن إلى جوار العمل الخطير جداً الذي تقدم عليه زوجتي ببلاهة نادرة .. افشاء أسرار حياتنا الزوجية بصفة دائمة وتفصيلية لأمها الفضولية المتسلطة التي تنتابها حالة شراهة حقيقة وهي تشمشم بأنفها المسعور داخل حياتنا الزوجية بحثاً عن الفضائح والمنازعات .. اختراعها إن لم توجد أصلاً .

أحس حقيقة أن علاقتي الحميمة مع زوجتي فقدت خصوصيتها .. فقدت حميمتها .. أصبحت نهباً مشاعاً بيننا نحن الثلاثة .. فأنا متزوج من امرأتي وحماتي معاً .. بل يخيل إليّ في بعض الأحيان أنني امارس الحب مع زوجتي داخل حجرة من زجاج شفاف أمام عيني أمها المتسلطتين اللتين تشاهدان ما يحدث أمامها باستمتاع غريب مذهل .

أحس بالخجل عندما ألمس بأصابعي ذلك الجزء العاري من جسد زوجتي أو عندما أقبلها في شفتيها أو أخلع عنها ثيابها لأنني أحس أنني أفعل ذلك أمام عيني أمها المليئتين بالضحك وبسخرية مكتومة لا حد لها وبنوع عجيب من الشماتة .. ابنتها في الصباح ستقدم لها تقريراً مفصلاً عن كل ما دار بيننا داخل حجرة نومنا بل يخيل إليّ في أحيان كثيرة أن زوجتي تستأذن أمها قبل أن تقرر منحي قبلة سريعة فوق شفتيها أو ضمة إلى صدرها لأنها تخشى لو فعلت ذلك دون اذن منها أن تغضبها .

في مرات كثيرة أحس وأنا اشاهد البريق الشامت الساخر المتسلط الذي يلمع فوق مقلتي حماتي انها تعرف أن رائحة فمي كانت كريهة بالأمس أو انني كنت اشعر بإنهاك شديد فلم أقو على عمل شيء مع زوجتي .

أعزي نفسي قائلاً عندما تتأزم العلاقة بيني وبين زوجتي الجميلة المدللة وتبدو نقائصها واضحة تماماً أمام عيني في تلك اللحظات التي أشم فيها رائحة حماتي مستقرة في المسافة الضيقة التي تفصل بيننا في الفراش . أعزي نفسي

قائلاً ان حياتي الزوجية التي بدأت بحلم جميل من ناحيتي على الأقـل تستحق ان أكافح من اجلها حتى النهاية .. ان أبذل جهداً اكبر لاصـــلاح رونقتها الصغيرة .. حماقاتهـا .. صغر سن زوجتي وتدليلهـا الدائم هو العذر الذي التمسه لها .. بضع سنوات من الخبرة وترويض النمرة المتوحشة كافية لانضاج شخصية زوجتي الطفولية الفجة واعتمادها القائم على أمها .

الأيام تثبت لي انني واهم في تصوري وان زوجتي لن تنضج ابداً وان عليّ ان اشم دائماً رائحة حماتي تحت جلد زوجتي كأنني تزوجت حماتي .. الحلم يموت في قلبي .. الأمل في حياة زوجيـة سعيدة مع زوجتي .. احس انني عاجز عن تحمل المزيد من الاذلال وخيبة الأمـل والاحساس الحقيقي بالتعاسة .. واقرر الهروب من وجه زوجتي المدللة .. اقرر ان اضع قنبلة زمنية في حياتنا الزوجية وافجرها فوق رأسينا لكني لا املك الشجاعة لذلك .. دائماً اتراجع في اللحظة الأخيرة .. دائماً ينمو في قلبي امل اعلم انه مزيف لكني اتعلق به لأنني لا املك سواه .

افظع الامور هو عندما تثور مشاجرة ما بيني وبين زوجتي .. انها ترفع سماعة التليفون وتطلب من امها الحضور لتنضم اليها في المعركة المؤكدة بيننا .

عندما افكر في ان حماتي في طريقها إلى البيت اتخيل ثوراً هائجاً في طريقه إلى متجر كبير للصيني ومدى الدمار الذي يمكن ان يحدثه بداخله .

أدير المفتاح في قفل باب الشقة بعد يوم عمل مرهق طويل .. لا اشك في ان الثور الهائج قابع بانتظاري في الداخـل .. أتوقع ان ارى حطاماً كثيراً من حولي .. ان اسمع صوت آنية تتحطم طول الوقت فيتمزق قلبي .. ستضع المرأتان حراباً مسمومة في قلبي .. ستقطعان اعصابي الحساسة .. مشاعري .. ستصدران اشعة مخدرة من عيونها الزجاجية اللامعة لأصاب بشلل في اعصابي وبعدم قدرة على المقاومة او الحركة .

راودتني فكرة الهروب القديمة وانا ادير المفتاح من قفل باب الشقة.. حتى وانا في الطريق إلى البيت ظلت هذه الفكرة تراودني لكنني صممت على الرجوع إلى البيت ومجابهة المشكلة مرة وإلى الأبد رغم انني كنت أعلم تماماً انه اسوأ وقت لمجابهة مشكلة من هذا النوع .. عظام ساقي تفتتت تحولت إلى مسحوق طباشير يسبح في دمي .. امعائي تصرخ من الجوع الذي يتلوى بداخلها .. عيناي تكادان لا تبصران شيئاً امامهما من فرط الوهج والضعف الذي يملأهما ثم ان الفرصة سانحة الآن لوجود حماتي في البيت لحسم الموضوع مرة وإلى الأبد.

احس تخاذلاً شديداً في قواي المحاربة وانا اتأهب لخوض معركة الحياة والموت مع المرأتين المتربصتين داخل الشقة .. متاعب اليوم الطويل المرهق تضغط على اعصابي بشدة .. في الصباح خرجت من البيت دون تناول طعام الافطار لأن زوجتي المدللة كانت تتظاهر بالنوم نكاية بي .. ساعات طويلة قضيتها واقفاً على قدمي داخل حجرة الكشف المكتظة بالمرضى في المستشفى الذي اعمل به .. السيجارة لا تفارق شفتي .. تبعث بدخان مر يملأ معدتي الخاوية .. يصيبني بالغثيان .. عرق لزج يتصبب بغزارة فوق كل مكان من جسمي الساخن المرهق .. يبلل ملابسي .. يجعلها تلتصق بجلدي فتسبب لي ازعاجاً شديداً .. أصل إلى اقصى حالات الضيق والتوتر وانا اتخيل ان ما سيحدث لي في البيت اسوأ كثيراً مما يحدث لي الآن .

السيارة الصغيرة في طريقها إلى البيت .. الثانية ظهراً .. هواء ساخن لافح يهب من نوافذها المفتوحة يملأ داخل السيارة بجحيم لا يحتمل.. لا استطيع ان امنع نفسي من الحلم بوجبة طعام شهية .. حمام بارد لذيذ .. فراش ناعم وثير لدى عودتي إلى البيت .. جسد زوجتي المضمخ بالعطر .. قبلاتها .. حنانها .. حبها .. رغم انني متأكد انني لن احصل سوى على مشاجرة كبيرة تتحطم فيها اعصابي وتموت احلامي على الفور .

فتحت باب الشقة بعد لحظة تردد قصيرة احسست وانا اغلق الباب ورائي

انني فأر صغير يدخل المصيده بقدميه .. باب المصيده اصبح موصداً من خلفي .. ليس هناك مجال للتراجع الآن .. عيناي تبحثان بسرعة عن المرأتين القابعتين في انتظاري داخل الشقة .. يدق بعنف شديد وانا اشاهدهما جالستين فوق اريكة حجره الضيوف المواجهة لباب الشقة .

تقدمت من الامرأتين وأنا أضع ابتسامة كاذبة فوق شفتي.. احاول بصعوبة بالغة أن أتماسك .. عينا حماتي تكشفان زيف الابتسامة التي أضعها فوق فمي.. أحس كراهية شديدة لها .. أود أن أخنقها بأصابعي .. أخنق عنقها الضخم المترهل المليء بكلمات سباب متحفزة للخروج منه .. أتمالك أعصابي للنهاية .

ابتسامتي تزداد زيفاً وأنا أمد يدي لحماتي مرحباً .. لتتحول إلى شيء مثير للغثيان .. المرأة الرهيبة توجه لي نظرة قاسية تتضمن اهانة بالغة لرجولتي .. ابتلع الاهانة رغبة في المسالمة .. ابتسامتي تكتسب شيئاً من الحقيقة والصدق وأنا أتقدم ناحية زوجتي الجميلة المتحفزة هيالاخرى للانقضاض عليّ .. مسالم تماماً .. في داخلي قدر لا ينضب من التسامح والغفران والحب .. عيناي تصطدمان بنظرة جليدية رهيبة تنبعث من عيني زوجتي .. أشاحت برأسها إلى الوراء عندما أردت مداعبتها أسفل ذقنها .. وجهت لي هي الاخرى اهانة جديدة .. لم أكن على استعداد لبدأ مشاجرة جديدة مع المرأتين في هذا الوقت بالذات .. تركت لهما أن تبدأ الخطوة الاولى لكني صممت على مجابهة المشكلة إذا بدأت الآن .

وضعت نفسي في مقعد صغير أمامهما وأنا أحس بالهدوء الذي يسبق العاصفة .. انفجرت الحرب بيننا فجأة .. كنت عازماً على انهائها بأسرع ما يمكن حتى أتمكن منتناول الطعام بهدوء والدخول إلى الفراش والنوم بعمق.. بدأت أرد ببعض طلقات المدفعية الصغيرة التي لم تكن تصيب الهدف لمجرد اثبات وجودي وقدرتي على الرد .

القذائف تنهمر فوق رأسي بلا هوادة .. قذائف لا ترحم .. تحول هيكل كرامق الفولاذي الضخم إلى أشلاء محترقة.. لحمي يحترق .. يتحول إلى دخان أسود كثيف يخنقني .. تدريجياً وبتعمد من جانبي بدأت حدة المعركة تميل إلى الهبوط ومن ثم بدأت أحلم بالأشياء التي لم تفارق خيالي منذ قدمت إلى البيت.. الطعام والفراش الناعم اللذيذ والحمام البارد المنعش بعد الاستيقاظ من النوم .

رائحة الطعام المنبعثة من المطبـخ تملأ خياشيمي .. تثير شهيتي المفتوحـة بصورة بالغة .. أتجه إلى حجرة الطعام التي كان من الممكن رؤيتها وأنا جالس في حجرة الجلوس .. شكل المائدة يبدو غريباً وغير مألوف .. منسقة بطريقة لا نعدها إلا عند استقبـــال ضيوف أعزاء .. غطاء ذو ورود مشغولة على الجانبين يفترش المائدة .. اناء من البلور الفـاخر موضوع في الوسط .. ممتلىء بورود جميلة ملونة.. أدوات مائدة فاخرة.. أطباق من الصيني الغالية الثمن.. مناشف مطبقة على هيئة قراطيس طويلة موضوعة داخل الأكواب .. احاول بذهول أن أتذكر مناسبة ما تستحق كل هذا الاهتمام ثم فجأة أتذكر وبسخرية شديدة أن حماتي تزورنا اليوم .. لا ريب أن ابنتهـا الحمقاء تعتقد أن هذه المناسبة تستحق هذا التكريم البالغ .

فجأة دخلت أخت زوجتي الكبـيرة إلى حجرة المـائدة .. ابتسمت في وجهي وهي تحييني بإيماءة خفيفة من رأسها .. وضعت اناءاً من الشوربـــة الساخنة على المائدة.. وجهها الأسمر الباهت الذي لا يمكن وصفه بالجمال يتألق بشدة .. قالت بعذوبة شديدة خدرت أعصـابي .. أعلم أنك جائع جداً .. الطعام لن يتأخر كثيراً .. بضع دقائق فقط ثم يصبح كل شيء جاهزاً .

قبل أن تنصرف توقفت قليلاً .. مدت يدها إلى جوانب متهدلة من غطاء المائدة وساوتها بالجوانب الاخرى .. أصلحت من وضع الورود داخـل اناء البلور .. دست أنفها داخل تلك الورود اليانعة وأخذت نفساً عميقاً منها .

لم أصدق المشهد الذي بدا لعيني غير قابل للتصديق يتناقض تماماً مع الحقيقة التي أعرفها عن الفتاة.. الحقيقة التي تقول أنه لم يكن من عادة اخت زوجتي الكبيرة أن تزورنا كثيراً في البيت وعندما تفعل ذلك كانت تتصرف كضيفة فقط أعني أنني لم اكن اشاهدها تدخل إلى المطبخ أو تحمل أطباق الطعام إلى المائدة أو تتصرف كربة منزل .

كان هناك انطباع دائم في خيالي عن هذه الفتاة القبيحة التي لم تتزوج بعد والتي يوشك أن يفوتها قطار الزواج .. انطباع يجعل شعوري تجاهها مزيجاً غريباً من الشفقة والشعور بالاشمئزاز .. كنت أقدّر شعورها تماماً عندما أراها تتقوقع داخل نفسها بينما الحياة تموج بالحركة من حولها .. قبحها الشديد يحول بينها وبين الاندماج الكامل في الحياة المحيطة بها .. كانت معقدة .. الصورة التقليدية لفتاة قبيحة معقدة .. صورتها وهي تتصرف كفتاة عادية مرحة وسعيده كانت مفاجئة بالنسبة لي .. لكنني كنت سعيداً بالتحول المفاجيء في حياتها .. سعيداً ومدهوشاً في نفس الوقت .

جاءت جلستي إلى جانبها عندما قمنا لتناول طعام الغداء .. سألتها في طبيعية فقط حتى لا تلاحظ المرأتان شيئاً فتثيران مشاجره جديدة .. سألتها عن الشخص الذي أحضر الورود إلى البيت .. كان يخامرني الشك في أنها هي التي أحضرتها لكنني أردت التأكد من ذلك .. أجابت بأنها اشترت الورود وهي في طريقها إلى البيت لأنها اعتقدت انها ستحدث تأثيراً مهدئاً عندما تثور المشاجرة بيني وبين زوجتي .

بضحك .. اذن كنت تتوقعين مشاجرة بيني وبين زوجتي .. ابتسمت ولم تجب .. حدجت اختها الجميلة الجالسة أمامها بنظرة ذات مغزى .. سألتها وأنا أبدي إعجابي البالغ بمذاق الطعام الشهي الذي أتناوله وهل أنت التي أعددت الطعام ايضاً .. وهي ما تزال تبتسم ابتسامتها الآثرة الغريبة كلا لكني ساعدت الطباخ في إعداد المائدة وعمل السلاطه .. هل أعجبتك .

جداً .. بفضول بعد برهة من الوقت .. لكنك تجيدين طهو الطعام أليس كذلك .

وهي تصوب إليّ نظرها في عتاب رقيق كأنها تستنكر السؤال وبثقة كبيرة في النفس .. بالطبع ماذا كنت تتوقع .. لكني لم أطهو الطعام اليوم على كل حال .. أتيت متأخرة من العمل .. أرجو في فرصة أخرى قريبة وليكن ذلك في يوم إجازتي أن أذيقك طهوي للطعام لتحكم بنفسك.. تغيرت صورتها السابقة تماماً في الدقائق القليلة التي أمضيتها معها .

رحت أختلس اليها النظر بدهشة شديدة طوال فترة جلوسنا الى مائدة الطعام أحاول ان أستشف ذلك الشيء الغامض الجديد الذي يشدني بقوة الى هذه الفتاة القبيحة .

إن وجه هذه الفتاة بعيد تماماً عن الجمال بمقاييسه التقليدية لكني أراه مقبولاً للمرة الأولى منذ أول لحظة رأيتها فيها .

هناك شيء غريب آخر لا يمكن تفسيره يشدني الى هذه الفتاة الغريبة .. شيء لا يمكن وضعه داخل مقاييس محدودة لكن يمكن الإحساس به طول الوقت .

وجهت نظرة حذرة الى وجه زوجتي حتى لا تلاحظ أنني أراقبها .. اصبت بصدمة قاسية وأنا أقارن بينها وبين أختها الجالسة الى جواري .. الفتاة التي اعتاد الناس ان يصفوها بأنها قبيحة وألا مجال أمامها للحصول على زوج .

كان أمامي تمثال حي للبلادة واللامبالاة.. تمثال مقزز يدعو الى الكراهية والاشمئزاز .. انتابتني رغبة عارمة في ان أصفع زوجتي لأخرجها من حالة الجمود واللامبالاة المسيطرة عليها .. لأذلها .. لأنتقم منها .. لأشعرها بأني موجود وقوي ويمكنني السيطرة عليها وترويضها أو نبذها تماماً من حياتي .

بدأ طوفان من الذكريات الأليمة يتوافد على مخيلتي في تلـك اللحظة .. اللحظات التي كانت تعود فيها من المطبخ في حالة ثورة شديدة لأن النار الملعونة لسعت إصبعها الرقيق الجميل أو لأنها عجزت عن صنع قدح من القهوة طلبته منها .. إلحاحها الدائم كي أستأجر لها طباخاً في وقت لم أكن فيه قادراً على ذلك في بدىء حياتنا الزوجية .

زوجتي جميلة بالمقاييس التقليدية للجمال لكنها تبدو فجة في نظري كفاكهة لم تنضج بعد .. فاكهة فيها قليل من السكر وكثير جداً من المرارة .. شيء هام كان ينقص هذه الفتاة المتناسقة الملامح لتصبح جميلة بحق .. شيء يشع من الداخل كالروح او الذكاء .. شيء كان يوجد بوفرة لدى أختها القبيحة .

في تلك اللحظة كانت مشغولة بلا شيء سوى تناول الطعـام بشهية تحسد عليها خاصة بعد مشاجرة من النوع الذي دار بيننا .. رأسهـا الصغير الجميل يطحن الفراغ .. حولها خيوط هلامية دقيقة كالشرنقة التي تحتمي خلفها من كل المؤثرات الخاصة التي يمكن أن تخرجها من جمودها وبلادتها.. من استمتاعها المطلق بمرور الوقت دون عمل شيء سوى الاسترخاء التام عقلياً وجسمانياً .. بين الحين والآخر كانت تمارس نشاطـاً من نوع ما .. كانت تضع كمية إضافية من الطعام في طبق امها ثم تأخذ في الالحاح عليهـا بطريقة مقززة للغاية حتى تلتهمه عن آخره .. تفعل ذلك بحماس حقيقي مثير للقرف .. نظرتهـا إليّ تنم عن كراهية بالغة .

دوى صراخ طفلنا الرضيع قادماً من حجرة النوم الكائنة في آخر الشقة.. ايقظنا الصوت المتشنج من حالة الجمود والرتابة المخيمة علينا .. وجه زوجتي تلون بغضب مفاجىء لم تستطع ان تخفيه .. تحولت الى تمثال من الرخام البارد القاسي الملامح وهي تصرخ بأعلى صوتها منادية على الخادمة .. أمرتها ان تعد للطفل وجبة الطعام الجافة التي لا تعد له في الغالب إلا عندما يأخذ في الصراخ الشديد من الجوع ودائماً في اللحظة الأخيرة .

تذكرت المناقشات العميقة التي دارت بيننا حول هذا الموضوع فأنا كطبيب طالما نصحتها بإرضاع الطفل من ثدييها بدلاً من الرضاعة الصناعية لأن هذا أفيد لها وللطفل لكنها أصمت اذنيها عن سماع نصائحي وكان السبب الحقيقي لذلك انها كانت تخشى على ثدييها الصغيرين الجميلين ان يتهدلا قبل الأوان وكان هذا بناء على نصيحة أمها .

وجهها الغاضب يتلون بكل ألوان الطيف .. تنقم على الطفل المسكين الذي يصرخ من الجوع انـــه اضطرها للكف عن تناول الطعام والانشغال بأزمته الطارئة .. تكاد تبتهل اليه ليتوقف عن الصراخ الذي بدأه لتعود من جديد لتناول طعامها .

الطفل المشاكس لا يريد ان يتوقف عن الصراخ .. أمرت الخادمة بعصبية بالغة ان تحضره اليها .. اخذته من الخـــادمة بتأفف شديد .. وضعت حلمة الزجاجة بين شفتيه .. الطفل يرضع بنهم شديد .. حلمة الزجاجة تخرج من بين شفتيه .. يعود للصراخ من جديد .. وجهها يتلون بنفس ألوان الطيف القديم .. تضع له حلـــة الزجاجة بين شفتيه بعصبية شديدة .. تنهره بعنف ليكف عن الصراخ.. الطفل يتوقف عن الصراخ بنهم.. تخرج حلمة الزجاجة من فمه.. يصرخ من جديد.. تضع له حلمة الزجاجة مرة اخرى بين شفتيه.. يتوقف عن الصراخ .. يرضع بنهم .. من الواضح ان هناك معركة بينها وبين الطفل المسكين الذي يريد ان يأكل بهدوء .. تحس انها تقوم بمهمة بغيضة الى نفسها .. تنقم على الطفل المسكين لأنـــه تسبب في إزعاجها ومضايقتها .. واقفة بالطفل الى جوار نافذة الحجرة المفتوحة .. خشيت ان تلقي بالطفـل من النافذة لو تمادى في مضايقتها اكثر من ذلك .. لا يوجد حنان بينهما كأنها لم تلده من قبل .

فجأة قامت اخت زوجتي وطلبت من اختهـا وفي رقة بالغة ان تعطيها

الطفل .. اخذته بين احضانها في حنان بالغ .. راحت تدندن له إحدى الأغنيات الرقيقة الحالمة وهي تدور به في أرجاء الحجرة والطفل الذي يرضع بنهم قد استكان لها تماماً .

بدأت افكر في الأشياء التي حدثت عندما كنت لا أزال خاطباً لزوجتي منجذباً بكل مشاعري الجياشة اليها .. الى جمالها الحسي المثير الذي ألغى تماماً تفكيري .. الجانب العقلاني منه على الأقل .

كنت افكر احياناً نتيجة تصرفات طائشة من خطيبتي ان شيئاً هاماً ينقصها .. شيئاً لا استطيع تحديده على وجه الدقة وإن كنت احسه بكل مشاعري .. الغريب انني كنت اجد هذا الشيء متوافراً لدى اخت زوجتي الكبيرة التي كنت ومعي كل الناس ننظر اليها على انها فتاة قبيحة معقدة .

كان هذا الاحساس يجعلني متأرجحاً بين الاختين .. كان هذا يبدو واضحاً في لحظات اجتماعها معاً حيث كان من الممكن ان اتطرق الى موضوعات لا اطرقها عادة عندما اكون منفرداً مع خطيبتي التي كان اهتمامها محصور دائماً في نطاق مشاكل البيت المباشرة واهتماماتها الخاصة وجمالها .. كنت اجد نفسي في الكلمات التي أتبادلها مع اخت خطيبتي .. شخصيتي الحقيقية .. الموضوعات التي تثيرها اخت خطيبتي تصيب اختها الجميلة بالقرف لذلك تعمد دائماً الى تحويل دفة الحديث الى موضوع آخر او تغادرنا اذا لم تستطع ذلك .

جمال خطيبتي الحسي المثير يشرق فجأة أمام عيني .. يملؤها بدفء غريب يهيج حواسي .. تتبدد كل سحب الشك التي ثارت في نفسي من ناحية شخصيتها التافهة .. أعزي نفسي قائلاً .. ما حاجتي وأنا نائم الى جوارها في الفراش الى مناقشة قضية فيتنام مثلاً او التفرقة العنصرية وأعود من جديد الى أحضان خطيبتي الدافئة .

اخت زوجتي تأتي لتجلس معنا .. تثير موضوعاتهـــا القريبة من عقلي وقلبي .. أتأرجح من جديد بين الأختين .

في النهاية استطاعت خطيبتي ان تحسم الصراع نهائياً لصالحها ومن جانبي ساعدتها على ذلك إذ تعمدت ألا أدع الفرصة مواتية امام اختها لتفسد حياتي.. لم أكن في ظروف تسمح لي بمناقشة عقلانية هادئـــة للموضوع الذي يشغل تفكيري .. مشاعري الجياشة تجاه مفاتن خطيبتي الجميلة ألغت عقلي تماماً .. قدرتي السليمة في الحكم على الأشياء .

الآن احس انني أدفع ثمناً غاليـــاً لغبائي وانقيادي الأعمى لغرائزي .. مستلق فوق الفراش استعيد ذكريات المعركة التي دارت منذ قليل بيني وبين المرأتين المتربصتين بي .. اشعر بمرارة هائلة .. أحس كما لو أنـــه توجد قنبلة زمنية في مكان ما من حياتي الزوجية وأنها ستنفجر في لحظة مـــا هادمة كل الأحلام الجميلة التي بنيتها .. اتذكر حادثة غريبة تتضح امامي الآن بصورة متزايدة .. ينز منها سائل بالغ المرارة .. يومـــاً ما كنت جالساً مع خطيبتي وأختها القبيحة حول مائدة صغيرة مستديرة في حديقـــة بيت خطيبتي .. لمحت كلب الحديقة الضخم يمر من جانبي.. أشرت له بالاقتراب.. تقدم الكلب ناحيتي باذلاً محـــاولة مخلصة للتعارف بيننا .. اخذت أربت له رأسه الضخمة بأصابعي وأتأمل عينيه الجميلتين وأشاهد ذنبه وهو يهتز في طيبة ومرح والكلب من ناحيته يتشمم ساقي ببوزه الطويل ويتمسح في طرف بنطلوني بجسمه الضخم المغطى بالشعر الكثيف وهو يوجه إليّ نظراته المليئة بالطيبة والحنان .

أشرت له بالابتعاد بعد أن أحسست بالملل منه .. جلس أمامنا على نجيل الحديقة الأخضر فارداً ذراعيه إلى الأمام واضعاً بوزه الطويل فوقهما يوجه إليّ تلك النظرات الغريبة التي تفيض حناناً .. منذ تلك اللحظة أصبحنا أصدقاء وأصبحت أفتقد الكلب ونظراته الحنونة إذا لم أجده أمامي .. الشي الذي ظل يحيرني هو تلك السطور الغريبة التي كنت اقرؤها في عينيه عندما ينظر

بها إليّ تلك النظرات الطويـلة المليئة بالحنان .. السطور المكتوبـة بلغة لا أفهمها .

كان الكلب يبذل محاولات مستميتة لكي ينقل إليّ احساساً ما .. احساساً غامضاً غريباً كنت من ناحيتي احاول أن اترجم هذا الاحساس إليّ لغة افهمها لكنني أعجز دائماً عن الوصول إلى أبجدية هذه اللغة الغريبة .

في النهاية أصبحت نظرات الكلب تضايقني لأنني لا افهمهـا ولا احسن التعرف على أغراضها .. تخرجني من حالة الاستمتاع اللذيذة التي أجد نفسي غارقاً فيها وأنا جالس مع خطيبتي الجميلة .

كان كلما تقدم مني امرته بعصبية ان يبتعد وكنت كلما رأيته جالساً على النجيل أمامي فارداً ذراعيه إلى الأمام وفوقهما رأسه الضخمـــة التي تلمع وسطها كرتا العسل المليئتان بالحنان والطيبة نهرته حتى يبتعد وأخيراً اصبح الكلب يبتعد كلما رآني أمامه وتدريجياً لم اعد ألمح في عينيه تلك الطيبة غير المحدودة ولا السطور التي احاول جاهداً ان افسرها دون جدوى .. تحولت عيناه من وجهة نظري إلى زجاج لامع شفاف لا يوجد فوقه شيء على الاطلاق أو إلى خرزتين كبيرتين كعيني دبة محشوة بالقش .

في تلك الأيام حاول والد خطيبتي الجميلة وبمنطق عقلاني بحت ان يثنيني عن الزواج منها مقترحاً بدلاً من ذلك أن اقترن باختها الكبيرة التي تناسبني في السن فضلاً عن قدرتها على مساعدتي براتبها على فتح بيت الزوجية خاصة وقد كنت في بداية حياتي كطبيب .. لكنني أصممت اذني عن سماع نصيحة الرجل المسكين لي واصررت على الزواج من خطيبتي الجميلة قائلاً له في صلف حقير لم اقدّر عواقبه إلا الآن .. اما ان تعطيني هذه الفتـــاة يا سيدي أو ارحل على الفور .

انا ادرك الآن انني مزقت قلب الرجل المسكين وقطعته كقالب من الزبد

بسكين حامية جداً لكنني ادرك ما هو أخطر من ذلك .. ادرك ان الرجل كان على حق وانني ادفع ديناً قديماً له .

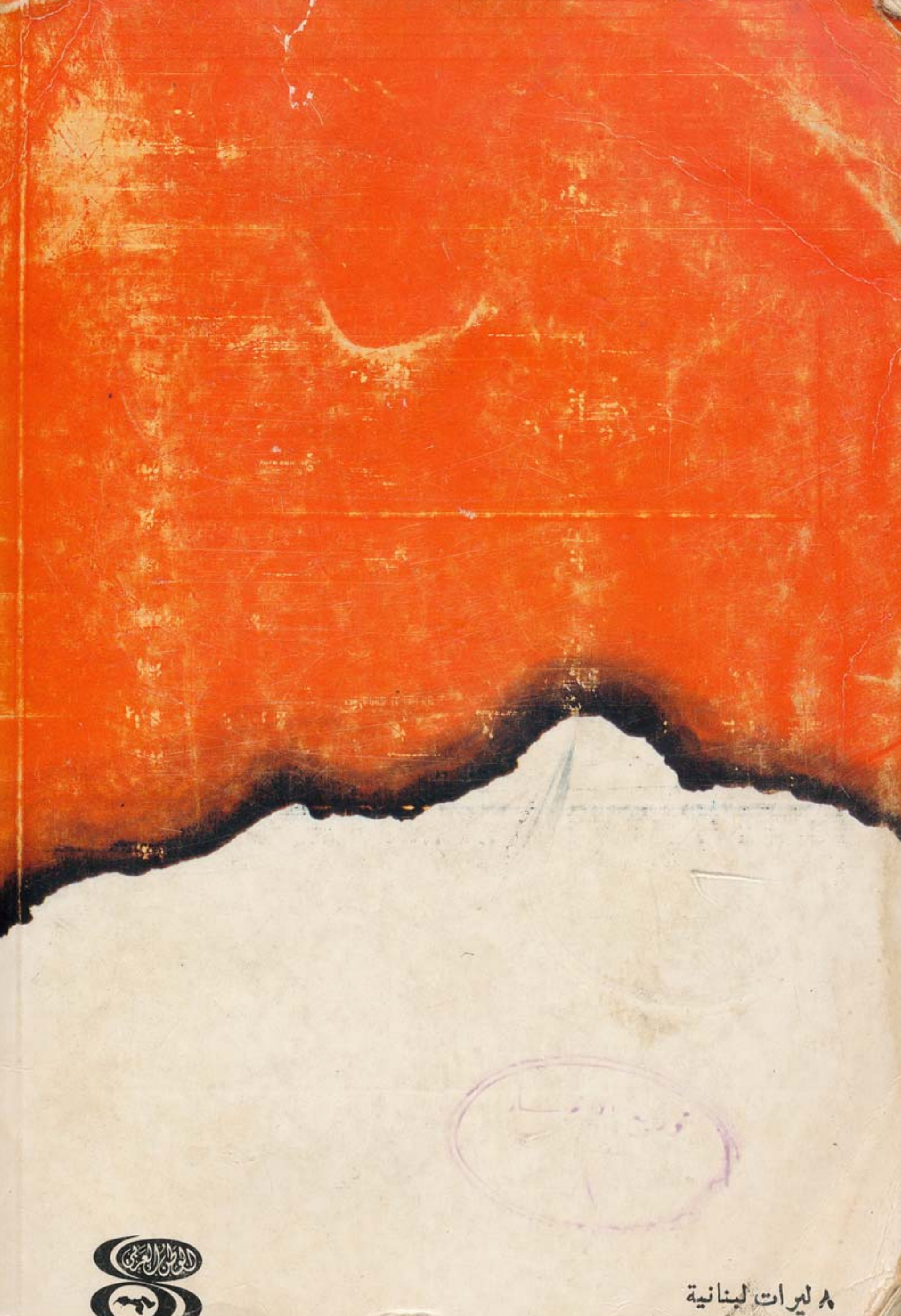
يوماً ما كنت جالساً مع خطيبتي واختها حول المائدة المائدة المستديرة في حديقة المنزل ولم تكن العلاقـــة قد تأزمت بعد بيني وبين الكلب الضخم وعندما جاء الوقت لينصرف بعيداً لاحظت انه تجنب المرور بجوار خطيبتي بطريقة ملفتة للنظر تماماً .. تجنب مجرد الاحتكاك بها مفضلاً ان يقوم بدوره شبه كاملة حول الطرف الآخر من المائدة ليصل الى اختها الجالسة على الناحية الاخرى كان يخشى ان تنهره او تؤذيه بصورة ما .. ولاحظت ان خطيبتي الجميلة تنظر بفتور شديد إلى الكلب وانها تبادله العواء الشديد وعندما وصل الكلب إلى اخت خطيبتي الجالسة عند الطرف الآخر من المائدة حدث تحول مفاجيء في مشاعره لمعت عيناه بشدة وتحرك ذنبه وهو يقترب منها ولاحظت للوهلة الاولى علاقة الصداقة والحب العميقة التي يكنها كل منهما للآخر .

مد بوزه الطويل وراح يشمشم رداء الفتاة الفضفاض الذي يغطي ساقيهـا المعجفاوين ولم تنفر منه الفتاة .. مدت اصابعهـا المعروقة السمراء وراحت تربت له رأسه الضخمة الشبيه برأس الدب بحنان شديد وهي تميل على جسمه الضخم وتحتضنه بحنان واضح وتقبـــله ثم وضع الكلب رأسه الضخمة فوق ساقيها وراح يوجه اليها نظراته الحنونة الدافئة .

كان يمكن ان افسّر تصرف خطيبتي على تجردها من مشاعر الحنان الحقيقي وألا اسمح لعاطفتي بالتمادي وراء محاسنها الجسمانية لكنني لم افعل ذلك وانا ادرك الآن كم كنت احمقاً مسلوب الارادة.. ان الناس الذين لا يحبون الحيوانات ناس مجردون من مشاعر الانسانية الحقيقية ولقد اثبتت التجربة ذلك في حياتي الخاصة والحيونات تعلم ذلك بالتأكيد لذلك لا تبادلهم الحب بـل الكراهية والنفور .

في داخل الكلب كان يوجد جهاز دقيق لقياس معادن الأشخاص .. كان هذا الجهـــاز الذي لا يخطىء يحدد نوع المعدن الرخيص الذي صنعت منه خطيبتي .. عنادها .. شراهتها .. غباءها .. قسوتهـا البالغة لكنني لم أفهم السطور الغريبة المكتوبة فوق عيني الكلب لأنها مكتوبة بلغة غريبة بالنسبة لي .. لغة غـير مفهومة .. كان الكلب يرى الأعماق .. أعماق الأعماق من الانسان وكنت أرى الشكل .. مجرد السطح الخارجي للناس الذين أتعـامل معهم .. الغريب ان الناس وأنا منهم ينظرون الى الكلب نظرتهـم الى كائن حقير مليء بالغباء وأنا أعتقد ان تلك مأساة الانسانية لأن الكلب بالتأكيـد يعرف اكثر منا جميعاً .. يعرف اكثر من كل الناس .

* * *


الوطن العربي
٨ ليرات لبنانية